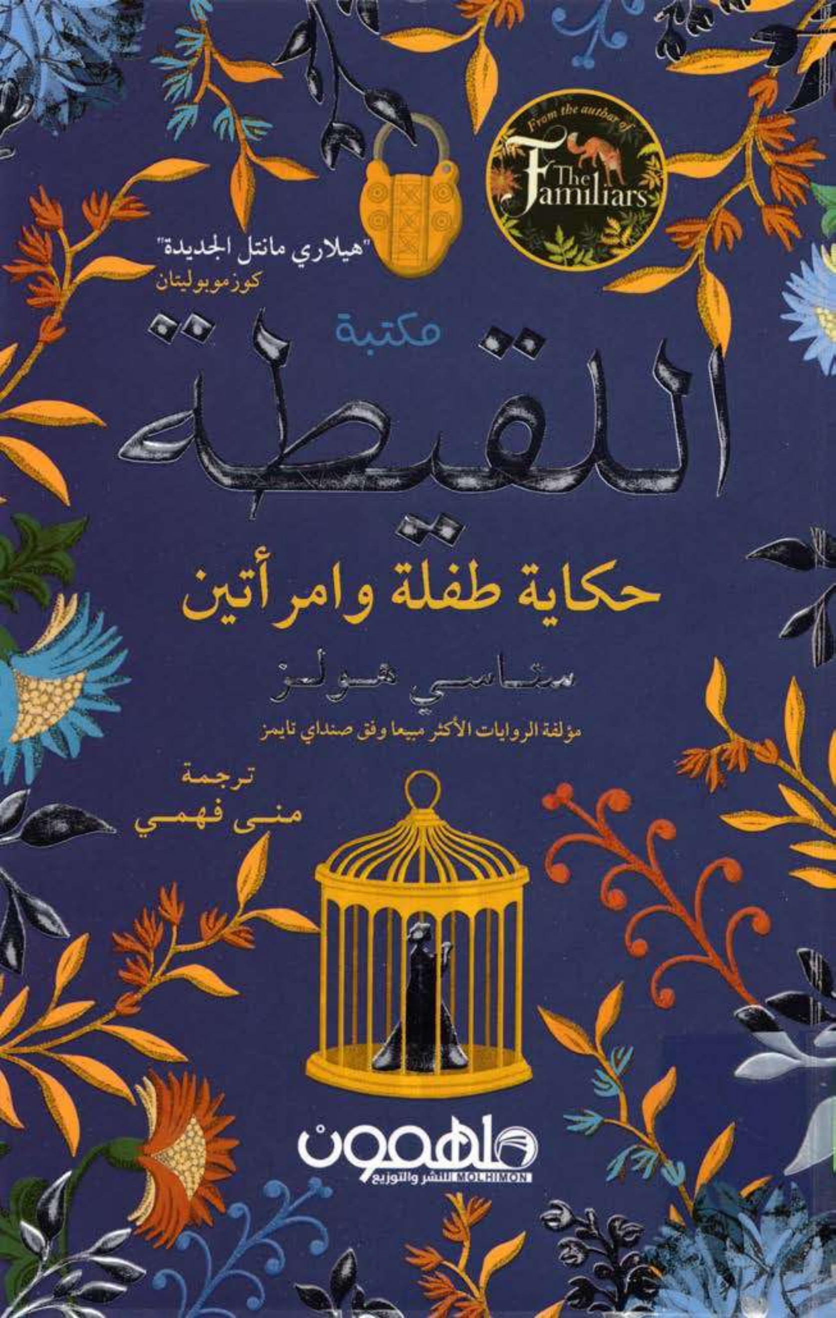

From the author of
The Familiars
"هيلاري مانتل الجديدة"
كوزموبوليتان
مكتبة
اللقيطة
حكاية طفلة وامرأتين
ستاسي هولز
مؤلفة الروايات الأكثر مبيعا وفق صنداي تايمز
ترجمة
منى فهمي
ملهمون
MOLHIMON للنشر والتوزيع

اللقيطة



◀ الكتاب: اللقيطة
◀ المؤلف: ستاسي هولز
◀ ترجمة: منى فهمي
◀ التصنيف: رواية
◀ الناشر: دار ملهمون للنشر والتوزيع
◀ الطبعة الأولى: مارس 2023
◀ التصنيف العمري: E

تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقًا لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام.

◀ الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN: 978-9948-04-247-1
◀ إذن طباعة: MC-10-01-6265335

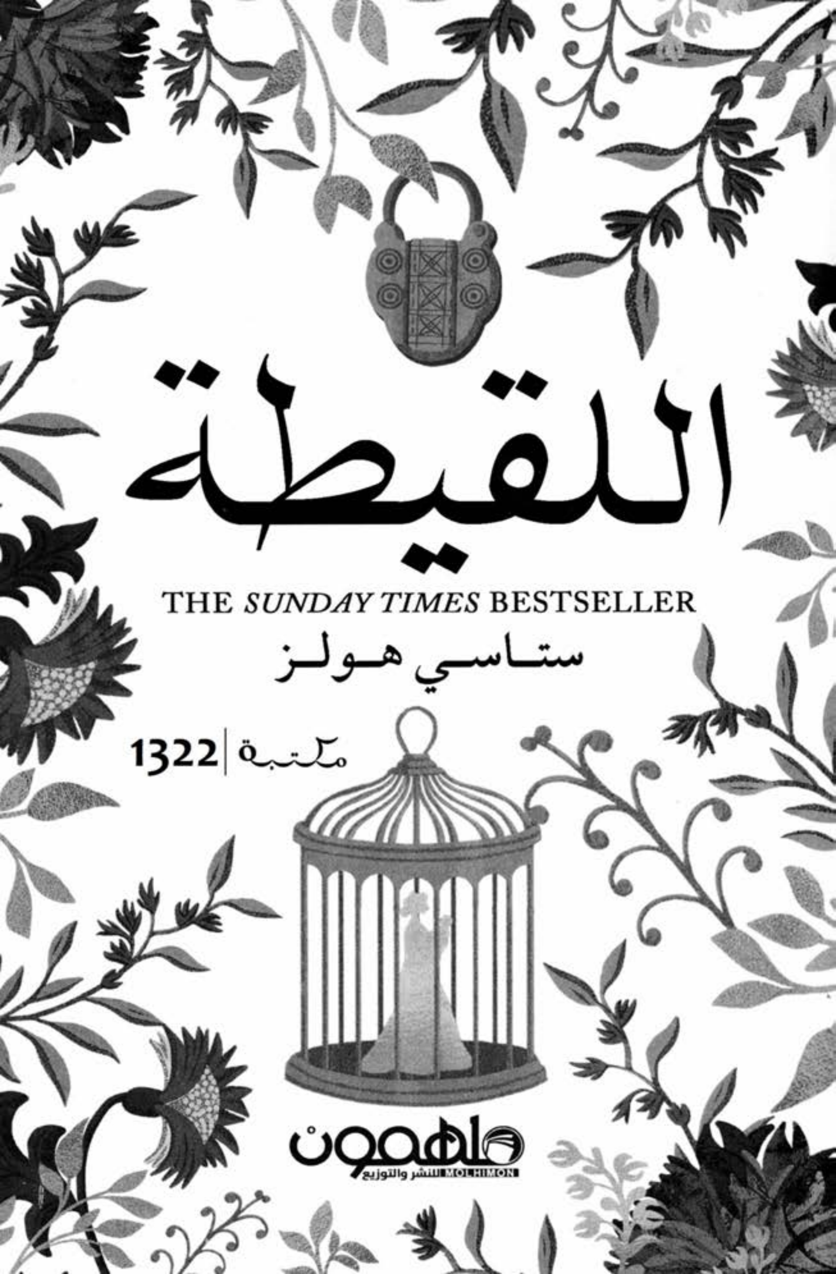
ملهمون للنشر والتوزيع MOLHIMON



◀ الطباعة: Masar Printing & Publishing, Dubai



darmolhimon
www.darmolhimon.com
00971655511 84
Darmolhimon | UAE, Dubai, Silicon Oasis | Park Avenue Building, Office 405


اللقيطة
THE *SUNDAY TIMES* BESTSELLER
ستاسي هولز
مكتبة | 1322
ملهمون
MOLHIMON للنشر والتوزيع

عن الكاتبة

وُلدت ستايسي هولز عام ١٩٨٩م وشبَّت في بلدة روسينديل بمقاطعة لانكشاير. درست الصحافة في جامعة سنترال لانكشاير وكتبت لصحف ومجلات مثل، *الجارديان وستايليست وسايكولوجيز والإندبندنت وذا صن وفابيوليس*. أصبحت روايتها الأولى، ذا فاميليارز، هي الرواية البكر الأكثر مبيعا لعام ٢٠١٩م. أما اليتيمة المفقودة فهي روايتها الثانية.

هذه رواية خيالية. جميع الأسماء والأماكن والوقائع والأحداث إما نتاج خيال المؤلفة أو استُخدمت في قالب خيالي.

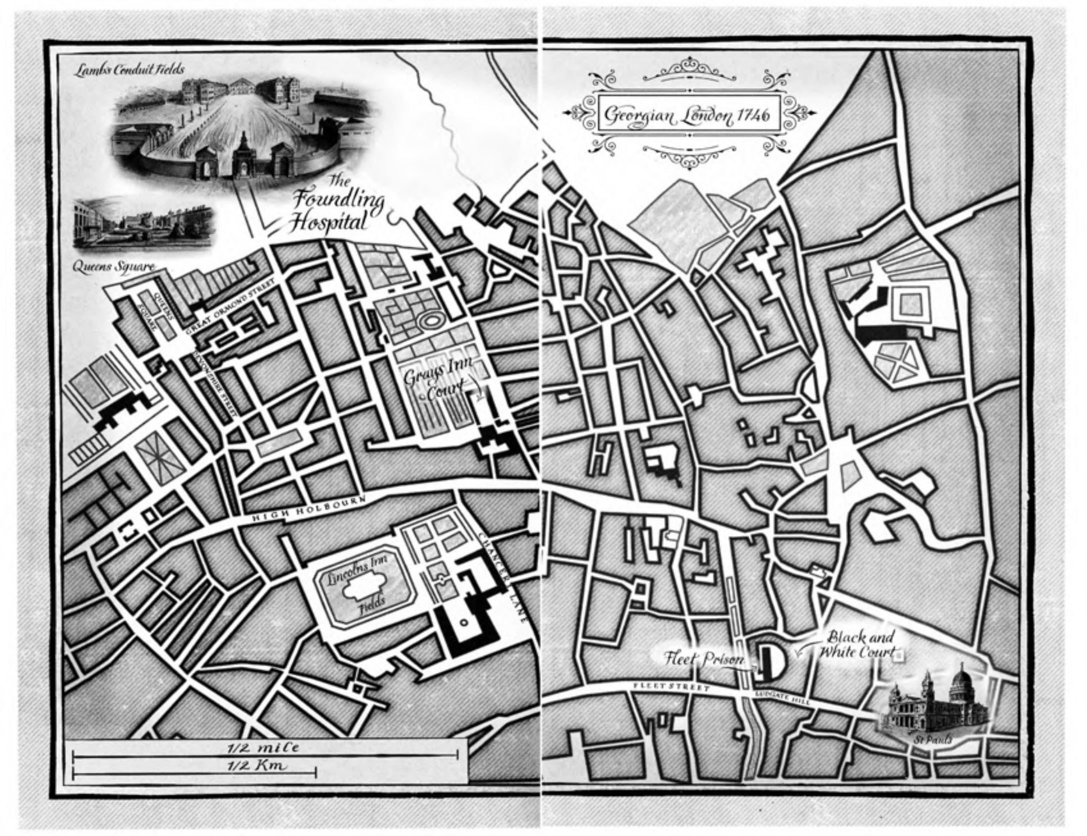
إلى والدي، إيلين وستيوارت.

"سأخرج حاملة مصباحا، لأبحث عن نفسي"

إيميلي ديكنسون



t.me/soramnqraa


Georgian London 1746
Lambs Conduit Fields
The Foundling Hospital
Queens Square
QUEENS SQUARE
GREAT ORMOND STREET
DEVONSHIRE STREET
Grays Inn Court
HIGH HOLBOURN
CHANCERY LANE
Lincolns Inn Fields
Fleet Prison
Black and White Court
FLEET STREET
LUDGATE HILL
St Pauls
1/2 mile
1/2 Km

تليجرام

معنا

سور الأزبكية

تليجرام

غواص في بحر الكتب

ساحة لابمز كوندويت **Lamb's Conduit Fields**

ملجأ فاوندلينج **The Foundling Hospital**

ميدان كوينز **Queen's Square**

شارع جريت أورموند **Great Ormond Street**

شارع ديفونشاير **Devonshire Street**

زقاق خان جريز **Grays Inn Court**

هاي هولبورن **High Holbourn**

ساحة خان لنكولن **Lincolns Inn Fields**

حارة تشانسري **Chancery Lane**

١/٢ ميل **1/2 mile**

١/٢ كم **1/2 Km**

لندن في العهد الجورجي ١٧٤٦ **Georgian London 1746**

سجن فليت **Fleet Prison**

زقاق بلاك آند وايت **Black and White Court**

شارع فليت **Fleet Street**

لودجيت هيل **Ludgate Hill**

كاتدرائية سانت بول **St Paul's**

الجـــزء الأول



بيس

أواخر تشرين الثاني، ١٧٤٧م

الفصل الأول



كان الرُّضَّع في لفَّاتهم أشبه بهدايا جاهزة للتقديم. بعضهم أُلبس أثوابا جميلة -وإن لم يكن ذلك حال أمهاتهم- ذات أكمام صغيرة مطرزة مع أوشحة ثقيلة، إذ كان الشتاء قد حلَّ، وأصبح الليل قارسًا. كنتُ قد دثَّرتُ جين بحرام قديم انتظر سنوات ليرتق، ثم تعذر ذلك الآن. وقفنا محتشدين في المدخل ذي الأعمدة، وكنا ثلاثين أو نحو ذلك، كفراشات عث تحت المشاعل المضيئة في حواملها، وقلوبنا تخفق كأجنحة ورقية. لم أكن أعرف أن ملجأً للأطفال الذين تخلى عنهم آباؤهم سيكون قصرا، له مائة نافذة مُضيئة ومركن للعربات. وبناءان عاليان ومبهران قد انتصبا كوتدين على طرفي فناء داخلي بينهما مُصلَّى. وفي الجدار الشمالي للجناح الغربي، وقف الباب مفتوحا، ومُلقيا ضوءا على حجر الطريق. وخلفنا بدت البوابة بعيدة جدا. كان بعضنا سيغادر بذراعين خاويتين؛ وآخرون سيحملون أطفالهم إلى البرد من جديد. ولهذا لم تتجرأ إحدانا على النظر إلى الأخرى، وأبقينا أعيننا في الأرض.

كانت جين تتشبث بإصبعي، الذي تراكب داخل راحة يدها

الصغيرة كما يتراكب المفتاح داخل القفل. تخيلتها لاحقا تمد يدها لتمسك به، فلا تجد سوى الفراغ. ضممتها لي أكثر. وقف أبي، والذي نخاطبه أنا ونيد شقيقي بإيب تقليدا لوالدتنا، وقف خلفي بمسافة قصيرة، ووجهه في الظل. لم يحمل الرضيعة منذ وُلدت. وكانت القابلة -وهي امرأة عريضة من زقاق مجاور، أجرها زهيد بقدر تكتمها- قد عرضت عليه حمل الرضيعة وأنا أرقد مُستنزفة في الفراش، أتأجج بالألم، فهز رأسه، وكأنها بائعة جوالة تعرض عليه خوخا.

قادنا للداخل رجل نحيف ذو ساقين هزيلتين ويعتمر باروكة رسمية، عبر ردهة لم أر مثلها من قبل، حيث لمعت كل الأسطح، بداية من الدرابزين المصنوع من خشب الجوز إلى الساعة الطويلة المصقولة. لم يُسمع في المكان سوى حفيف تنانيرنا وأحذيتنا على الأرضية الحجرية - قطيع صغير من نسوة انتفخن بالحليب، ويحملن صغارهن. كان المكان خليقا بأصوات خفيضة ورقيقة، وليس أصوات الباعة المتجولين أمثالي.

شق موكبنا الصغير طريقه فوق البساط الأحمر القاني الذي غطى السلم، ثم إلى داخل غرفة عالية السقف. لم يكن إطار الباب يتسع سوى لتنورة واحدة ورضيع في لفة، وعليه وقفنا في صف بالخارج، كنبيلات في قاعة رقص. كانت المرأة التي تقف أمامي سمراء البشرة، وشعرها الأسود مطوي تحت قلنسوتها. رضيعها مضطرب، يحدث جلبة أكثر من الباقي، فهدهدته بنفس هالة المبتدئين التي امتلكناها جميعا. تساءلتُ كم واحدة يا ترى علمتها أمها كيف تقمط مولودها، وكيف ترضعه. تذكرتُ أمي في ذلك اليوم

خمسين مرة تقريبا ضعف ما تذكرتها بالعام الماضي. كنتُ أشعر بها في صرير ألواح الأرضية ودفء الفراش، ولكن ذلك عهد انقضى.

كانت حوائط الغرفة التي دخلناها مكسوة بورق أخضر، ويزين حواف سقفها جص أبيض أنيق. ومع أن المدفأة خلت من النيران، إلا أن الغرفة كانت دافئة وساطعة الإضاءة، بمصابيح متوهجة وصور مُبروزة بإطار ذهبي على الجدران. وصلصلت ثريا في منتصف السقف. كانت من أجمل الغرف التي وقفتُ فيها، وكانت مزدحمة بالناس. حسبتُ أننا سنكون بمفردنا، مع أسطول ربما من خادمات الأطفال اللاتي سيأخذن الرُّضع المقرر بقاؤهم، لكن عددا كبيرا من الوجوه اصطفت أمام الجدران -معظمها لنساء، بدا واضحا أنهم لسن خادمات أطفال، يهوِّين وجوههن بالمراوح ويبتسمن بفضول. كنَّ بغاية الأناقة ويجذبن النظر، وكنَّا نثير اهتمامهن. يخيَّل لمن يراهنَّ أنهن خرجن من اللوحات المعلقة على الجدران؛ فكانت أعناقهن تتلألأ بالجواهر، وتنانيرهن المنفوشة زاهية كالزنبق. وشعورهن مرفوعة بالدبابيس ومخملية بفعل البودرة. انتشر أيضا في المكان نصف دستة من رجال تمنطقوا بأحزمة فضية وبطونهم مكورة -خلافا لإيب، بمعطفه الباهت الشبيه بجراب علف الخيول. أظهر الرجال تجهما أكبر، وكان عديد منهم يرمقون الفتاة خليطة العِرْق، وكأنها معروضة للبيع. في أيديهم التي تغطيها القفازات حملوا كؤوسا صغيرة، وأدركتُ أنهم يعتبرونها حفلة.

كنتُ أنزف دم النفاس بعد، إذ ولدتُ جين قبل شروق ذلك اليوم، وكنتُ أشعر بالتمزق في كل شبر من جسدي. لم يمضِ على

أمومتي لها يوما كاملا بعد، لكني عرفتها كما أعرف نفسي: رائحتها، الدقات الصغيرة لقلبها الذي نبض بداخلي. قبل حتى أن تخرج مني، حمراء وباكية، عرفتُ كيف سأشعر عند حملها وكم ستزن بين ذراعي. تمنَّيتُ أن يأخذوها، وتمنَّيتُ ألا يفعلوا. فكرتُ في وجه إيب المتغضن، عيناه في الأرض، ويداه الخشنتان تمسكان لي الباب. كان الأب الوحيد في الغرفة. أكثر الأخريات كن بمفردهن، لكن بضعة جئن رفقة صديقات أو شقيقات أو أمهات نظرن حولهن في بؤس. تجنب إيب مقابلة عيني، ولم يقل الكثير أثناء سيرنا البطيء والحزين من زقاق بلاك آند وايت حيث أقمنا في المدينة، بيد أن وجوده كان بمثابة ذراع تحيط بكتفي. عندما تناول معطفه في البيت وقال إن الوقت قد حان للذهاب، أوشكتُ على البكاء ارتياحا؛ حيث لم يخطر لي أنه سيرافقني.

خيَّم الصمت في أرجاء الغرفة عندما شرع رجل يقف أمام المدفأة الضخمة في الكلام. كان صوته بعمق وثخانة السجاد. حدقتُ في الثريا أثناء سرده لطريقة السحب في القرعة: حيث الكرة البيضاء تعني قبول الطفل، والسوداء تعني رفضه، والحمراء تعني انتظار فشل أحد الأطفال المقبولين في الفحص الطبي. شحذتُ كل طاقتي لأنصت.

قال الرجل: "هناك عشرون كرة بيضاء، وخمس حمراء، وعشر سوداء."

حركتُ جين أمام صدري. صار الأثرياء في طرف الغرفة يتطلعون نحونا بجرأة أكبر الآن، مُتسائلين أيَّنا سيحالفها الحظ، وأيَّنا

قد تترك رضيعها في الشارع ليموت. من منا عزباء. ومن منا مومس. ثم بدأت ممرضة تتحرك حول الغرفة بجراب قماشي لنمد أيدينا في داخله. وإذ جاء دوري، صار قلبي يدق بكل قوته في صدري، والتقت عيناي بنظرتها اللامبالية وأنا أنقل جين إلى ذراع واحدة وأمد يدي داخل الجراب. كانت الكرات ملساء وباردة كالبيض، وأمسكت واحدة في قبضتي، محاولة استشعار لونها. هزت الممرضة الجراب بصبر نافذ وأوحى لي شيء ما أن أُفلت الكرة وآخذ أخرى، ففعلت.

سألتها: "من يكون المُتفرجون؟"

"مدعوُّون،" كان ردها الملول. قبضتُ على كرة أخرى، ثم أفلتُّها، فهزَّت الجراب مرة أخرى.

"لأي غرض،" سألتُ بصوت خافت، واعية للأعين الكثيرة التي تتركز فوقي. تخيَّلتُ أبنائهم وبناتهم في منازلهم الضخمة ببلغرافيا ومايفير، نائمين تحت بطانيات دافئة، شعورهم مُسرَّحة وأجسادهم مُحمَّمة وبطونهم ملأى بالحليب. قد يزورون غرفة أطفالهم قبل أن يأووا إلى فرشهم الليلة، بعد أن أثار موقفنا البائس عاطفتهم، ويضعون قبلة على خدودهم النائمة. كانت إحداهن تحدق بي بشدة، وكأنما تمنَّت أن أسحب لونا معينا. كانت ضخمة وتمسك في إحدى يديها مروحة وفي الأخرى كأسا صغيرة. وتضع ريشة زرقاء في شعرها.

"إنهم متبرعون،" كان كل ما قالته الممرضة، وإذ شعرتُ أنها نهاية الأسئلة، وعلمتُ أن عليَّ اختيار كرة، رسوتُ على واحدة، فوزنتها في كفي. سحبتها، وغرقت الغرفة في الصمت.

كانت الكرة حمراء. سيتوجب عليَّ الانتظار.

انتقلت الممرضة إلى المرأة التالية، فيما راقبت البقية رحلتها حول الغرفة، بفكوك مطبقة ومتوترة من محاولة حساب الكرات التي سُحبت وتلك التي تبقت. كانوا قد نبَّهونا عند البوابة أن أطفالنا يجب ألا تزيد أعمارهم عن شهرين، وأن تكون صحتهم جيدة. لكن عديدا منهم كانوا مخلوقات واهنة وجائعة حاولت أمهاتهم أن تداريهم. بعضهم بلغ ستة أشهر على الأقل، قد أحكمت اللفات من حولهم ليبدو حجمهم أصغر فصاروا يصرخون في ضيق. كانت جين أصغرهم حجما وعمرا. ظلت عيناها مغلقتان منذ وصلنا. لذا إن كانت هذه آخر لحظاتها معي، فلن تعرف. كل ما أردته هو التكور حولها في الفراش مثل قطة والنوم، ثم آتي في الشهر القادم. فكرتُ في عار إيب الصامت. ثقُل به منزلنا في زقاق بلاك آند وايت؛ لطخه كدخان فحم وأرسل العفن في دعاماته الخشبية. فكرتُ في أخذها إلى حي بيلينجزجيت، ووضعها فوق كشك أبي مثل تمثال صغير على مقدمة سفينة. حورية، وُجدت في البحر وعُرضت حتى يراها الجميع في كشك روبيان إبراهام برايت. ودَّت نفسي لوهلة لو أصحبها معي أثناء البيع، فأربطها إلى صدري حتى أغرف الروبيان بحرية من قصعتي. رأيتُ من قبل بعض البائعات المتجولات وقد ثبتن صغارهن إلى صدورهن، ولكن ماذا يحدث عندما يتجاوزون حجم الرغيف؟ عندما يتحولون إلى مخلوقات صغيرة وبدينة لهم أيادٍ وأقدام وأفواه خاوية وجائعة؟

شرعت امرأة في النحيب، وكرة سوداء في قبضتها المُحكمة.

وعلى وجهها ووجه طفلها نفس قناع اليأس التعيس. صرخت: "لا يمكنني الاحتفاظ به. يجب أن تأخذوه، أرجوكم." وبينما هدَّأها الخدم وأشاح بقيتنا حفظا لماء وجهها، تثاءبتُ بشدة حتى ظننتُ وجهي سينشقُّ إلى نصفين. لم أنم لأكثر من ساعة منذ ليلتين عندما بدأ المخاض. وفي هذا الصباح جالس نيد الرضيعة أمام المدفأة ليتأتَّى لي إغلاق عيني، إلا أن شدة الألم حالت بيني وبين النوم. وما زال كل شبر مني يؤلمني الآن، وكان عليَّ في الصباح أن أذهب للعمل. لم يكن ممكنا أن أعود إلى المنزل الليلة وجين بين ذراعي. لم يكن مُحتملا. ولا كان ممكنا أيضا أن أتركها على عتبة باب لتنهشها الفئران. رأيتُ في صغري رضيعا ميتا بجوار كومة روث على جانب الطريق، وظللتُ أحلم به لشهور.

كانت الغرفة ساطعة جدا، وكنتُ أنا متعبة جدا، وفجأة أدركتُ أن هناك من يقودني إلى غرفة جانبية صغيرة، ويطلب مني الجلوس والانتظار. ثم لحق بي إيب وأغلق الباب خلفه، مُسكتا أصوات البكاء ورنين كؤوس الشيري. اشتهيتُ كوب حليب دافئ أو بعض الجعة؛ لم أكن أعرف كيف أبقى مستيقظة.

ظهرت خادمة أطفال من العدم ونزعت جين من بين ذراعي، لكني لم أكن مستعدة، حدث الأمر مبكرا جدا، ومفاجئا جدا. كانت تُخبرني أن مكانا أُخلي لها، لأن سيدة أحضرت رضيعا عمره ستة أشهر على الأقل، وهو ما تجاوز السن المحدد بكثير، وهل ظنَّت أنهم لن يستطيعوا التمييز بين طفل بعمر شهرين وآخر بعمر ستة أشهر؟ فكرتُ في المرأة وطفلها، وتساءلتُ بذهن شارد عما سيحدث لهما،

ثم صرفتُ الفكرة. اختفت القلنسوة المكشكشة للخادمة عبر الباب من جديد، وشعرتُ بالانفعال، والخفة بدون جين بين ذراعي، وكأن ريشة قد تسقطني أرضا.

"إنها لم تكمل يوما،" هتفتُ خلف الخادمة، لكنها كانت قد رحلت. سمعتُ إيب يتحرك خلفي، وصرَّت ألواح الأرضية من تحته.

ثم وجدتُ رجلا يجلس قبالتي، ويكتب فوق بطاقة بريشة ثخينة، وجاهدتُ لفتح عيني وأذني أيضا، لأنه كان يتكلم. "إن الطبيب يفحصها بحثا عن أي علامات للمرض..."

فتحتُ فمي لأقول: "لقد وُلدت في الرابعة والربع هذا الصباح."

"...إن ظهرت عليها علامات اعتلال في الصحة، فسوف يتم رفض دخولها. سوف تُفحص بحثا عن الأمراض التناسلية، وسل الغدد اللمفاوية، والجذام، والالتهاب."

جلستُ في صمت مشدوه.

"هل ترغبين في ترك علامة مع التقرير؟" نظر الموظف أخيرا نحوي، وكانت عيناه داكنتين وجادَّتين، خلاف حاجبيه، اللذين نبتا من رأسه بطريقة أقرب للهزلية.

علامة: أجل. أما هذه فأعددتها. كنتُ قد سمعت كيف أن الأطفال يُسجَّلون بمُعرِّف تتركه أمهاتهم. بحثتُ في جيبي وأخرجته، ووضعته على المكتب المصقول بيننا. أخبرني شقيقي نيد عن فاوندلينج – ملجأ للأطفال غير المرغوب فيهم، يقع بطرف المدينة. كان يعرف فتاة تركت طفلها هناك، واقتطعت مربعا من ثوبها لتتركه

معه. سألته: "وإذا لم أترك شيئا ثم عدت؟ أيمكن أن يعطوني طفلا غير طفلي؟" فابتسم وقال ربما، لكن الفكرة أصابتني بالقشعريرة. تخيلتُ غرفة مكدسة لأعلاها بالعلامات، يُلقى بعلامتي فوقها. أمسك الرجل بالعلامة بين سبابته وإبهامه وفحصه بحاجبين مقطبين.

"إنه قلب مصنوع من عظم الحوت. حسنا، إنه نصف قلب. النصف الآخر مع والدها." تضرج وجهي بشدة، وتحولت أذني إلى لون قرمزي، واعية لوقوف إيب صامتا خلفي. كان بجواري كرسي لكنه لم يجلس عليه. لم يكن يعرف شيئا عن العلامة حتى هذه اللحظة. كنتُ أملك النصف الأيمن، بحجم كراون، أملسا من جهة ومثلَّما من الأخرى. نُقش عليه حرف الباء، وتحته، ببدائية أكبر، حرف الجيم، اختصارا لبيس وجين.

سألته: "فيم ستستخدمونه؟"

"سوف ننشأ لها قيدا تحسبا لرغبتكِ في استعادتها. سنسجلها في الدفتر تحت رقم ٦٢٧، مع التاريخ ووصف للعلامة." وغمس الريشة في الحبر وبدأ يكتب.

"ستكتب أنه نصف قلب، أليس كذلك؟" قلتها، وأنا أشاهد الكلمات تنسكب من ريشته، دون أن أفهمها. "تحسبا لوجود قلب كامل، فيحدث خلط."

"سأكتب أنه نصف قلب،" قالها، ولكن دونما فظاظة.

لم أكن أعرف مكان طفلتي، ولا إن كنتُ سأراها مرة أخرى قبل أن أغادر. وخفتُ أن أسأل.

"سوف أستردها عندما تكبر،" أعلنتُ، لأن الجهر بها جعلها

حقيقة. وخلفي سحب إيب نفسا مسموعا، وصرَّت ألواح الأرضية من تحته. لم نكن قد تحدثنا عن هذا الأمر بعد، لكني كنتُ متأكدة. سوَّيتُ تنورتي. كانت التنورة الملطخة بالطين والمطر، تصبح بلون الفضة الحليبية لصدفة المحار في يوم الغسيل، وفي بقية الشهر بلون رمادي وسخ كلون بلاطات الطريق.

جاءت خادمة الأطفال إلى الباب وأومأت برأسها. وكانت ذراعاها فارغتين. "إنها لائقة."

"اسمها جين،" قلتُها، وأنا أشعر بالارتياح يغمرني.

قبل بضعة أشهر، ولم تكن بطني قد تكورت بعد، في شارع أرستقراطي من الشوارع المحيطة بكاتدرائية سانت بول حيث علت منازل المدينة في السماء وزاحمت محلات الطباعة وبيع الكتب، رأيتُ امرأة أنيقة ترتدي ثوبا أزرق داكنا، مضيئة كجوهرة. كان شعرها ذهبيا ولامعا، وأمسكت ذراعها الوردية الممتلئة بيد صغيرة لطفلة لها ذات الخصلات الشقراء. راقبتها وهي تشد أمها، وتوقفت المرأة وانحنت، دون اكتراث بملامسة تنورتها للأرض، وقرَّبت أذنها من شفتي البنت. تبدَّت على وجهها ابتسامة واسعة. وقالت: " جين، أنتِ مضحكة،" ثم تناولت يد ابنتها مرة أخرى. مرتا من جانبي، ومسَّدتُ على بطني التي تكبر، وقررتُ إن أنجبتُ بنتا فسوف أسميها جين، لأني هكذا سأصبح، ولو بصورة ضئيلة، مثل تلك المرأة.

لم يكترث الرجل. "سوف تُعمَّد وتُسمَّى باسم آخر في حينه."

إذن فهي جين بالنسبة لي فقط وليس لأحد آخر، ولا حتى هي. جلستُ متيبسة الظهر، أقبض وأبسط كفي.

"فإن تغيَّر اسمها، كيف ستعرفون من هي عندما أعود؟"

"تُلحق بكل طفل إثر وصوله شارة معدنية تحمل رقما يحيل إلى القيد الخاص به."

"٦٢٧. سأتذكره."

رمقني، والتقى حاجباه في تغضنات صارمة. "في حال تغيرت ظروفكِ وأردتِ حقا استرداد ابنتكِ، فسوف يلزمكِ رد رسوم رعايتها."

ازدردتُ لعابي. "ماذا يعني ذلك؟"

"النفقات التي تكبدتها المستشفى لرعايتها."

أومأت. لم أكن أعرف أي مبلغ قد يكونه ذلك، لكني لم أشعر بترحيبه بالسؤال. انتظرت. تحرك طرف الريشة مُحدثا خمشا، وفي مكان ما بالغرفة تكَّت ساعة بروية. كان لون الحبر يحاكي سماء الليل في النافذة التي خلفه؛ إذ لم تكن الستائر قد أُسدلت. رقصت الريشة مثل مخلوق غريب وعجائبي. وتذكرتُ المرأة الضخمة بالخارج والريشة الزرقاء في شعرها، وكيف كانت تحملق.

قلتُ: "الناس في الغرفة. من يكونون؟"

أجاب دون أن يرفع عينيه: "زوجات المحافظين ومعارفهم. ليلة القرعة تجلب التبرعات للملجأ."

"ولكن هل يجب أن يشاهدوا تسليم الأطفال؟" سألتُ. وعرفتُ أن صوتي قد احتدَّ عندما قلتُ ذلك؛ حتى أنه أطلق تنهيدة.

"تتأثر النساء بذلك كثيرا. وكلما تأثرن، زادت التبرعات." شاهدته يصل إلى نهاية الورقة ويوقعها بتنميق. ثم تراجع في مقعده ليتركها يجف.

"ماذا سيحدث لها، بعد ذهابي؟"

"يُنقل المقبولون الجدد للإقامة في الريف، وهناك ستعتني بهم مُرضعة. ثم يعودون إلى المدينة عندما يبلغون الخامسة تقريبا، ويعيشون في الملجأ حتى يصبحوا جاهزين للعمل."

"وماذا يعملون؟"

"نحضّر الفتيات للخدمة، ونعلمهم الحياكة، والغزل، وإصلاح الملابس - أنشطة منزلية ستجذب إليهم أصحاب العمل. أما الصبيان فيعملون في مصانع الحبال حيث يحيكون شباك الصيد والجدائل لإعدادهم لحياة الملاحة."

"أين سترعى جين؟ في أي جزء من الريف؟"

"يعتمد ذلك على الأماكن الشاغرة المتاحة. قد تكون قريبة قُرب هاكني أو بعيدة بُعد بيركشاير. إننا لا نملك حرية الكشف عن المكان الذي ستوضع فيه."

"هل بمقدوري توديعها؟"

طوى الموظف الورقة على القلب المصنوع من عظم الحوت، لكنه لم يُحكم غلقها. "يحسنُ تجنب العواطف. طاب مساءكِ، يا آنسة، ومساءك، يا سيدي."

تحرك إيب نحوي وساعدني في النهوض من مقعدي.

***

كان ملجأ فاوندلينج يقع في أقصى أطراف لندن، حيث انحسرت الميادين الجذابة والمنازل العالية عن طرق واسعة وحقول

تشعَّبت مظلمة على مد البصر. كان على بعد ميل أو ميلين فقط من زقاق بلاك آند وايت، حيث أقمنا جوار سجن فليت، لكنها بدت لي مائتي ميل، بالمزارع وأبقارها شمالا، والشوارع الواسعة والمنازل المتلاصقة جنوبا. كانت الأزقة والحواري التي اعتدت عليها تختنق بدخان الفحم، أما هنا فنجوم، وسماء تشبه ستارا مخمليا كبيرا، يغطي بالصمت كل شيء. ألقى القمر الشاحب بنوره على العربات القليلة المتبقية للضيوف الأثرياء الذين شاهدونا نتخلى عن أطفالنا. وها هم يعودون إلى منازلهم للنوم، وقد أروتهم حفلة المساء.

"ستحتاجين إلى تناول طعام، يا بيسي،" قالها إيب، ونحن نسير ببطء نحو البوابة. كان ذلك أول شيء يقوله منذ وصولنا. وعندما لم أرد، قال: "قد يكون عند بيل فارو فطائر لحم متبقية."

راقبته يمشي متثاقلا أمامي، ولاحظت الانحناءة المهزومة لكتفيه، وكيف تحرك بصعوبة. كان الشعر الذي انسلَّ من تحت قبعته قد تحول من لون الصدأ إلى لون الحديد. أصبح يضيِّق عينيه ليرى أرصفة الميناء، وكان على الأصغر سنا أن يميزوا له القوارب القادمة من ليه حاملة الروبيان من بين مئات القوارب المحتشدة في الماء. لثلاثين عاما باع أبي الروبيان من كوخ في سوق أسماك لندن. باعه بالسلة إلى الباعة المتنقلين والموزعين، وإلى الباعة الجائلين والسمَّاكين، جنبا إلى جنب مع مائتي بائع روبيان آخر، من الخامسة صباحا وحتى الثالثة عصرا، لستة أيام في الأسبوع. في كل صباح أحمل فوق رأسي سلة إلى الفلَّاية في نهاية شارع أويستر رو وأبيع ما فيها بالنداء في الشوارع. نحن لا نبيع سمك القد؛ ولا سمك الماكريل

أو الرنكة أو البياض أو البيلشار أو الإسبرط. لا نبيع سمك الروش أو موسى أو الهف أو المفلطح أو السلمون أو الشابل أو الأنقليس أو القوبيون أو السمك النهري. نحن نبيع الروبيان فقط، بالمئات والآلاف كل يوم بسرعة كبيرة. توجد أنواع من السمك ألطف في منظرها؛ وألطف في بيعها: سمك السلمون الفضي، السلطعون الوردي، الطربوت اللؤلؤي. لكنا كسبنا قوتنا، ودفعنا إيجارنا، عن طريق أبشعهم جميعا، بمظهره الذي يشبه أجنة غير مكتملة نُزعت من بطن حشرة عملاقة، بأعين سوداء لا تبصر وأرجل صغيرة مثنية. نبيعه ولكنَّا لا نأكله. كنتُ كثيرا ما أشم رائحته وقد تعفَّن، وأزيل من قصعتي الأرجل العنكبوتية الصغيرة، والأعين التي التصقت معا كالبيض. كم تمنيت لو أن أبي ينتمي لسوق ليدنهول بدلا من بيلينجزجيت، وأني بائعة فراولة، تفوح مني رائحة مروج صيفية، ويسيل على ذراعي عصير وليس ماء بحر.

اقتربنا من البوابات العالية، وماءت قطة بالجوار. كانت أحشائي خاوية وتؤلمني، وكل ما أمكنني التفكير فيه هو فطيرة، وفراشي. لم أستطع التفكير في طفلتي، وهل استيقظت أم لا فلم تجد من يهدهدها. لو فكرتُ في ذلك، سأنهار جاثية. عادت القطة للنواح، ولم تتوقف.

"إنه رضيع،" أدركتُ جهرا في دهشة. ولكن أين؟ كانت الأرض مظلمة، وجاء الصوت من مكان ما على يميننا. لم يكن بالجوار أحد آخر – التفتُّ فرأيتُ امرأتين تغادران المبنى خلفنا، وأمامنا كانت البوابات مغلقة، يقف عليها كوخ حراسة حجري بنافذة مضيئة.

كان إيب قد توقف، باحثا معي في الظلام. "إنه رضيع،"

كررتُ، مع عودة الصوت من جديد. قبل كل هذا، قبل أن أحمل في جين وألدها، لم أكن أنتبه للرضَّع الذين يبكون في الشارع أو ينتحبون في عمارتنا. أما الآن، فأجدني عاجزة عن تجاهل أي مواء بسيط وكأن أحدا يناديني. حدتُ عن الطريق في اتجاه السور المظلم الذي يطوّق أرض الملجأ.

"بيس، إلى أين تذهبين؟"

وبعد بضع خطوات رأيته: صرَّة صغيرة متروكة فوق العشب، ومضمومة إلى طوب السور الرطب، وكأنه سيحميها. كان مقموطا مثل جين، فلا يرى منه سوى وجه متغضن صغير، ببشرة داكنة وخصلات سوداء ناعمة على صدغيه. تذكرتُ المرأة خليطة العرّق. كان هذا طفلها بالتأكيد، ولا بد أن قرعتها جاءت في كرة سوداء. حملتُ الرضيع بين ذراعي وأسكتُّه برفق. لم يكن حليبي قد خرج بعد، لكن ثدياي كانا محتقنين، وتساءلتُ هل يا ترى الطفل جائع، وهل يجدر بي أن أرضعه. أستطيع تسليم الرضيع إلى الحارس في الكوخ، ولكن هل سيأخذه؟ نظر إيب فاغر الفاه إلى الصرَّة بين ذراعي.

"ماذا أفعل؟"

"إنها ليست مشكلتكِ، يا بيسي."

ثم تناهى ضجيج من وراء السور: أشخاص يركضون ويصرخون، وحصان يصهل. كان كل شيء خارج المدينة أكثر ظلمة وأعلى صوتا، وكأننا في أرض غريبة أقصى العالم. لم أكن قد أتيتُ إلى الريف من قبل، بل لم أغادر لندن قط. كان الطفل مستقرا بين ذراعي الآن، وملامحه الصغيرة تتجعد في تقطيبة نوم. ذهبتُ وإيب

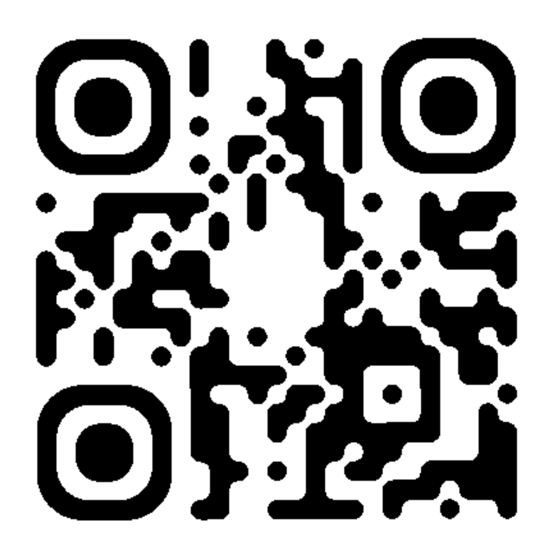
إلى البوابة. وفي الشارع من خلفها، كان الناس يتجمعون، والرجال يركضون بقناديل نحو عربة بأربعة جياد، ويحاولون تهدئة الجياد المتعرقة والهائجة التي تناقلت بينها حالة من الذعر. رأيتُ عدة وجوه بيضاء مصدومة تنظر إلى الأرض، وتسللتُ عبر البوابة لأقترب، وأنا مازلتُ أحمل الرضيع. برزت قدمان من تحت أعمدة جرّ العربة. رأيت تنورة ملطخة بالوحل، ويدان بنيتان رشيقتان. وتناهى أنين خافت أجش، كأنين حيوان مصاب. تحركت أصابعها، واستدرتُ غريزيا لأحمي الرضيع من المشهد.

كان الحوذي يقول: "لقد ظهرت من العدم. ما إن بدأنا انطلاقنا في بطء حتى قفزت أمامنا."

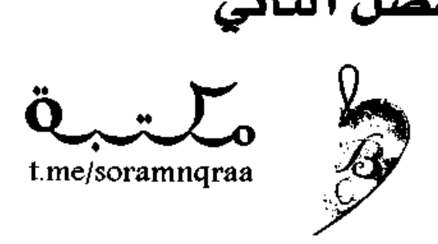
استدرتُ وسرتُ مسافة قصيرة إلى كوخ الحارس، الذي كان مفتوحا وخاليا؛ فرجّحتُ أنه في مكان الحادث. كان الجو داخل الكوخ دافئا، إذ اشتعل موقد المدفأة بنار خفيضة، وعلى طاولة صغيرة خفقت شمعة مع عشاء تُرك في منتصفه. وجدتُ معطفا من الجلد متروكا على مشجب، فدثّرتُ به الطفل وتركته على الكرسي، آملة أن يفهم البواب من أمّه، وتأخذه الشفقة عليه.

وعلى مسافة بعيدة، أنارت في ملجأ فاوندلينج عدة نوافذ، إلا أن أكثرها كان مظلما. في داخله مئات من الأطفال، في أسرتهم على الأرجح. هل يعرفون أن أهاليهم كانوا في الخارج، يفكرون فيهم؟ هل يتمنون مجيئهم، أم أنهم راضون بأزيائهم الموحدة، ووجباتهم الساخنة، ودروسهم وأدواتهم؟ هل يمكن للمرء أن يشتاق لشخص لا يعرفه؟ كانت ابنتي بالداخل، وأصابعها تضم الفراغ.

والقلب المصنوع من عظم الحوت مطويا داخل ورقة. لقد عرفتها ساعات، وعرفتها طوال حياتي. كانت القابلة قد ناولتني إياها هذا الصباح فقط، زلقة وملطخة بالدماء، لكن الأرض دارت دورتها، وتغير كل شيء للأبد.



الفصل الثاني



إن كنتُ لم أستيقظ بسبب صوت تبول أخي في الدلو، فذلك لأنه لم يعد إلى المنزل. كان سرير نيد فارغا صباح اليوم التالي، وانحنيتُ للتأكد من أنه ليس نائما على الأرض جواره، وهو ما كان يفعله أحيانا عندما يقع عن سريره وقد انعقدت حوله الشراشف. كان السرير مرتبا، والأرض خالية. عدتُ إلى مكاني في الفراش، مُنقبضة. شعرتُ وكأني مصابة برضوض من الداخل؛ إن شُرِّحتُ، فسوف يجدون ألوانا أرجوانية وزرقاء. ومن الغرفة المجاورة، تناهت لمسامعي خطى إيب وهي تحدث صريرا فوق الأرضية الخشبية العارية. كان الظلام حالكا من خلف النوافذ وهكذا كان سيظل لساعات.

نزَّ ثدياي حليبا في الليل، وابتل ثوب نومي، كما لو أنَّ جسدي يبكي. كانت القابلة قد نبهتني أن هذا سيحدث، وقالت إنه لن يلبث أن يتوقف. كان ثدياي دائما هما أول شيء يلاحظه الناس عني، والشيء الوحيد غالبا. كانت قد نصحتني بربطهما بخرق من القماش حتى لا يتسرب الحليب إلى ملابسي، لكن ما تسرب في النهاية كان سائلا صافيا يشبه الماء. بدت طُلبمة الماء في الزقاق بعيدة جدا

مع شعوري بكل هذا الوجع، لكن إحضار الماء كان واجبي. فتنهدتُ ومددتُ يدي إلى دلو التبول، ومن الغرفة الأخرى سمعتُ نيد يدخل من باب المسكن مُحدثا جلبة. كانت غرفنا في مبنى رقم ٢ بزقاق بلاك آند وايت، تحتل آخر طابق من المبنى المكون من ثلاثة طوابق، مُطلَّة على الأعماق المظلمة للزقاق المُعبَّد أسفله. هنا وُلدتُ، وهنا عشتُ كل أعوامي الثمانية عشر. وعلى الأرضية المائلة، تعلمتُ الحبو ثم المشي، مثنيَّة إذ كان سقفنا الأفاريز التي صرَّت وأنَّت مثل سفينة قديمة. ثم لا أحد بعدها، سوى الطيور التي تجثم على السطح وتتغوط فوق المداخن وأبراج الكنيسة الشاهقة. أحببتُ عيشنا في أعلى جزء بالمنزل: كان هادئا ومُنعزلا، بعيدا عن صراخ الأطفال الذين يلعبون في الشارع. كانت أمُّنا أيضا تعيش معنا في السنوات الثماني الأولى من حياتي قبل أن ترحل. عندما فتح إيب النافذة ليدع روحها تخرج بكيتُ؛ إذ أردت لروحها أن تبقى، وركضتُ لأشاهدها تحلق إلى السماء. لم أعد أومن بكل هذا الآن. أخذوا جثمانها وباع إيب أغراضها، مُحتفظا فقط بثوب نومها لألبسه، وهو ما فعلته إلى أن ذهبت منه رائحتها –رائحة شعرها الأسود الكثيف وبشرتها الحليبية. لم أفتقدها، إذ مضى زمن طويل. ظننتُ أني كلما كبرتُ، قلَّ احتياجي لها، لكن حالما بدأ المخاض، لم أرغب سوى في الإمساك بيدها. لقد غبطتُ الفتيات اللاتي جئن مع أمهاتهن ليلة البارحة، وعلى وجوههن أمارات حب واضحة.

دخل نيد مُترنحا إلى غرفة النوم التي تشاركناها، ففتح الباب مُرتطما به ومُتعثرا بدلو التبول الذي كنتُ قد تركته على الأرض، ساكبا بولي على الأرضية الخشبية كلها.

صرخت: "أيها الثور الأحمق! انتبه قليلا في المرة القادمة".

"تبًّا." انحنى ليرفع الدلو من المكان الذي تدحرج إليه. لم تحوِ الغرفتان اللتان كان ثلاثتنا يسمِّيهما البيت، خطا مستقيما في أي مكان منهما -فالسقف مائل وألواح الأرضية منحدرة. لم يتعثر وهو يعيد وضع الدلو على الأرض. لم يكن غارقا في الثمالة إذن، بل حسبه بضعة كؤوس. لن أعود من السوق بقدميَّ متقرحتين وعنقي يؤلمني لأجده شاحبا ويئن في الفراش، وتفوح منه رائحة القيء.

ارتمى على الفراش وبدأ يخلع سترته. كان شقيقي يكبرني بثلاثة أعوام، له بشرة بلون اللؤلؤ وشعر أحمر ونمش يكفينا نحن الاثنين. ينفق النقود القليلة التي يجنيها من كنس الشوارع في أوكار القمار والخمارات.

"هل ستذهب إلى العمل اليوم؟" سألتُ، وأنا أعرف الإجابة.

قال: "وهل ستذهبين أنتِ؟ لقد أنجبتِ طفلا البارحة. لن يرغمكِ العجوز على العمل، أم سيفعل؟"

"هل تمزح؟ هل توهَّمتَ أنني سأندسُّ في الفراش مع إبريق من الشاي؟"

ذهبتُ إلى الغرفة الأخرى فوجدتُ من حسن حظي إيب وقد جلب الماء أثناء نومي، ويسخنه في الغلاية. كانت الغرفة الرئيسية قليلة الأثاث إنما دافئة، مع سرير إيب الضيق مقابل أحد الجدران وكرسي أمي الهزاز أمام المدفأة. وفي الجهة المقابلة لهما كرسي آخر ومقعدان، وجميع قدورنا وأطباقنا مصطفة فوق بعضها على الرفوف جوار النافذة الصغيرة. كنتُ في صغري قد ألصقتُ صورا

على الجدران، نسخا من صور فلاحات جميلات ومبانٍ مشهورة: كاتدرائية سانت بول، وبرج لندن. لم نملك براويز، ومع الزمن تمعَّجت الصور وبهتت. بللتُ خرقة وفركتُ الأرضية الخشبية في غرفتي، نافرة من الرائحة إنما ليس حدَّ الغثيان. في بداية حملي في جين، كانت كل رائحة أشمها في السوق تجعلني أتقيأ.

وحالما انتهيتُ ووضعتُ الدلو قرب الباب لآخذه إلى الطابق الأرضي، ناولني إيب كوبا من الجعة الخفيفة وجلستُ قبالته وأنا ما زلتُ في ثوب نومي. مرَّت أحداث البارحة دون كلام. كنتُ أعلم أننا سنتحدث عنها يوما ما، لكنها ستظل وقتا طويلا كجدار جليدي بيننا.

"أخذوا الرضيعة إذن، يا بيس؟" جاء صوت نيد من غرفة النوم.

"كلا، وضعتها تحت السرير."

صمت، لكنه بعد وهلة قال: "ولن تخبرينا ابنة من هي؟"

اختلستُ النظر إلى إيب، الذي حدق في كوبه، ثم أفرغه دفعة واحدة في جوفه.

بدأتُ في عقد شعري بالدبابيس. وقلت: "إنها ابنتي."

ظهر نيد عند الباب في قميصه. "أعلم أنها ابنتكِ، أيتها الحمقاء."

"كفى،" قالها إيب لنيد. "لمَ تخلع ملابسك؟ ألستَ ذاهبا للعمل؟"

حدَّق به نيد، ثم قال: "سأبدأ في وقت متأخر".

"ألن تتغوط الخيول هذا الصباح؟"

"بلى، لكني أحتاج مكانا أقحم فيه مكنستي. أتعرف واحدا؟"

أعلنتُ: "سوف أرتدي ملابسي".

"أتجبرها على العمل بعد ما حدث البارحة؟" هكذا واصل نيد. "هل أنت والدها أم سيدها؟"

"إنها لا تخشى العمل، ليس كبعض ممن يعيشون تحت هذا السقف."

"تبا لك من مستبد. دع الفتاة ترتح أسبوعا."

قلت: "نيد، كف عن التحدث من مؤخرتك وامنح فمك فرصة".

غسلتُ كوبينا في الماء الذي يغلي على النار ووضعتهما على الرف، ثم اندفعتُ من جوار نيد لأبدل ملابسي، ومعي شمعة. أطلق نيد شتيمة وركل هيكل السرير، ثم جلس عليه وظهره لي. كنت أعلم أننا سنعود لاحقا لنجده وقد غادر.

"أخلد إلى النوم، هلا فعلت؟ كفَّ عن توبيخه،" قلتها، وأنا أقف عارية لبرهة، ساحبة ثوبي فوق جسدي ووجهي يتلوى.

"أنظري لنفسك – يُفترض بكِ الاستلقاء في الفراش."

"لا يمكنني. لم أعمل البارحة."

"لأنكِ كنتِ تلدين!"

"لم تكترث بذلك حينها، أليس كذلك؟ أين كنت؟"

"وكأني سأرغب في مشاهدة أمر كهذا."

"حسنا، فلتغلق فمك إذن. إن غدا موعد دفع الإيجار." عجزتُ عن كبح الازدراء في صوتي. "أتملك حصتك منه، أم أنني وإيب سندفعها هذه المرة أيضا؟ سيكون جيدا لو شاركتَ في الإيجار بين الحين والآخر. إن هذا ليس نزلا."

أطفأتُ الشمعة ووضعتها على منضدة الزينة. كان إيب قد زرر معطفه القديم وينتظرني عند الباب.

جاء صوت نيد من غرفة النوم قاسيا ومليئا بالحقد. "وأنتِ لستِ مريم العذراء. لا تملكين حق وعظي، أيتها العاهرة الصغيرة."

زمَّ إيب شفتيه في تجهم، والتقت عيناه الفاتحتين بعيني. ودون كلمة، ناولني قبعتي وأومأ برأسه إلى الطرقة الباردة والجرداء التي فاحت برائحة البول وخمر الليلة الماضية، وانغلق الباب خلفنا.

***

وها نحن في طريقنا إلى النهر. في كل صباح، وحين يشير عقرب الساعة المعلقة على واجهة جامعة سانت مارتن إلى الرابعة والنصف، أكون وإيب قد غادرنا زقاق بلاك آند وايت بالفعل، فنجعل الأسوار العالية لسجن فليت على يميننا ونمضي جنوبا عبر ساحة فندق بيل سافيج إلى طريق لودجيت هيل العام، قبل الانعطاف شرقا نحو القبة البيضاء الحليبية لكاتدرائية سان بول. كان الطريق واسعا وحيويا حتى في تلك الساعة، وكنا نمر بالكنَّاسين وعربات التوصيل والزوجات الناعسات مُصطفَّات خارج الأفران حاملات خبزهن لتسويته، والسعاة مُتنقلين بين النهر والمقاهي بأخبار ما وراء البحر. ازدادت كثافة المرور في اتجاه الجسر، وتمايلت الصواري وتطايرت في أرصفة الميناء إلى ما وراء الأكواخ المتراصة على حافة النهر. تثاءب الرجال المتجهون إلى المراسي والأرصفة، وهم مازالوا يحلمون بأسرَّتهم والزوجات الدافئات اللاتي تركوهن فيها. كانت

السماء سوداء كالقار -اشتعلت مصابيح زيت هنا وهناك فوق أبواب بعض المنازل، بيد أنها في ضباب تشرين الثاني لم تكن أكثر من شموس شاحبة صغيرة خلف سحابة ثقيلة -ورغم ذلك كنا إيب وأنا نعرف الطريق دون حاجة لفتح أعيننا.

تجاوزنا نقابة الجزارين ونزلنا في اتجاه النهر، والذي استقر أمامنا متلألئا على منسوب منخفض، وقد غصَّ فعلا بمئات المراكب التي تورِّد الأسماك والشاي والحرير والتوابل والسكر إلى مختلف الأرصفة. كان الطريق شديد الانحدار من هنا، وليس سهلا في الظلام. عندما أعلنت الساعة تمام الخامسة بعد وصولنا ببضع دقائق، كان هذا موعد الحمالين في الإرساء، فينقلون سلال السمك من القوارب في المرفأ إلى أكشاك البيع. وبداية من السادسة، ينزل البائعون الجوالة والسمَّاكون وأصحاب الخانات وأصحاب مقالي السمك والخدم بعربات جرٍّ وسلال ليساوموا على سعر ثلاث دستات من سمك الهفّ أو مكيال من المحار أو سمكة حفش سمينة، فيصعدون بالسعر فيما يهبط به البائعون، إلى أن يتلاقوا في المنتصف. ثم تشرق الشمس، هزيلة تغشيها سحب ممطرة، لذا لم تعد صيحات التجار -"قَدٌّ، يقفز، يقفز!" و"حا-حا-حا-حَدوق،" و"الحقوا الهفَّ والمفلطح والشابل والقوبيون وسمك النهر،" بتشديد خافت وعميق على الكلمة الأخيرة- لم تعد شيئا بذاته، بل جزءا لا يتجزأ من التجار حمر الخدود وزوجاتهم. كانت كل صيحة لا تقل تميزا عمن بعدها، وكنتُ أعرف من أطلقها دون النظر إليه. كان لبيلينجزجيت سحر ما، لشمس الصباح فوق السواري التي

تحدث صريرا في المرفأ، والحمالين بأعناقهم الفولاذية حاملين أربع وخمس وست سلال متراصة فوق رؤوسهم، ومُخترقين الحشود. وبحلول السابعة تتحول الأرض إلى كتلة ممخَّضة من الطين، تتناثر في كل أرجائها قشور سمك كعملات معدنية متلألئة. حتى الأكشاك كانت كومة مختلطة من تخشيبات أسقفها مائلة تقطر ماء ساقعا على عنق الواحد في الشتاء. استقرت السلال المصنوعة من الصفصاف ممتلئة عن آخرها بأكداس من سمك موسى الفضي والسلطعون المتحرك، وأنَّت العربات الكارُّو بأسراب السمك اللامعة. في الميناء شارع يُدعى شارع المحار، سمِّي تيمنا بصف القوارب التي ترسو متلاصقة، وتحمل أكواما عالية من أصداف رملية لونها رمادي. أو إن كان الأنقليس هو مرادك، فعليك الاستعانة بمراكبي يأخذك إلى أحد قوارب الصيد الهولندية في نهر التِّيمز، حيث رجال مظهرهم غريب بقبعاتهم الفرو وخواتمهم المرصعة بالجواهر يتمايلون أمام زبديات ضخمة تحوي مخلوقات أفعوانية الشكل، تتلوى وتثور في سائلها العكر. غمٌّ عينيَّ، وسأعرف سمك البلايس من البلشار، وماكريل نورفولك من ماكريل ساسكس. أحيانا ما يصطاد الرجال سمكة قرش أو خنزير بحر فيعلقونه ليراه الجميع؛ وفي مرة ألبسه حمَّال خفيف الظل فستانا وسمَّاه حورية بحر. ولدينا أيضا زوجات بيلينجزجيت، واللاتي بدورهن خنزيرات بحر في تنُّورات، بأيديهن البدينة الحمراء وصدورهن الشبيهة بمقدمات السفن وهن يتدافعن عبر الحشود، ويزعقن كالنوارس. يحملن قوارير البراندي للسقيا في الأشهر الباردة، ويرتدين أقراطا ذهبية في آذانهن. قررتُ منذ سن مبكرة

أنني لن أصبح واحدة منهن، ولن أتزوج أحد رجالات بيلينجزجيت ولا بكل روبيان ليه.

أحضر فنسنت الحمَّال أول ثلاث سلال مملوءة بالروبيان الرمادي، وقلبتها مع إيب في سلالنا. توجَّب علينا العمل بسرعة، إذ أنَّ نفس الشيء يفعله غيرنا من بائعي الروبيان. بعد انتهائنا من إفراغ الحمولة، أخذتُ سلة إلى الغلاية، حيث ستطبخها امرأة من كِنْت بذراعين قصيرتين ومكتنزتين تدعى مارثا ريثما أحضر قصعتي من الشادر. كانت مارثا صموتا ولكن دون جفاء؛ إذ اتفقنا منذ زمن طويل على أن الساعة أبكر من أن ندردش، وعندما يتحول لون الروبيان لنفس لون وجهها الأحمر، تصبه مارثا في قصعتي، مُتلاطما ومرسلا بخارا. كنتُ قد اعتدت على ثقله؛ أما ما آلمني فهو الماء الساخن، الذي سال على عنقي وأحرقني، لكن هذا لا يُقارن بيدي مارثا المسحوجتين واللتين عدمتا كل إحساس.

"أنتِ بخير، يا حلوة؟" توقف تومي، وهو حمَّال بآثار جدري على وجهه، أثناء توصيله سمك هفٌ من التّيمز. "هل نلتقي في حانة الوكر المظلم لاحقا؟"

"ليس الليلة، يا تومي." كان ذلك طقسا يوميا. أقول له نفس الشيء في كل مرة، ويرد بالمثل. وتساءلتُ أحيانا إلى متى أظل مُجبرة على المشاركة في هذا الأداء، وأشعر بالارتياح إذا لم أره أثناء توصيل طلبياته. كان يدعوني يا حلوة بسبب صدري الكبير. عصر ذات يوم منذ وقت طويل، صادفني تومي في طريق عودته من حانة الوكر المظلم، وهو أكثر الحانات فجاجة في الضفة الشمالية، ودفعني

إلى جدار أحد الأكواخ، قابضا على ثديي فيما يستمني بيد واحدة، ومحاولا حملي على لمسه قبل أن يقذف بامتنان فوق تنورتي.

"ما رأيكِ إذن لو نبحث عن وكر مظلم يخصنا، يا حلوة؟"

"ليس اليوم، يا تومي."

غمز لي، وواصل طريقه إلى كشك فرانسيس كوستا. بدأتُ طريق الصعود من النهر إلى المدينة. في تلك الساعة كانت لندن تستيقظ استيقاظا متكاملا، فيغمرها مد هادئ من الموظفين ورجال الأعمال في طريقهم إلى مكاتب المحاسبة والمقاهي. ويكونون غالبا قد تناولوا فطورا أعدته زوجاتهم أو خدمهم -ماكريل مدخن أو بيض أو ثريد في أطباق خزفية. أما البحارة والملاحون الذين قد يشترون مني رغم قرفهم الطبيعي من طعام البحر، فلن يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة. كلا، بل كنتُ أنشد صانعي مصائد الفئران، وماسحي الأحذية والجصّاصين أثناء استراحة شرب السجائر، وبائعي اللافندر والكنّاسين أثناء توقفهم لتليين ظهورهم. ومُجلخي السكاكين، وبائعي البواريك، وبائعي الخضار في طريق عودتهم إلى الريف بعد أن باعوا بضاعتهم. والأمهات العصبيّات اللائي يتخلصن من صراخ أولادهن بشراء حفنة؛ والسكارى الذين لم يعودوا إلى منازلهم بعد. وما إن أفرغ قصعتي، الأمر الذي قد يستغرق ساعة أو ثلاث، حتى أعود إلى بيلينجزجيت وأعيد الكرّة. كان الصيف هو الأسوأ، إذ تفوح المدينة برائحة نتنة وأنا معها. في تلك الأشهر، وحالما ينتصف النهار، يصبح أكثر بضاعتنا غير صالح لغير القطط. الشتاء رهيب، لكن البضاعة تظل على الأقل طازجة حتى غروب الشمس، موعد إغلاق السوق.

يسـار، يميـن، يسـار، يميـن؛ سـرتُ علـى نسـقي الخاص كل يـوم بيومـه، وأنـا أنـادي: "روبيـان طـازج، من المركب مباشـرة، بنسـان للثلث، لك يا سيدي، لكِ يا سيدتي." كانت المنافسة صعبة مع أجراس الكنيسة وعجل العربات والصخب العام لأي صباح شتوي. مضيتُ في شـارع السـمك، مـارَّة بالعمـود الباهـت للنصـب التذكـاري، وإلـى داخل المدينـة، لأتوقـف وأفـرك يـدي معـا علـى ناصيـة شـارع ثروجمورتـون وأركل كلبـا يحـاول تشـمم تنورتـي، لكـن ذلـك يـدوم لحظـات فقـط، لأن التوقف معناه أن أتجمد وأشعر بثقل قصعتي. وحينها رأيتُ محال بيع العظام.

كانـوا أربعـة أو خمسـة محـال، توفـر العظـام لجميـع منـاطـق وسط لندن. وعلى مداخلها وُضعت رموز: حوت خشبي، هلب وشمس، ثمرة أناناس. وخارجها انتصبت سلال خوص مكدسة بهياكل عظمية. تصل العظام عبر النهر من شـوادر روثرهيث، بعد أن انتقاها التجار، مُقطَّعـة إلـى شـرائح رفيعـة كنصـل العشب ومغلفة بالكتان أو الحرير أو الجلد، أو منحوتة علـى يد نحـات عظـام إلـى قرون ومقابض. إلـى قلوب. تحرَّكت يدي غريزيا إلـى بطنـي؛ لـم أكن قد أخرجتُ مشـداتي مـن درجهـا منـذ شـهور، وسـوف يسـتغرق ارتدائهـا مـرة أخـرى بعض الوقت. لـو أنَّ أحدا رأى بطنـي المكورة في بيلينجزجيت، فهو لم يتكلم عنهـا، كمـا لـن يفعـل أحد الآن وهي تضمـر ببطء. حتى فينسـنت وتومي لـم يقـولا شـيئا. لـن تلبث أن تعـود مسطحـة مـرة أخـرى، وسأنسـى كـم كانـت كبيـرة. لكنـي لـن أنسـى أبـدا كيف شـعرتُ بها بيتـا لأحد ما.

"أبيَّاعة تتجولين أم بلهاء تحملقين؟"

وقبالتي توقفت امرأة لم يكن في فمها أكثر من ثلاثة أسنان. بحثتُ حولي عن الكوز القصدير، وملأته وطرحتُ ما فيه داخل يديها القذرتين. فقذفته بجملته في فمها النَّخر، وبحثتْ في جيبها عن قطعة نقدية أخرى.

"سوف آخذ حفنة لابني أيضا. إنه عامل عند صانع قبعات. ولا بد أنه جائع الآن، هو كذلك، لذا سآخذ إليه هذا في محل عمله ".

أفرغتُ كوزا آخر في كفها. وقلت: "سوف أتطلع إذن لشراء قبعة منه يوما ما".

"تملكين واحدا في المنزل، ها؟" في إشارة إلى بطني المنتفخ الذي يبرز من خلف عباءتي.

"أجل،" كذبت.

"ولد شقي، أليس كذلك؟ أم ولد حبُّوب؟"

"بنت. جين. والدها يعتني بها، قبل أن يذهب للعمل."

"جميل. فلتعتني بنفسك،" قالتها المرأة، وابتعدت بعرجة وسط الحشود، قابضة على روبيانها.

استدرتُ لمواجهة الصباح مرة أخرى. "روبيان طازج،" ناديتُ، والشمس تصعد، أخيرا، وببطء في السماء. "من المركب مباشرة."

الفصل الثالث



بعد ستة أعوام

كانون الثاني، ١٧٥٤م

أوفت إذن كيزيا بوعدها. دخلت من الباب بجِوال في يدٍ وزجاجة جعة في الأخرى، وابتسامة تصل ما بين أذنيها. أزلتُ كومة غسيل من على كرسي إيب، ونفضتُ فتاتا كان على المقعد القصير الذي جعلناه طاولة، وسكبتُ الجعة في كوبين متكسرين، فناولتُ واحدا لصديقتي وجلستُ في المقعد المقابل لها.

"لنرى ما عندك."

ثم صرختُ سرورا عندما شرعت تخرج رزما من الثياب - أكواما من قمصان مخططة بألوان حمراء وزرقاء وبيضاء، وتنورات داخلية خفيفة، وأحرمة كتانية سميكة، وسترات قطنية، وسراويل داخلية، وجوارب...

"أوه، كيزيا!" كان كل استطعتُ قوله.

وكانت صديقتي، التي تبيع الثياب المستعملة وملابس التنكر

في سوق راج فير شرق المدينة، تحتفظ بأشياء لجين منذ شهور، فتعود بها إلى المنزل وتصلحها، وتحفظها في صندوق انتظارا لليوم الذي أستطيع فيه استرداد ابنتي. ظللتُ أدَّخر وأدَّخر لستة أعوام، وأخيرا أضفتُ الشيلنغ الأخير إلى صندوق الدومينو الخشبي الذي احتفظت به تحت فراشي. بالجنيهين اللذين ادخرتهما، أكون قد حصَّلتُ أخيرا أجر نصف عام لأدفع تكاليف رعاية جين في الملجأ، والتي بدونها قد لا يفرجون عنها. عندما يجافيني النوم أحيانا، أخرج الصندوق وأرجُّه لأهدئ أفكاري. وقد سحبتُ الصندوق الآن من مخبأه وهززته، فابتسمت كيزيا ابتسامة أظهرت أسنانها وقرعت قدحها بقدحي ونحن نقهقه كالمومسات.

جلستُ على الأرض لأقلِّب في غنائمها، مبتهجة بها. وكانت أشعة الشمس قد مالت إلى الداخل عبر النوافذ العالية التي فتحناها لتجديد الهواء، فتسللت أصوات الزقاق إلى الغرفة. كنا في عصر يوم سبت، من تلك الأيام الشتوية التي تسطع فيها الشمس بشدة، وكنت قد انتهيتُ من عملي قبل ساعة من المعتاد وعدتُ إلى المنزل مباشرة بثلاث كعكات زبيب –واحدة لأتقاسمها مع إيب، وواحدة لكيزيا، وواحدة لجين.

قلت: "أحبهم، كلهم".

"غسلتهم لكِ،" قالتها كيزيا، وهي تشرع في طيهم. "أين أضعهم؟"

رفعتُ من بينهم سترة حمراء أنيقة، باهتة قليلا جراء الاستعمال لكنها عدا ذلك بحالة جيدة. تساءلتُ هل يا تُرى شعر ابنتي

يشبه شعري -بني غامق بلمعة حمراء. إن نعم، فسيبدو رائعا مع السترة القرمزية، وابتسمتُ، وأنا أتخيل صبية داكنة الشعر ورصينة في معطفها الأحمر.

قالت كيزيا: "لديَّ طاقيات أيضا -للمنزل وللخروج... كدتُ أرغب مع كل هذه الأغراض التي جمعتها، في إنجاب بنت، حقا." كانت قد تركت ولديها، موزيس وجوناس، في المنزل كعادتها، إذ لا تحب خروجهما إلى الشارع. وليس ذلك لخوفها من أن تسلبهما حياة الجريمة والفواحش. بل كانت كيزيا زنجية، وكذلك زوجها ويليام. ومع أن آل جيبونز وُلِدوا أحرارا لا مُستعبدين، ويملكون فسحة العمل في الحرف المعدودة المتاحة لهم، إلا أن أولاد الزنوج يتعرضون للخطف يوميا في لندن. وبعمري الثامنة والسادسة، قد يُقطف موزيس وجوناس مثل برقوقتين يانعتين من الشارع في أية لحظة، ويُنقلان إلى قصور سوهو وحقول ليستر، وقد أُلبسوا العمائم وحوِّلوا إلى حيوانات أليفة. هذا ما تقوله كيزيا على أية حال. لم أعلم قط أن مثل هذا يحدث، لكنها بالغت في الحذر، لأن طفلين بجمالهما وذكائهما، هما مطمع للكثيرين. وبالتالي كان عليهما إلى أن يكبرا قليلا ويكون بوسع كيزيا أن تثق في حضور بديهتهما، أن يظلا أغلب الوقت حبيسي غرف آل جيبونز بالطابق الأرضي في بنسيون بشارع هاوندستيتش، أقصى شرق لندن، حيث اعتنت بهما أكثر الأيام أرملة يهودية تعيش في الطابق الأول. أما زوجها ويليام فكان كمانجيًّا تعلم العزف في منزل سيد والدته. وكسب رزقه من العزف مع فرقة موسيقيين متواضعة في نفس منازل العائلات التي قد تحبس ولديه في أقفاص كطيور مُغرِّدة.

التقيتُ بكيزيا ذات صباح بارد منذ خمس سنوات أثناء بحثي عن حذاء جديد، إذ يجبرني عملي على شراء زوج كل ستة أشهر، وأصبحنا صديقتين في الحال. كانت بأعوامها الستة والعشرين تكبرني بعامين، وكانت تملك أكثر ما أردته في الحياة: زوج وطفلين عاشقين، نظرا إليها كما لو كانت إلها وملاكا في نفس الوقت.

أخذتُ تلَّ الملابس إلى غرفة النوم وجثوتُ على الأرض عند الصندوق الذي يحوي ملابسي، وبدأتُ أطويها بعناية في داخله. جلست كيزيا على طرف سريري مع قدحها، فنزعت حذائها وثنت ساقيها إلى جوارها.

"ستنام معكِ هنا الآن وقد ترك نيد المنزل؟"

"أجل." سوَّيتُ تنورة بلون الذرة، منقوشة بورود زرقاء، وربتُّ عليها فوق الباقي.

"هل أنتِ متحمسة؟" سمعتُ الحماسة في نبرتها، وكيف اضطرمت في داخلها.

"نعم."

"لا تبدين واثقة".

"بل أنا كذلك!"

أحدث السرير صريرا وقد تحرَّكت فوقه. "أتساءل هل ستعرفينها بمجرد النظر إليها. كونكِ أمها... أتساءل هل ستميزينها داخل غرفة مليئة بالبنات."

"هممم".

سادت لحظة صمت. ثم قالت: "بيس؟ هل تراودكِ شكوك؟"

أغلقتُ غطاء الصندوق برفق -صندوق أمي المنقوش

بالورود. كان ثقيلا وقديم الطراز، لكني لم أكن لأبيعه قط. استقر ثوب نومها في قاعه، قد أبلاه الزمن. تذكرتها ترتديه وهي تسخن الحليب على النار، وتمشي حافية بخفة في حنايا غرفنا، مُزيلة أكواما من الغسيل. لقد ماتت فيه، لكنها عاشت أيضا فيه، وعندما كنتُ أصغر اعتدتُ إسداله على ظهري مثل عباءة ولف كمَّيْه حولي.

"بيس"؟

قلتُ بصوت خافت: "ماذا لو أنها ميتة، يا كيز؟"

"أوه، أنا واثقة أنها ليست كذلك. إنهم يتلقون رعاية جيدة هناك، بوجود أطباء وأدوية وكل ذلك. فرصتها في الحياة هناك أفضل من هنا ".

أخذتُ نفسا. "أحسبني سأعرف غدا. كم أدين لكِ مقابل الملابس؟"

"لا شيء."

ابتسمتُ لها. "شكرا لكِ."

غمزت لي. "على الرحب والسعة. لماذا لا تذهبين الآن إلى الملجأ؟ إنكِ جاهزة، ألستِ كذلك؟ أنتِ جاهزة منذ ستة أعوام."

"الآن؟"

"ماذا تنتظرين؟ عربة؟ يوما تشرق فيه الشمس من المغرب؟ إنكِ تملكين المال."

شعرتُ بمعدتي وكأنها إحدى حاويات الأنقليس الهولندي، تزحف وتتزحلق. "لا أعرف."

"وما رأي إيب؟"

أخذتُ رشفة من الجعة. "حسنا، إن الأمر لا يثير غيظه، لكنه أقسم أن يلتزم بالقصة: أنها مساعِدتنا. جاءت للعيش معنا ومساعدتي في البيع. إنها كبيرة بما يكفي، تقريبا."

لم تقل كيزيا شيئا. كنت أعلم أنها ترى ستة أعوام سنًّا صغيرة للعمل، وأعلم أنها ستُبقي ابنيها في المنزل قدر ما تستطيع. لكنها تملك عائلة طبيعية، أما أنا فلا. ومع ذلك، سأحاول بذل أفضل ما بوسعي. وغدا، بعد أن أكون قد استرجعتها، سآخذها لمشاهدة الأسود في برج لندن، كما فعل إيب معنا ونحن صغار عندما مرضت أمي أو تعبت. لكنني لن أبحث في الشوارع عن كلب ميت لتقديمه إلى الأسود لقاء مشاهدتهم، كما فعلنا - بل سأناولهم قطعة نقدية، وفي ضوء الشمس الشتوي الساطع، ستتناول جين يدي وترتجف بالخوف والبهجة من رؤيا الوحوش الذهبية. وربما ستحلم بهم ليلا، وسأمسِّد على شعرها وأخبرها ألا تخاف. كلا، إن كلبا ميتا لن يصلح - ليس هذا هو نوع الأمهات الذي أريد أن أكونه. "ستأتين بها إلى سوق الخردوات، أليس كذلك؟" سألتْ كيزيا، وهي تتجرع آخر ما في قدحها.

أومأتُ، ومسَّدتُ على تنورتي. تمنيتُ أن يكون الشعور الغريب في معدتي أملا لا خوفا. ولكن لو أنه أمل، فلماذا رغبتُ في البكاء؟ تخيلتُ العودة إلى صندوق يمتلئ بثياب لن تُلبس وكعكة زبيب على الرف لن تؤكل، وشعرتُ بغثيان أجراه التوتر.

"بيس." نزلت كيزيا جواري على الأرض، راكعة فوق البساط اليدوي. "سوف تجدينها هناك، وستعودين أمًّا من جديد. إنكِ تنتظرين هذا منذ زمن طويل جدا، وقد أصبحت هي بعيدة عن

الخطر الآن. لم تعد طفلة. إنها جاهزة للعودة إلى المنزل والعمل معكِ، والتمتع بحبك. هنا ستجد كل ما تحتاجه."

شعرتُ بالأسى يغمر وجهي. "هذا ما ظننته، يا كيز. ولكن ماذا لو أنه ليس كافيا؟" حاولتُ النظر لغرفتنا كما قد تراها طفلة للمرة الأولى: الأرفف المائلة المكدسة بأوانٍ صفيح منبعجة، وأغطية السرير المُرتَّقة، والسقف المنحدر والأبسطة المرقَّعة. كان يجدر بي أن أشتري لها لعبة، أو دمية -أوه، لماذا لم أشتري لها دمية؟- وأضعها على مخدَّتها، لاستقبالها عندما تعود.

أمسكت كيزيا بيدي، وثبتت عينيها البنيتين الواسعتين في عيني. وقالت: "بيس. إنه أكثر من كافٍ."

***

ثم جاء اليوم الموعود، وكانت الساعة تدق مُعلنة الثامنة بالخارج، ومُعلنة أيضا ضياع ساعة أخرى في الفرك والترتيب. على إثرها دُفع إيب لمغادرة المنزل، وقال إنه ذاهب إلى الميناء لسماع أخبار الجرائد تُقرأ. نقلتُ كعك الزبيب، الملفوف داخل قطعة قماش، إلى رف أعلى حتى لا تصل إليه الفئران، وأجلتُ عيني في الغرفة لمرة أخيرة وأغلقتُ الباب خلفي، مُديرة المفتاح في ثقبه بيد مرتجفة.

"صباح جميل، يا بيس." كانت نانسي بينسون تقف على الدرج. احتلت عرضه بالكامل، فلم أستطع تجاوزها دون تبادل حديث. لم تكن غرف نانسي في نفس طابقنا، لكنها لم تجد غضاضة في صعود الدرج ونزوله مثل فأرة بدينة.

"هو كذلك، يا نانسي. طاب يومك."

"أتغادرين إلى الكنيسة، في أفضل أثوابك؟"

وقفتُ على السُّلَّمة الثالثة أو الرابعة أعلى منها، وانتظرتُ أن تتحرك. كانت تعرف أنني لا أذهب إلى الكنيسة. "بل سأذهب لإحضار المساعدة الجديدة."

ارتفع حاجبا نانسي. "لكشك إبراهام، أليس كذلك؟"

"كلا، بل هي لي. سوف تساعدني في البيع."

"أحقا؟ بنت، ها؟ عجبا. إن المرء لا يرى كثيرا بنات يُساعدن في البيع."

"ولا يرى كثيرا صبيانا يبيعون الطعام من فوق رؤوسهم." ثم تحركتُ لأتجاوزها على الدرج فأدارت ظهرها العريض إلى الحائط. وفيما نزلتُ أحدث خشب الدرجات صريرا. عاشت نانسي في زقاق بلاك أند وايت منذ عشرة أعوام، قضت معظمها وهي أرملة. تجني قوتها من صنع رؤوس المكانس، والذي ترك يديها حمراء مسحوجة.

"ستقيم معكم إذن؟ الفتاة؟"

"أجل." يستطيع المرء أن يعتمد على نانسي في كنس الأخبار من الزقاق كما يُكنس التراب، وتجميعها في زوايا صغيرة وتركها في مكامنها. هي تعلم أنني أنجبتُ طفلا -كان إخفاء الأمر مستحيلا وبطني تكبر. وكانت لترتجف شماتة من العار المرتبط بذلك، وحاولتْ عدة مرات استدراجي لإخبارها من يكون الأب، لكني أطبقت فمي، وتسلَّيتُ تماما برؤية الإحباط الذي سببه ذلك لها.

"كيف حال شقيقكِ نيد؟"

توقفتُ عند نهاية الدرج وأمسكت مقبض الدرابزين الذي

طالما اصطدم به نيد وأوقعه وأرسل صوت قعقعة في بهو المدخل. كان لا يزال مُلخلخا، فأدرته مرة تلو مرة حول محوره. "إنه بخير."

"وكاثرين والصغار؟"

"جميعهم بخير، شكرا لكِ، يا نانسي".

"بديع." كانت نانسي مُحبطة. فلطالما أضمرت حبا لأخي، حتى مع معاملته لها وكأنها كلب هجين أربد. كانت مفيدة له قبل سَنِّ قوانين الخمر؛ فحين أدركت نقطة ضعفه، فتحت حانوتا في غرفتها الوحيدة، وقطَّرت حبوب القمح وباعته، وكان نيد أكثر روادها ولاءً وأكثرهم حصولا على تسهيلات في الدفع. حتى أنه كان في وقت ما، يقضي في مسكنها أكثر مما يقضيه في مسكننا. كنتُ أشعر به يغرق في فراشه المجاور لي ويبدأ في الشخير ورائحة التربنتين تفوح منه، فأعلم أن نانسي هي الأخرى ترتمي في فراشها وتتنهد في الطابق أسفلنا. وبسبب نظراتها لي، لم يداخلني شك في أنها سألت نيد عن جين، وكنتُ أعلم أنها ستحاول سحب حكاية عاري من فمه كما تُسحب محرمة حريرية من جيب سترة. كانت الرائحة الكبريتية التي تنبعث من جرارها كافية لتدمع العينان، لكن نيد لم يكن ليشتكي. كان يسميها مدام جينيفا وكأنها شيء جذاب وعطِر، وقد كرهتُ ذلك. عندما التقى بكاثرين، ظننتُ أن حياته لربما تأخذ منعطفا في الاتجاه الصحيح. كانت ابنة جزار من سميثفيلد، نحيفة كشظية وفي لسانها حدة تكفي لضبط سلوكه. لكن تكوين أسرة لم يجعله شخصا أفضل. فحالما تزوجا جاءت ابنتهما ماري، ثم طفلان أوسطان ماتا، أتبعهما منذ بضعة أشهر ابنهما إدموند. بيد أن الأبوة وكأنها سلبت

شيئًا حيويا من نيد، وكأنه بخلق طفليه قد فقد جزءا من نفسه، وبدأ يبهت بالتدريج. كان كثيرا ما يختفي لأيام؛ أطولها أسبوعان. كنتُ قد تفاءلتُ بشأنه، لمرة واحدة في حياتي.

"أرأيته منذ قريب؟"

"ليس منذ قريب."

أعدتُ المقبض إلى مكانه وطرقته براحة يدي. "يجب أن أذهب يا نانسي."

"سأتلو صلاة في سان برايد للطفل. إدموند." أطلَّ من فوقي وجهها العريض المفلطح.

"هذا لطف منك."

"ولوالده، أن يخلصه الرب من شياطينه".

الشياطين التي استحضرتها داخل جرارك. صمتنا للحظة.

"هذا لطف بالغ منكِ. طاب يومكِ، يا نانسي."

***

كنتُ قد اقتربتُ من ملجأ فاوندلينج عدة مرات من قبل، لكني لم أتجاوز البوابة. وجدتُ كوخ الحارس ما يزال في مكانه، ونافذته الدائرية تشبه عينًا تطل على الشارع. طفت السماء الرمادية الباهتة على الحجر الأصفر، وأخبرني وجه الساعة في المصلَّى أنها التاسعة والربع. وقفتُ لبرهة على الطريق الترابي، أسترجع تلك الليلة: الظلام والوجع بين ساقي. التنورة الملطخة بالوحل أسفل عجلات العربة، والأصابع المنتفضة للمرأة المسكينة.

ظهر وجه الحارس عند الباب. فاعتدلتُ أكثر في وقفتي، وسوَّيتُ ثوبي، وأملتُ أن يكون مظهري محترما. قلت له: "جئتُ لاسترداد طفلتي".

نظر لي بحذر. "أتملكين رسوم الاسترداد؟"

تقلصت معدتي. "نعم،" قلتها بثقة أكبر من التي شعرت بها. كان أجر نصف عام كافيا بلا شك؛ لكني لم أجرؤ على سؤاله، خشية ألا يكون كذلك فلا يسمح لي بالدخول. إن لم يكن كافيا... لم يحتمل الأمر التفكير. وفجأة تخيلت كيف قد يبدو اللقاء بابنتي بعد كل هذا الوقت، إذ تظنُّ أني قادمة لاستردادها، فتُعاد من الباب، وهي تتوسل وتبكي، وتمدُّ يديها نحوي. ماذا لو أرادوا عشرين جنيها؟ لن يكفي عمر بحاله لادخار هذا المبلغ. شعرتُ بصوت رنين بعيد في أذني اليسرى، وبدأتُ أشعر بالدوار.

"من هذا الاتجاه، يا آنسة. حتى نهاية الطريق؛ ثم ادخلي يسارا."

شكرتُ الحارس، ثم عبرتُ البوابة بخطى مُتخشِّبة. كان الطريق واسعا وخاليا، ومن بعيد تناهى إلى سمعي صوت غناء. كانت ساقاي ترتجفان. إن ابنتي داخل حدود هذه الأرض. ما لم تكن ميتة، قالها ذلك الصوت الخافت المدفون كدودة داخل عقلي.

على المروج التي أمام الملجأ جلست مجموعات صغيرة من الصبيان في صفوف، يصنعون حبالا وشباك صيد. ويرتدون زيًا موحدا هو سترة بنية بسيطة وقميص أبيض ومنديلا أحمر حول العنق، وقد رمقوني بنظرة سريعة أثناء مروري بهم ثم عادوا

إلى أشغالهم. لم يبدُ وكأنهم اكترثوا للأمر، فتحدثوا بأريحية وهم يجلسون متصالبي السيقان وأياديهم تواصل العمل. وبين الوجوه البيضاء رأيتُ واحدا بنيًّا، وتوقفت وراقبته لوهلة، وأنا أتذكر الرضيع الذي حملته من فوق العشب ووضعته في منزل الحارس، ملفوفا في معطفه. بدا شبيها بعض الشيء بموزيس جيبونز، بشعره القصير ويديه النحيلتين. كان في عمر جين تقريبا. تساءلتُ هل يعرفها يا تُرى. شعر بنظراتي عليه فحدق بي بعينين مستديرتين وفضوليتين. ربما خطر لكل طفل أو طفلة أن المرأة التي تعبر هذا الطريق هي أمه أو أمها. ابتسمتُ للصبي، فأسرع بالعودة إلى عمله.

ترددتُ أمام الباب الأسود الكبير الذي يؤدي إلى الجناح الأيسر قبل أن أدفعه وأخطو إلى الداخل. وجدتُ رائحة مألوفة: لمُلمّع أثاث وطعام يُطبخ. قرقرت معدتي، وشعرتُ بساقي تتخاذلان مرة أخرى. اتكأتُ على الباب، وأذناي تطنَّان وسط الهدوء. لم أكد أصدق أنني هناك، جاهزة لاسترداد ابنتي بعد كل هذا الوقت. ولكن هل سترغب في المجيء معي؟ ألن يكون خيرا لها أن تبقى هنا، حيث لا بد لديها أصدقاء، ووجبات ساخنة، وتنام تحت سقف لا يتسرب منه الماء؟ كما أنها ستدخل عن قريب مجال العمل، وقد تقيم في منزل جميل، وتكون ربة عملها لطيفة. لكني ما لبثتُ أن تذكرتُ فتاة أو فتاتين كنتُ قد سمعت عنهما من الأزقة المجاورة، ذهبتا للعمل في منازل غرب المدينة ثم انقطعت أخبارهما وانقطع عنهما الحديث. لربَّما حبَّلهما ربًّا عمليهما وطُردتا دون توصية. لم أواجه أنا هذا المصير على الأقل، أم حقا اختلف الأمر؟

اقتربت مني امرأة قصيرة ترتدي مئزرا. "هل أساعدك؟"

"جئتُ لاسترداد طفلتي."

امتلأت عيناها الصغيرتان بدفء أكثر مما كان في عيني الحارس.

"رائع،" قالتها بصدق. "دعيني أصحبكِ إلى شخص يتولى الأمر."

لم أجد أطفالا في الجوار، بخلاف أصوات الفناء غير المُتجسدة؛ ولولا أنني رأيتُ الأولاد يصنعون شباك الصيد في الحديقة، لكنتُ شككتُ في وجود أي أطفال هنا من الأساس. إن الأطفال يملئون الحياة أصواتا، فيعطسون ويصرخون ويركضون – أو هكذا يفعلون في المدينة على الأقل. صباح اليوم فقط سمعتهم يصرخون، ويجرجرون عظمة بشعة المنظر في أرجاء الفناء بحثا عن كلب. ربما كان أطفال الملجأ مهذبين؛ ربما كانوا يمشون بأناقة ويجلسون بهدوء، كنبلاء صغار.

أُرشدتُ إلى غرفة صغيرة خارج الممر تفوح برائحة دخان سيجار. تسارعت نبضات قلبي، وكنتُ سعيدة بجلوسي أمام طاولة مكتب كبيرة ولامعة. أطلّت النافذة التي خلفها على الحقول الممتدة خارج لندن. لا بد أن جين قد اعتادت نفس المنظر، بأشجاره وسمائه. ماذا سيكون رأيها في غرفنا التي تطلُّ على المداخن وأسطح المنازل؟

سمعتُ الباب يُغلق خلفي ودار رجل ضئيل ونحيل يرتدي باروكة رسمية أنيقة حول طاولة المكتب ليجلس في المقعد المقابل.

"طاب صباحكِ، يا آنسة."

"وصباحك."

"أُدعى سيد سيمونز. وأنا أحد الموظفين هنا. جئتِ لإخراج طفلكِ من الملجأ؟"

"أجل،" قلتها وازدردتُ لعابي. "اسمي بيس برايت. وقد جئتُ من أجل ابنتي. أحضرتها في اليوم السابع والعشرين من تشرين الثاني، منذ ستة أعوام."

أومأ مرة، مُظهرا قمة باروكته. "ست سنوات، تقولين؟ هي إذن هنا في الملجأ، على خير ما يرام. والآن، هل تركتِ علامة؟"

على خير ما يرام. "نعم،" تلعثمت. "عظمة حوت على شكل قلب. نصف قلب. النصف الآخر... حسنا، إنه مع والدها. القطعة التي قدمتها نُقش عليها حرفان: ب و ج."

"وتملكين رسوم الرعاية والتمريض التي تلقتهما؟"

"كم مبلغها؟"

"حسنا، تقولين أنكِ أحضرتها في تشرين الثاني من..."

"عام ١٧٤٧ من ميلاد الرب".

"هذا يجعلها إذن ست سنوات و..."

"شهرين بالضبط".

أومأ بكياسة، ساحبًا ريشته ومُجريا بعض الحسابات. "سيجعل هذا مجموع المبلغ الكلي ستة جنيهات، ودعيني أرى..."

"ستة جنيهات؟" رفعت صوتي فأسكتُه. "إنني لا أملك ستة جنيهات".

رمشت عيناه ارتباكا وهو ينظر لي. وارتجفت ريشته. "لا بد أنهم أوضحوا لكِ عندما جعلتِ ابنتك في رعاية الملجأ، وجوب سداد جنيه واحد عن كل سنة من الإقامة".

"أنا... أنا لا... أنا لا أستطيع... كيف تستعيد النساء أطفالهن؟" فكرتُ في كيس النقود الرث بجيبي، والمؤلف من قطع

نقدية فئة بنس و٣ بنسات، والتي ازداد ثقلها ببطء. وشعرتُ وكأن الأرض تبتلعني شيئا فشيئا.

حك رأسه من تحت باروكته، ثم أعادها بحركة التوائية جعلتها أشبه بحيوان حقيقي.

"سوف أجلب أوراق ابنتك، ولنا أن نتحدث عن بنود الاتفاق حالما أراجع حالتها." بدا عليه شيء من الاضطراب؛ لم تكن عيناه قاسيتين، لكن فمه تجهم كمن لم يعتد تبليغ الأخبار السارة.

فهمتُ ما لم يقله صراحة: دعينا لا نتمادى، لأنها قد تكون ميتة. لا بد أن نساء كثيرات قد جئن إلى هنا، فقط ليجدن أن أطفالهن قد ماتوا. حاولت ردَّ الابتسامة لسيد سيمونز، وإن كانت أعصابي تهدد بالانهيار.

قال: "ولكن قبل أن أفعل، أتسمحين لي بسؤالكِ عن ظروفكِ هل تغيرت، يا آنسة برايت؟"

"ظروفي؟"

"أجل." وانتظر.

"أنا عزباء، إن كان هذا ما تسأل عنه. ولم أغير عملي منذ أحضرتها."

"لستِ عبئا على الدولة؟ ولديكِ منزل مستقر؟"

"بقدر ما أستطيع."

"ومع من تقطنين؟"

كانت مفرداته جديدة عليَّ بالكليَّة، وبذلتُ كل طاقتي في شحذ ذكائي وفهم ما يقول، وشعرتُ بدوار. ستة جنيهات!

"مع أبي. ماتت أمي عندما كنت طفلة، لذا أعرف شعور الاحتياج لأم."

رمقني الرجل العجوز بنظرة ذات مغزى. "ويمكنكِ أن تضمني أنها لن تصبح عبئا على الدولة حتى تبلغ سن الرشد؟"

"يمكنني أن أضمن ذلك، لكن لا بد لي من الاعتراف بأني لا أفهم. لقد أخبرتك أني لا أملك ستة جنيهات. ما أملكه جنيهان، وقد استغرق ادخارهما كل هذه السنوات."

ظل سيد سيمونز ينظر لي لوهلة، زامًّا شفتيه الرفيعتين. "آنسة برايت، إن عدد الأطفال الذين يُستردون من الملجأ ليس كبيرا. أربعة فقط سنويا، من واقع أربعمائة. ولهذا نبذل كل ما في وسعنا عندما تعود أمهاتهم بالفعل، في حدود المعقول، كما تفهمين. هل تخططين لإلحاق الطفلة بالعمل؟"

"سوف تعمل معي".

"بأي حرفة؟"

"أنا بائعة متجولة. أبيع الروبيان من كشك أبي في بيلينجزجيت. لن تفارقني".

لماذا لم أكذب؟ كل ما درسَته وتعلَّمته سيذهب هباءً – مهاراتها في الخياطة، لو أنها بدأت في تعلمها، ستكون عقيمة كإبريق زبدة. الأمر برمته ينحو منحى سيئا. لن يسمحوا لي باصطحابها، ليس الآن.

ولابد أن الحيرة قد طفت على وجهي، لأن سيد سيمونز مال عليَّ قليلا وقال: "مع أن هذا الأمر ليس رسميا، إلا أننا في الملجأ

نهدف إلى لمّ شمل أكبر عدد ممكن من الأطفال مع أهاليهم. لسنا في موقع يسمح لنا بانتقاد ظروف أحد. وعليه، طالما أنكِ مستعدة للتكفل باحتياجات ابنتك، فنحن مستعدون لتوقيع تنازل لكِ عن الوصاية عليها، لقاء أي مبلغ تقدمينه. ولاستلامها، ستوقعين إيصالا بمبلغ رعايتها، وتتركي اسما وعنوانا. إنه شيء أشبه بعقد، كما تفهمين. والآن، هلا ذكرتني باليوم الذي أحضرتها فيه؟"

"اليوم السابع والعشرون من تشرين الثاني ١٧٤٧م. والوسم كان نصف قلب مصنوع من عظم الحوت."

حيَّاني بانحناءة ثم غادر الغرفة. كان كلُّ شبر من جسدي متشنجا. أملتُ عنقي، المتيبس بسبب العمل، وحركتُ كتفي في دوائر، ثم نهضتُ واتجهتُ إلى النافذة لعل في خارجها ما يشتت أفكاري. إن سكان الريف لا يجدون بالتأكيد متعة في مشاهد كهذه: كانت أشبه بالنظر إلى لوحة مصوَّرة، لا شيء فيها يتحرك. فركتُ ذراعي من تحت عباءتي، شاعرة بالبرد. ثم انبعثت جلبة في الممر، وسمعتُ أصوات أطفال ووقع أحذية على الأرضية الحجرية. توجَّهتُ إلى الباب وفتحته قليلا. فوجدتُ موكبا من فتيات تمشين من أمام الباب اثنتين اثنتين -وكن ثماني أو عشرة بنات- في فساتين بنية وقبعات بيضاء. نظرتُ في وجوههن، بحثا عن وجهي. نظرت بعضهن لي، ثم أشحن بأعينهن، منغمسات في دردشاتهن. وفجأة اختفين، خلف باب أُغلق خلفهم في الممر الذي أصدى بغيابهم. عدتُ إلى مقعدي وجلستُ فيه ببطء. كنت قد أملت أن أعرفها على الفور عند رؤيتها، أن يكون بيننا خيط خفي، رقيق ومتين كخيط عنكبوت. فكرتُ في الحبال التي كان

الصبيان يصنعونها في الخارج، فيعقدون ويفتلون بأيديهم الصغيرة. عندما خرجت مني، كان حبل أبيض زلق يلتصق بجسدها، حبل صنعته أنا داخلي. كان بشع المنظر، زلقا كثعبان بحر وأبيضا كاللؤلؤ، وفي نهايته كتلة لحمية، تشبه فشَّة خروف. وألقتهما القابلة في النار.

مر على غياب سيد سيمونز وقت طويل. كان قد قال إنه سيحضر أوراقها، ولكن ماذا لو أنه عاد بجين؟ لا أظنه يفعل، ولم أكن مستعدة. عندما بدأ الباب يُفتح، تشبثتُ بمقبضي كرسيَّ، لأمنع نفسي من القفز عنه. لكن سيد سيمونز دخل بمفرده، حاملا بعض الأوراق في يده، ومنها يتدلى شريط أزرق قد حُل من ربطته. بقيتُ في مكاني، حيث لم يجلس، وامتلأ وجهه بالحيرة. تناول نظارة من على مكتبه، ووضع حزمة الأوراق ودقق النظر في أولى الصفحات لفترة طويلة.

"تقولين أنكِ أحضرتِ ابنتكِ في السابع والعشرين من تشرين الثاني، من عام ١٧٤٧."

أومأت إيجابا.

"وكانت العلامة التي تركتها عبارة عن منحوتة عظمية. هي نصف قلب كما تقولين، منقوش بحرفي ب و ج."

"أجل."

قطب حاجبيه، ونظر لي بإمعان. "أنتِ إليزابيث برايت؟"

حدقتُ فيه.

دفع حزمة الأوراق نحوي عبر طاولة المكتب. "يا آنسة، هل رأيتِ هذه الوثائق من قبل؟"

"لا أعرف القراءة." أمسكتُ بالشريط الأزرق. كان الخوف

يرتفع في داخلي، يملأني كأني دلو مطر. "هل هذه أوراقها؟ هل هي ميتة؟" تمايلت حروف النص الأنيق بلا معنى فوق الورق الكريمي الثقيل، لكني رأيتُ الأرقام ستة واثنين وسبعة، وكانت بالنسبة لي كقراءة اسمها.

نظر سيد سيمونز في وجهي لمدة شعرتُ وكأنها دقيقة كاملة. ثم طرف بعينيه وأخذ الأوراق ووضعها جانبا على طاولة مكتبه. استقر الشريط مفرودا بيننا، ووجدتني دون تفسير، لا أفكر سوى في الأسف على إهدار شيء بديع كهذا داخل درج مغلق.

قلت: "سيد سيمونز، لا أفهم. هل ماتت؟"

تململ الموظف في كرسيه بعدم ارتياح ووضع نظارته على الطاولة برفق. "إن الطفلة رقم ٦٢٧ قد استردتها والدتها منذ عدة أعوام."

خيم صمتٌ مطبق، لم يقطعه سوى دقٌّ في أذني. فتحتُ فمي ثم أغلقته وازدردتُ لعابي. "والدتها؟ المعذرة، يا سيدي، ولكني لا أفهم. هل نتحدث عن ابنتي جين؟"

حكَّ باروكته، وقد حارت كلماته. "إننا لا نسجل أسماء الأطفال؛ بل يُعمَّدون ويُمنحون أسماء جديدة. لأسباب تتعلق بالخصوصية، كما ترين."

أوجعني رأسي، وكأني أضع عليه قصعتي، مليئة بالأفكار والأحاجي. "لكن هذه هي المرة الأولى التي آتي لاستردادها. الطفلة رقم ٦٢٧، هل أنت متأكد؟"

التمعت عينا سيد سيمونز باهتمام وتنبُّه. "ألا يجوز أنكِ أخطأتِ في التاريخ الذي أحضرتها فيه؟"

"لا، بالطبع لا. إنه يوم ميلادها، سأتذكره لبقية حياتي. في كل عام أشعل شمعة لأجلها. ورقم ٦٢٧ - أخبروني أنه رقمها. أتذكره كما أتذكر اسمي." انبعثت تكات ساعة من مكان ما في الغرفة، وشعرتُ وكأني أتفرج على المشهد من أعلى. كانت أصابعي ما تزال تتشبث بجانبي الكرسي، فأفلتُّهما وغصتُ فيه. كانت مفاصل أصابعي بيضاء.

شرع يقول: "ألا يجوز أن والدها-"

"والدها مات".

خيم صمتٌ طويل.

ثم قلتُ ببطء: "ما تقوله لي إذن أن شخصا ما قد استرد جين؟ ابنتي؟"

كان الخوف قد ذهب، وحل محله إدراك بليد حطّ ثقيلا فوقي وجعلني غبية. لقد حدث شيء فظيع، يتجاوز أسوأ تصوراتي، ولكن...

قلتُ: "مهلا. ماذا كان اسمها؟ اسم والدتها؟"

أمسك سيد سيمونز بالنظارة أمام الورقة. "تقول الوثيقة: سُلِّمت الطفلة رقم ٦٢٧ في اليوم الثامن والعشرين من تشرين الثاني، ١٧٤٧م، إلى والدتها، إليزابيث برايت، القاطنة في منزل رقم ثلاثة، زقاق بلاك آند وايت، لودجيت هيل، لندن."

مدَّ الورقة نحوي وأراني توقيعا كلماته: حرف سين مهزوز وعجول. مالت الغرفة على أحد جانبيها، لكن الغريب أن ثقالة الورق الزجاجية والشمعة والأوراق التي فوق المكتب لم تتدحرج إلى الأرض. انتظرتُ أن تثبت، وهو ما حدث بعد نصف دقيقة أو نحوه. مددتُ يدي ولمستُ حرف السين، والذي وسم الصفحة الأنيقة كأثر حرق.

"إنـه توقيعـي،" همسـتُ. "هـذا مسـتحيل." ثـم دفعنـي شـيء ما لأرفـع أنظـاري فجـأة. "لكن الثامـن والعشـرين مـن تشـرين الثانـي. ذاك... ذاك كان..."

"اليـوم التالـي لإحضارهـا إلـى الملجـأ. آنسـة برايـت، أخشـى أن ابنتكِ لم تعد في رعايتنا منذ أكثر من ستة أعوام."

الفصل الرابع

مـرَّ وقت طويل منـذ آخـر مـرة فكـرت فـي والـد جيـن. ووقت أطول منذ أن رأيته. لم أعد أتذكر وجهه أكثر مما أتذكر وجه أمي. ومثلها أيضا، لم يتبقَّ منه سوى أثر: معطف جلد، طول قامته، عيناه الملونتين -هل كانتا زرقاوين أم خضراوين؟- وشكل ابتسامته خلف سحابة من تبغ الغليون. كان قد أعطاني غليونه المصنوع من الطين الأبيض -شيء صغير وأملس حُفر على جانبه الحرفان الأولان من اسمه. بيد أنها لم تكن إيماءة عاطفية -كل ما هنالك أنه ناوله لي لأمسك به قليلا، ونسيتُ إعادته. كان بدون شك يمتلك آخرين غيره في المنزل -هكذا فعل الأثرياء، وهكذا لم يلحظوا بسهولة اختفاء الأشياء. اعتدت أن أستلقي في الفراش وأمرر طرف إصبعي على حرف الدال إشارة لدانيال، والكاف إشارة لكالارد -لم أعرف القراءة، لكني عرفتُ ذاكي الحرفين- وعندما أعياني البحث عنه، رميت بالغليون في التِّيمز. ثم ندمتُ على ذلك عندما علمت أنه مات. وها أن الآن لا أملك شيئا منه: لا طفلته ولا غليونه. كان الناس يلقون بكل أنواع الأشياء في النهر، بما في ذلك أنفسهم. وكان ذلك أمرا

فكرتُ فيه أيضا، لوقت قصير، عندما اكتشفتُ أنه رحل وأني حُبلى منه. لكن النهر كان أكثر شوارع لندن ازدحاما، ولن يكون الغرق فيه سريعا أو ذا خصوصية، ومياهه تغص بمئات القوارب على مد البصر من ميدلسكس وحتى ساري. والأرجح أني سأُصدم بحاوية أو أُشطر نصفين بمقدمة سفينة. ولوقت أقصر، فكرتُ في البدائل –القفز من نافذة عالية، أو إغراق أحشائي في الخمر كما يفعل أولئك المنتفخون المكومون في الحواري والمداخل. ولم أشعر بميل خاص نحو أحدها. كما أنني بدأتُ أحسُّ بالحياة التي تنمو في داخلي، وعرفتُ أنني لا أستطيع إزهاق روحين في وقت واحد. ربما كان الموت سلاما لأمثال دانيال كالارد، حيث تخللت أشعة الشمس فناء الكنيسة الهادئ من بين الأغصان المورقة، ووُضعت الورود على شواهد القبور. لكني كنتُ أعرف كمَّ الازدحام في المدافن الجافة والسطحية المُخصصة لأمثالي. كنتُ سأشم رائحة حشودهم المتعفنة، ولم تكن بي رغبة في الانضمام إلى سباتهم التعيس بعد.

ذات مرة، عندما كنا صغيرين جدا، أخبرني نيد أنه عندما يحل الليل، ينهض الموتى من تحت أغطيتهم الترابية الرقيقة ويزحفون في الشوارع والأزقة، بحثا عن أطفال يعودون بهم إلى القبور. قال إنهم ينتظرون في الحواري ويلتصقون بالظلال. أصابني رعب شديد منعني من مغادرة المنزل، فالتصقتُ بتنورة أمي وصرختُ طلبا للبقاء في الداخل. عندما أخبرتها بالسبب، ضرب إيب نيد على رأسه، وبعد فترة، عندما ماتت أمي واستلقيتُ مع نيد على فراشنا الضيق، وسألته هل هي أيضا ستزحف في الشوارع عند الظلام، بحثا عنا. فجذبني

إليه وقال لا، وعندما ابتعدتُ عنه أخافتني وجهه في ضوء القمر - بدا راشدا جدا وحزينا. في ذلك الوقت، كانت وفاة أمّنا هي أسوأ شيء في العالم، وكنا نتشبث أحدنا بالآخر ليلة بعد ليلة فيما انعزل إيب داخل حزنه الصامت. كم كنّا غضّين.

***

أثناء عودتي من الملجأ، قادتني ساقيَّ إلى مقهى راسل، مكان عجزتُ دائما أن أقف خارجه لوقت طويل. يقع مقهى راسل فوق محل عطّار وعلى جانبه في الخارج أسد ذهبي كبير، بفكين تجمدا عند منتصف الزئير. لم يسبق لي قط أن دخلته لأنني امرأة، لكني كنتُ أحيانا في الأيام الخاملة، أتلكأ بين وقت الفطور والغداء في الشوارع القريبة من مركز التجارة بقصعتي الممتلئة عن آخرها، في انتظار تدفق الرجال من غرف الاجتماعات إلى الشارع، وأسنانهم ملونة بالقهوة، ورؤوسهم ممتلئة بالعمل وأخبار السفن وغيرها من الأنشطة، وبطونهم فارغة. كانوا أحيانا يبتاعون مني حفنة روبيان؛ وأحيانا يرغبون في حفنة من شيء آخر. رأيت ما فعلته القهوة في أعينهم -جعلت الحدقات أغمق وأكبر، وكأنهم ينظرون لا في وجهي بل في داخل عقولهم.

قابلتُ دانيال في عام ١٧٤٧، في صباح غائم بعد شهر أو نحوه من عيد الميلاد المجيد. كان الجو شديد البرودة، وبدا المدخل الذي خرج منه بغاية الدفء والبهجة والوديّة، وبقيت نظراتي معلقة عليه، وأفترض أنها سرحت فيه. أدركتُّ أنه كان يحدق بي، نظراته

ناعمة كالرماد في الضوء الرمادي الواهي. وخلف أذنه دُسَّت قطعة رفيعة من الرصاص.

"أعطني ببنس،" قالها، وأفقتُ من خيالاتي، فأغلقتُ فمي واعتدلتُ في وقفتي.

"عفوا، يا سيدي؟"

"أعطني ببنس،" قال مرة أخرى، مشيرا برأسه إلى قصعتي، ومددتُ يدي بتلقائية إلى الكوز الصغير، وبدأت أغرف.

"إنهما بنسان للثلث، في الواقع، يا سيدي،" قلت، فضحك وهز رأسه.

"كلا، قصدتُ أفكارك."

كانت المفاجأة على وجهي بالغة حتى أنه انفجر في الضحك، وصار الجو بيننا أكثر دفئا. انبعثت منه رائحة قهوة ونشارة وشيء آخر طيب -هل كان صوفا؟ أم شعر خيل؟

وبعد ذلك اللقاء الأول عدتُ إلى المقهى مرة بعد مرة، فحمتُ حول المدخل الذهبي كفراشة، طامعة في رؤيته. كان الغسق يأتي مبكرا، وفي منتصف ظهيرة رمادية، والثلوج تتوعد بالتساقط طوال اليوم والغيوم صفراء مُغثية، رأيته وسط مجموعة صغيرة من الرجال أمام محل العطارة. ربما وصلوا لتوهم أو هم في سبيلهم للانصراف، لكنهم كانوا بغاية البهاء في معاطفهم وقبعاتهم الصوفية الزرقاء، يقفون منتصبين بأقدام منفرجة وابتسامات طبيعية، لأنهم كانوا في دفء، وسيعودون إلى الدفء من جديد. سرتُ قدما في الشارع وشعرتُ بالانفعالات تغمرني، عاجزة عن التحدث أو النظر

إليه، فاختبأت في أحد المداخل، وبعد أن استجمعتُ قوتي، عدتُ أدباري من نفس الطريق، حريصة على مقابلة عينيه. والتقت عينانا كما يلتقي عود الثقاب بعلبة القداح، واشتعلتُ. لم يسبق لي قط أن شعرتُ بمثل هذه المشاعر - سكرانة بنظرة، ودائخة من إشارة.

وقال: "يا بائعة الروبيان. أين قصعتك؟"

لا أتذكر ما غمغمتُ به -شيء غبي، غير مميز، لأنه جعل رأسي وكأنه محشو بالقطن. وضع أحد ذراعيه حولي، فجعلني أشعر بأني ضئيلة ورهيفة. تمنيتُ حينها أن رائحة الروبيان لا تنبعث مني. ذهبنا إلى حانة -شعبية وتغصّ بالدخان عند سوق الجلود، وتذوقتُ الخمر لأول مرة. كانت حلوة ودبقة، كالفاكهة الذائبة في يوم صيفي، واكتوى بها حلقي. كان رفاقه قد جاؤوا معنا - ثلاثة أو أربعة بين موظفين وتجار مثله، والذين نادوه كال، وجلستُ صامتةً أثناء احتدامهم ولغطهم، فصاحوا في وجه أحدهم الآخر ولفوا سجائرهم. كان يُسمح للنساء بدخول الحانات، وتحركت عدة مومسات بحريَّة بحثا عن زبائن. جلست واحدة أو اثنتان معنا لبعض الوقت، فشاركتا الرجال وجعلتاني أشعر وكأنني فتاة صغيرة، وكأنني ابنة. عرفتُ عنه أشياء صغيرة: أنه تاجر عظام حوت، يُمضي جُلَّ وقته في روثرهيث، جهة النهر، وشارع ثروجمورتون، حيث تقع محلات العظام حد علمي، وتحدثوا عن رجل يُدعى سميث، وآخر يُدعى تاليس. في تلك الأثناء، شربتُ كأس خمر أخرى دفعة واحدة، وبعد فترة، عندما لم أعد أحتمل الضوضاء والدخان، وجدت عيناه عيني ومنحني ابتسامة خاصَّة، ثم سألني إن كنت أرغب في الذهاب إلى مكان أكثر هدوءا. فأومأتُ وقد

دارت رأسي من جديد، وخرجنا إلى الشارع. كان الظلام قد حلَّ، ولم أعرف بالضبط أين كنا، لأن الشوارع كانت ضيقة جدا، تمتلئ بالنواصي الحالكة والمباني المتلاحمة التي حجبت ضوء القمر. لا أتذكر فيم تكلمنا، عدا أنه سألني إن كنت أشعر بالبرد. وقلت نعم، فأعطاني معطفه -شيء فخم ودافئ وصل حتى ركبتي- ثم قبلني. كان طعمه خمرا وتبغ غليون. وجد ظهري جدارا، وضع يديه على جانبي رأسي، ضاغطا جسده على جسدي. ثم ما لبث أن حركهما جنوبا، فتحسس بدني ثم تنورتي، وضممته إليَّ ودفعته داخلي. كنتُ قد رأيت رجالا مع نساء في الشارع من قبل، عشاقا صغارا وكبارا ورجالا يفرغون شهواتهم في عاهرات. لم يخطر لي قط أني سأصبح واحدة منهن، لم يخطر لي قط أن رجلا -لا، بل تاجرا- سيرغب في الاختلاء بي. كان ذلك أكثر ما فعلتُ جموحًا في حياتي. لم أصاحب رجلا من قبل، وإن كنتُ أوشكتُ على ذلك مرة أو مرتين مع أجرأ فتيان بيلينجزجيت - ليس تومي من بينهم.

بعد أن انتهينا، وضعت يدي في جيبي معطفه، والذي كنت أرتديه بعد، وأخرجتُ ما كان بداخله: الغليون الفخاري القصير، والذي انبعثت منه رائحة التبغ بصورة أقوى؛ بضعة قطع نقدية أعدتها بسرعة؛ وشيء غريب المظهر. رفعته أمام ضوء القمر الهزيل ورأيت أنه نصفا قلب، تراكبا معا بصورة مثالية.

سألته، "أهذا من حبيبتك؟"

"ليست لي حبيبة،" قال، وهو يأخذ أحد النصفين ويترك لي الآخر. "شيء يذكركِ بي." ابتسم من زاوية فمه، ومد يده إلى مدية من داخل المعطف الذي مازلتُ أرتديه، لامسا صدري بيده. سألني

عن اسمي، وعندما أخبرته، نحت شيئا عليه وأعاده لي، مشيرا إلى معطفه، الذي خلعته، فشعرتُ ببرودة شباط تنقضُّ من جديد.

قلتُ بخجل: "ليس عدلا ألا تخبرني باسمك."

"كالارد."

"اسمك الأول."

"دانيال. إلى لقاء آخر، يا بيس برايت." وبهذا، اتجه نحو الأنوار والضوضاء المنبعثة من باب الحانة، فيما وقفتُ أرتجف، شاعرة بالخمر ينحسر ببطء وقابضة على هديته بإحكام. كنتُ مازلتُ أمسك بالغليون في يدي الأخرى. أوشكتُ على الذهاب لإعادته إليه، لكني لم أستطع مواجهة ذلك المكان الساطع والمزدحم، واستدرتُ عوضا عن ذلك نحو النهر، وإلى المنزل.

ذهبتُ للبحث عنه عدة مرات بعد ذلك. كان لقاؤنا الأول في يوم أربعاء، فذهبتُ كل أربعاء بعده، وكنتُ أهيم في شارع جريستشرش ذهابا وإيابا مثل شبح، وفي مرة انتظرتُ لساعتين في المدخل. لكن دانيال كالارد ابتلعته لندن. كان للمدينة طبع متقلب، كموج نهر التِّيمز، فساعة تعطي وساعة تأخذ. وعندما خرجنا من برد الشتاء إلى دفء الربيع وعرفتُ أني حُبلى في ابنه، كثَّفتُ بحثي ووجدتُ الرجل الذي سمعتهم بصورة متقطعة يتحدثون عنه، تاليس. وكان صاحب أحد متاجر العظام في شارع ثروجمورتون، وشبيها بعظمة هو نفسه، تلتصق بشرته الشاحبة بوجنتين غائرتين. أخبرني أن التاجر دانيال كالارد قد مات في الشهر السابق، بصورة فجائية جدا وغير متوقعة. كان تاجرا مُحترما، وحضر جنازته جمع غفير.

لاحظ حينها بطني، واكفهرَّ وجهه، وخرجتُ من المحل مترنحة إلى الشارع الهادئ، وتقيأتُ في زقاق.

وقفتُ الآن أنظر إلى الأسد، ثم ذهبتُ نحوه وأدخلتُ يدي في فمه الفاغر، تاركة يدي معلقة بين فكيه. أردتُ اصطحاب ابنتنا لمشاهدة الأسود عند برج لندن، لأريها كيف تتمخطر بخطى خفيفة. فكرتُ في كعكة الزبيب بالمنزل، مُنتظرة على الرف، وإيب جالسا على كرسيه، يتوقع ظهورنا. "أين هي؟" هكذا كان سيقول. أين هي؟ فكرت في دانيال، نائما في قبره. كنتُ قد أجَّرتُ صبيًا ليبحث لي عن إعلان الوفاة من شهر نيسان ويقرأه لي جهرا في الشارع. كان الإعلان قصيرا جدا –جملة أو جملتان– مع ذكر اسم الكنيسة التي ستقام فيها الجنازة: كنيسة لم أكن أعرفها، وتغيَّبتُ عنها أيضا. تمنيتُ لو أنني لم أرمِ غليونه في النهر؛ تمنيتُ لو أضمُّ عليه شفتي مرة أخرى.

***

أقصى شرق المدينة، خلف السور القديم، كان يقع سوق راج فير –ربع ميل من الأكشاك التي تبيع ملابس استعمال ثانٍ، وثالث، ورابع، حتى في أيام الأحد. كان الازدحام يبلغ ذروته في الصباح، حيث يأتي الناس لاستعراض البضائع بعد القداس، ولذا عندما وصلتُ منتصف الأصيل، كانت الحشود قد خفَّت، فيما دلَّت قرصة الشتاء التي هاجمت ياقات الناس وأصابعهم أن من تجوَّل دون هدف في المكان كان عددا قليلا من الأشخاص العاطلين – أولئك الذين

لا عائلات لهم، فأمسكوا بين أيديهم بملابس مبهرجة بدلا من طير مشوي يلمع. في الأشهر الأكثر دفئا، تحولت الطاولات إلى فيض من الألوان -أحمر قان وأزرق سماوي وكشكشات هفهافة على مد البصر- أما في هذا الوقت من العام، فقد أراد الناس معاطف دافئة وسراويل داخلية سميكة وأحذية متينة برقبة.

كان كشك كيزيا في منتصف حارة روزماري، ورأيتها تقرفص أمام خليطها من السترات والمعاطف النسائية. كانت تحمل كل شيء في عربة يدها من هاوندسدتش كل صباح، وكانت واحدة من التجار القلائل الذين يعتنون ببضاعتهم، فتفرك البقع بالقِلْي وترتق الثقوب والتمزقات. كانت امرأة ما تعاين معروضاتها وتسحب الأكمام هنا وهناك قبل أن تنبذها. وحين وصلتُ إلى الكشك كانت قد انصرفت تمشي الهوينى، وجلست كيزيا، تفرك يديها معا وتنفخ فيهما.

"لا سبب يدعوكِ للشعور بالبرد مع كل هذه المعاطف،" قلتُ، محاولة إضفاء البهجة على صوتي. كانت عباءتي الصوف نفسها من عند كيزيا، اشتريتها منذ بضعة أعوام. في أيام البيع الخاملة وتجزية للوقت، كنا نختلق قصصا عن أصحاب الملابس الأُول. فقلنا إن عباءتي كانت لامرأة جميلة وقعت في حب بحار وانتقلت معه إلى جزر الهند الغربية وباعت ملابسها الشتوية لأنها لن تحتاجها في حياتها الجديدة.

أبدت وجها متبرما، ونهضت لتعانقني. "يبدو أن الجميع يملكون معاطف في هذا الوقت من العام. ومن لا يملكون هم تحت التراب الآن."

وحينهـا رأت وجهـي، وغمـر الإدراك ملامـح صديقتـي. نظـرتُ حولـي، وكأنـي قد أخفـي جين تحت تنورتـي. "أين هـي؟"

"لم تكن هناك."

غار وجه صديقتي. "أوه، بيس. لقد ماتت."

هززتُ رأسي. "كلا. بل إن أحدهم-"

"أي شـيء ببنس!" زعـق بائـع باروكات خلفـي، فأجفلنـي. كـرر عبارته باليديشية، ثم بثلاث لغات أخرى، ودرتُ حول الطاولة لأحظى بهدوء أكبر في الحديث.

"بل إن أحدهم استردها بالفعل."

رمشت كيزيا في ارتباك. "من استردَّها؟"

"هذا هو أغرب ما في الأمر. أنا."

هـزت رأسها، وأحكمتُ أنا لفَّ عباءتي حولي. "من أخذها أعطاهم اسمي وعنواني. لا أفهم يا كيز. إن عقلي في دوامة. جئتُ مباشرة إلى هنا. لم أخبر حتى إيب. سوف..." اختنق صوتي في حلقي، وكان عليَّ أن أهمس. "أيا كان من أخذها، فقد فعل ذلك في اليوم التالي لتسليمها. لم تكن في الملجأ قط كل هذه السنوات، كل هذا الوقت."

"ماذا؟ ولكن من عساه يكون؟ إن دانيال..."

"ميت، أعرف."

ازدادت عينا كيزيا البنيتين اتساعا. "ولكن ماذا لو أنه ليس كذلك؟"

"بل هو ميت. لقد نُشر نعيه في الأخبار."

"إنكِ لا تعرفين القراءة."

"أجَّرتُ صبيا لقراءته. إنه ميت، يا كيز."

"أي شيء ببنس!" صاح البائع.

"ولكن ما الذي قد يجعل أحدا يأخذها؟ وباسمكِ أيضا؟"

"ما لا أفهمه هو كيف عرفوا هويتي من الأصل - إننا في الملجأ لا نمنحهم أسماءنا أو عناويننا أو أي شيء، حماية للهوية. لكن الشخص الذي أخذها أيا كان، يعرف أين أسكن، ومن أكون. كيف؟"

عدَّلت كيزيا قلنسوتها، وهي تدسُّ بداخلها شعرها الأسود الذي يشبه الصوف. "لقد أصبتني بالتوتر الشديد الآن."

"أعرف."

"ولن يخبروكِ بهذا لإخفاء أنها ماتت؟"

"أتصور أن كثيرا من الأطفال الذين يذهبون إلى هناك يموتون. إنه ليس ذنب الملجأ - فمعظمهم يدخلون أنصاف موتى. كما أنهم يرسلونهم خارج لندن، كما أخبرتكِ، ليتلقوا الرعاية في الريف."

"ماذا لو أنه ذنبهم؟ ماذا لو أنها تعرَّضت لحادث، أو-"

"كيز، لماذا سيكذبون؟"

"ماذا لو أنهم باعوها؟"

"لمن؟ من سيشتري طفلة عمرها يوم واحد؟ ما أكثر اللقطاء - يمكنكِ الحصول على طفل لقيط من أي مكان: من بالوعة، من مأوى فقراء... إن نصف العائلات في هذا الشارع لن يترددوا في بيع أطفالهم إن استطاعوا."

ارتعدت كيزيا. وفي تلك اللحظة، اندفع مخلوقان صغيران

نحونا، يتقافزان ويتعثران بأجسادهما. قفز موزيس، الأكبر، فوق كومة أحذية في سلة، ليحط على كومة ملابس عند تنورتينا، وقلده شقيقه الأصغر جوناس، فلم يحسن تصويب جسده وقصم ساق الطاولة. فانهارت مُرسلة نصف ملابس كيزيا النظيفة إلى الأرض.

"جوناس، أيها الحثالة! انظر ماذا فعلت،" وبخته، ورفعته بذراع هزيلة. "لماذا لستما عند السيدة أيلمان؟ إنني أدفع لها لمراقبتكما، وليس للسماح لكما بالخروج والانتشار كالقمل فوق ملابسي."

أصلحتُ وضع الطاولة وشرعتُ أنا أرفع وأطبّق.

"لقد أذنت لنا بأن نأخذ الخبز إلى الفرن،" قالها جوناس بفخر.

"ليخيم،" قالها موزيس. "أي خبز باليديشية. وتنور تعني فرن."

"وأين هو الخبز؟"

"إنه يُخبز!"

"فلتذهبا وتحضرا ذلك الخبز وتأخذانه مباشرة إلى السيدة أيلمان، هل تسمعاني؟ لا تتحدثا إلى أحد، ولا تتوقفا، ولا تغادرا المنزل مرة أخرى، حتى لو أن الملك نفسه نزل راج فير في هودج."

انصرفا ركضا من جانب الأحذية والتنانير الداخلية، وراقبتهما كيزيا إلى أن اختفيا في حارة خلف كشك. كنتُ في خضم مرحهما، قد نسيت مشكلتي – هذا ما يفعله الأطفال. نفضتُ مجموعة من المشدّات ووضعتها فوق كومة الملابس. قلت لها: "أنتِ تبالغين في الحماية".

"لا مبالغة في الحماية."

وقفنا لبرهة ننقل بصرينا بين أول السوق وآخره. كان الناس منكفئين على أنفسهم اتقاء للريح الجليدية وقد لفَّعوا رؤوسهم وأيديهم. وحده المضطر من يخرج في هذا الطقس، والمضطرون كثير. كان الغسق يخيم بالفعل، ولم يشترِ أحد ملابس حتى حل الظلام. عُلِّقت أفخر بضائع كيزيا -قطن منقوش بالورود وساتان مخطط وشرائط ملونة- على مشاجب من محل البراميل خلفنا. بدت هذه الملابس أجمل في الضوء الخافت، الذي أخفى الحواشي المدرزة بلون مختلف، وبقع العرق عند الآباط التي لم تفلح أي كمية من القِلّي في إزالتها.

"ماذا ستفعلين الآن؟" سألتني، وهي تفرك يديها معا.

سحبتُ شريطا بنفسجيا. "لا أعرف. سأعود إلى المنزل وحدي، وسوف يسأل إيب أين الطفلة، وكذلك نانسي بينسون، وسوف أبدو غبية. لقد أخبرتُ نانسي أننا سنجلب صبية مساعدة – بل أخبرتُ جميع من في بيلينجزجيت. لا أعرف كيف سأواجه ذلك."

ظلت كيزيا صامتة لفترة، بدا خلالها الظلام يشتد، وعندما نظرت إليها مرة أخرى لم يعد بإمكاني تحديد أدق تفاصيل وجهها، التجاعيد الرقيقة عند زوايتي عينيها.

ثم قالت بهدوء: "ربما تكون حياتها الآن أفضل من الحياة التي يمكنكِ تقديمها لها."

"أجل،" قلتُ بضحكة جوفاء. "ربما تبنَّتها دوقة، وتعلِّمها الآن الرسم والعزف على البيانو. كلا، يا كيز. إنني لا أعرف ماذا أصدِّق. لا أثق بأولئك الرجال في الملجأ، بباروكاتهم وريشاتهم. ونظراتهم

إليكِ من وراء نظاراتهم. جميعنا سواء بالنسبة إليهم، نحن وأطفالنا."

"أنا واثقة أن هذا ليس صحيحا. لا أصدق أنهم قد يستغفلونك - قلتِ بنفسكِ أنكِ لم تمنحيهم اسمكِ عندما سلمتي الطفلة إليهم، فكيف سيعرفونه؟ هل كان دانيال يعرف حتى أين تسكنين؟"

"لا، لا بالطبع. لم ألتقِ به سوى مرتين! لا أعرف، يا كيز. وكأني أتخبَّط في الظلام."

نظرتُ إلى آخر حارة روزماري تجاه زقاق بلاك آند وايت، حيث عرفتُ أن إيب سيكون جالسا على كرسيه، مُعتقدا أنه سيقابل حفيدته، وقلقا بشأن المال. "كيف سنعيلها؟" هكذا سأل أكثر من مرة، وذكَّرته أننا قد تدبَّرنا أمرنا جيدا لما كان علينا إطعام ثلاثة أفواه، قبل رحيل نيد، وأننا سنفعلها هذه المرة أيضا. سيكون مترقبا لصعود زوجين من الأقدام فوق الدَّرج، ويأتي بثلاثة صحون من الرف للعشاء. عندما تخيلتني أخبره أنني لا أعرف أين تكون... بدوتُ مُهمِلة. بدوتُ نقيضا لما يجدر بأمٍّ أن تكونه. لم أستطع تحمل ضخامة الأمر. هل كانت في لندن، أو في إنجلترا من الأساس؟ هل شُحنت على سفينة؟ كانت أسوأ ظنوني أنها ماتت، لكن احتمالية وجودها في مكان لا أعرفه عوضا عن عدم وجودها من الأساس كانت عذابا أكثر رهافة.

قالت كيزيا: "ساعديني في ضبِّ البضاعة وتعالي إلى منزلنا لتناول العشاء."

وافقتُ بامتنان، وساعدتها في حزم كل ملابسها داخل أجولة كوَّمناها في عربتها اليدوية، وفوقها الطاولة والسلال. ومضينا

شمالا، حذو طريق مينوريز، الذي يتسع عرضه لكرّاجتين، وانعطفنا داخل الممر المعتم الذي يؤدي إلى زقاق برود، حيث تعيش كيزيا مع أسرتها. محاطا من جانبيه بمعابد يهودية، كان هذا الخنُّ من لندن خاصا بالمُهجَّرين -الزنوج أمثال آل جيبونز والإسبان وبروتستنت فرنسا واليهود والأيرلنديون والإيطاليون والبحارة الهنود- محشورين جميعا في الأزقة الضيقة والبنسيونات. كانت المساكن هنا أكثر احتراما من العشش التي أقام فيها اللصوص والمومسات ونامت ثلاث عائلات على أرضية واحدة، لكنها أدنى مرتبة بدرجة أو اثنتين من زقاق بلاك آند وايت، الذي يحوي طلمبة ماء وغرفة أو غرفتين للأسرة الواحدة. كانت غرفتا كيزيا في الطابق الأرضي، وعندما أزورها، كان عليَّ النقر على نافذتها، لأن المؤجرة -وهي امرأة فرنسية حادة الطبع بأنف معقوف وعينين ثاقبتين- تنهال بسيل غاضب متتابع إن طرق الزائرون الباب الرئيسي، وأحيانا تصفقه في وجوههم. كان الظلام قد حل حين وصلنا، بيد أن وهجا رقيقا ظهر عند حواف الستارة، ما دلَّ على وجود أن زوجها ويليام في المنزل. وعندما دخلنا وجدناه يركّب وتر كمان على طاولة خشبية كبيرة، فيما انكفأ جوناس وموزيس على الدكَّة يتلوان الإنجيل جهرا. كانت شمعة واحدة فقط تضيء المكان، لكن ويليام لم يبدُ أنه لاحظ، لذا أشعلت كيزيا أرومة شمعة أخرى، وأعطتها لجوناس وهي تقول إن شقيقه سيفقد بصره إن حاول قراءة خط صغير كهذا في الظلام. ساعدتها في تحضير العشاء: خبز، ولحم بقر مشوي بارد، وجعة، وأكلنا جميعا على المائدة، وقد وضع ويليام آلته على كرسي،

وكأنها تتمشى معنا. كان في جعبة الولدين قصة عن كناري السيدة أبيلمان، الذي دخل المدخنة طيرانا ورفض النزول منها، ووسط الأكل والدردشات نسيتُ لوقت قصير جدا، دقيقة أو دقيقتين فقط، ما حدث في ذلك الصباح. ولم أتذكر حتى نقلتُ بصري في غرفة صديقتي البسيطة، بجدرانها الخمرية والملابس والسلال المكومة على كل الأسطح، والسعادة المرتسمة على وجهي ابنيها وهما يثرثران، والنظرة المُتعبة والمُحبة التي تبادلتها مع ويليام، وشعرتُ بالظلال تمتد، والغرفة الصغيرة تزداد برودة. ولا بد أن الحزن قد ظهر على وجهي، لأن عيناي التقتا بعيني جوناس، الأكثر خجلا بين الاثنين، وحاولتُ أن أبتسم له.

بعد العشاء، أمرت كيزيا الولدين بالذهاب إلى الفراش، وهو ما فعلوه بطاعة، تاركين الباب مواربا حتى تتأكد من نومهما. غسلنا أواني العشاء فيما عاد ويليام باجتهاد إلى كمانه، وعندما انتهينا وعادت الأطباق والأكواب إلى مكانها، خلعت كيزيا مئزرها وجلسنا في الكرسيين المريحين أمام المدفأة. تمنيتُ لو أضع مخدة خلف رأسي وأغلق عيني. لم أرغب في العودة إلى زقاق بلاك آند وايت بدون جين ورؤية فراشها خاليا. "يجدر بكِ العودة إلى الملجأ." قالتها كيزيا.

قلتُ: "لماذا؟ كل ما سيفعلونه هو إخباري بما أخبروني به من قبل. أقسم أنهم يظنونني كاذبة. أو الأسوأ مجنونة: أي أمٍّ تلك قد تنسى أنها استردت طفلها؟ سوف يرسلونني إلى المارستان."

وبينما أخبرت كيزيا وويليام بأحداث الصباح، والتي شعرتُ كأنما مضى عليها عام بالفعل، راقبتُ ألسنة اللهب تتراقص، دون أن تردعها الهبّات الثلجية التي نزلت ترجف من المدخنة. أنصت ويليام،

وهو ينظف كمانه بخرقة وقارورة صغيرة من زيت التربنتين، وبعد سكتة طويلة قال: "ملجأ فاوندلنج... لقد عزفتُ هناك."

اعتدلتُ في جلستي. " حقا؟"

أومأ، مقطبا حاجبيه بشدة في الضوء الخافت ولكن دون أن يرفع عينيه. لم تكن العناية التي أظهرها لتلك الآلة الموسيقية تشبه أي شيء رأيته في رجل. "منذ بضعة أشهر. أظن أيلول. أقاموا قدّاسا في الكنيسة. هل تعرفان أن هاندل ألف لحنا للملجأ؟"

"ومن يكون؟"

نظر لي الآن. "مُلحّن. مقطوعة المسيح لهاندل؟"

هززت رأسي.

"كيف تبدأ...؟ "طُوبَى لِلّذِي يَنْظُرُ إِلَى الْمِسْكِينِ - "

قاطعته كيزيا. "إن كنت لا تتحدث عن الموسيقى، فأنت تتحدث عن العظات، وليس حديثنا عن أي منهما."

تجاهلها ويليام. "إنه مكان استثنائي. الأطفال الذين يدخلونه محظوظون جدا. ستكون ابنتكِ في أيد أمينة."

"لكنها ليست هناك، هذه هي المشكلة."

"أنصت، يا ويليام!"

غرقت الغرفة في صمت، لم تقطعه سوى قرقعة النيران.

"أتعلمين،" قلتُ بعد فترة، "كان ممكنا أن أتزوج منذ سنوات وأنجب أطفالا آخرين. أظنني كنت أنتظر استرجاعها، حتى يمكنني بدء حياة جديدة مع رجل آخر. أردتُ أن أكون قادرة على إخباره بالحقيقة، لأنني لو كنتُ تزوجتُ دون أن يعلم بالأمر، فأي زوج هذا

الذي سيوافق على تبنيها؟ والآن لا أحسبني سأراها مرة أخرى. لقد انتظرت كل هذا الوقت هباءً. وقريبا لن أصلح زوجة سوى لأرمل."

قالت كيزيا: "ما زال هناك وقت. لستِ عانسا. مازلتِ شابّة. أليس هذا صحيحا، يا ويليام؟"

وضع كمانه بين ذقنه وكتفه اليسرى، وعزف لحنا طويلا جميلا وحزينا. ثم عزف لحن زفاف شعبي جعلنا نبتسم.

كنت أعرف أن بوسعي إخبار كيزيا بأي شيء، لكن جزءا مني تساءل هل يا ترى تعتقد في أعماقها أنني لن أستعيد ابنتي أبدا. أنني سأغير رأيي، وأقابل زوجا، وأنجب طفلا مربوعا، ثم آخر، وأنسى أول أبنائي. أنني سأقتنع بتخيل جين أفضل حالا حيث هي، حيث ترعاها المربيات والخدم، وتحيطها المفارش النظيفة ومهلبية البرقوق وكنيسة تُنشد فيها. ربما رأت كيزيا أنها في أمان أكثر بعيدا عن الأكواخ الباردة في بيلينجزجيت والحوائط الرطبة في زقاق بلاك آند وايت. ولكن هل كانت ستترك ولديها يرعيان كالأيتام مهما كانت حياتهما مرفهة؟ أشك في ذلك كثيرا.

الفصل الخامس



تلكأتُ أمام البوابات لخمس دقائق قبل أن أعلن عن هويتي لدى كوخ الحارس، وأنا أعرف أنه على الأرجح رآني وأنا أقطع الطريق جيئة وذهابا، وأتمرَّن على ما سأقوله. كنتُ قد ارتديتُ أفضل فساتيني -من الثلاثة الذين أمتلكهم- فستان قطني بلون الكريمة منقوش بالورود ادَّخرته لي كيزيا منذ بضع سنوات. قالت حينها أن أحمر الورود الداكن يبرز شعري، ويضفي لونا على وجنتي. كما نظفتُ قلنسوتي، فقايضتُ قليلا من النشا بإبرة وخيط من نانسي التي تعيش في الطابق السفلي. وفي الثالثة والنصف، كنت قد أقفلتُ الشادر على قصعتي وهرعتُ إلى المنزل قبل إيب لأبدل ملابسي ثم أقطع طرقات البلدة سريعا إلى فاوندلينج. كان الجو باردا وغائما كليلة تشرين الثاني التي جئت فيها لأول مرة، وشعرتُ كما شعرت حينها: بين العزم والخوف.

أدخلني الحارس ومشيتُ وحدي في ممر العربات. كانت المروج على الجانبين مظلمة وخالية -لا بد أن الأطفال يتناولون طعامهم أو نائمون. كان الأطفال في زقاق بلاك آند وايت، يخلدون إلى النوم عندما يفعل أهلوهم، لكني أتصور أنهم هنا يستحمُّون

ويغسلون أسنانهم بعد العشاء، في صف يشبه الدمى تحت أضواء الشموع. صعدتُ الدرجات الثلاث ودخلتُ مُغلقة الباب خلفي. كان الممر الحجري هادئا، وتساءلتُ هل يا تُرى كان عليَّ أن أغلقه بقوة لأعلن عن وجودي. رتبتُ شعري وانتظرت، لكن أحدًا لم يأتِ. دقيقة، دقيقتان، ثلاث دقائق مرَّت، كل ثانية بدقتين من قلبي. مشيتُ نحو السلم ووقفت عند نهايته. عُلِّقت على حائط البسطة الأولى صورة ضخمة لرجل. عيناه واسعتان، ويرتدي قبعة ومعطفا بُنيًّا غامقا. وكانت على جبينه ندبة بارزة، وعلى يساره جلس كلب صغير. تأملتُ وجهه ووجدته متأهبا، ونابضا بالحياة حتى لم أكن لأندهش لو أنه مدَّ يده من البرواز ونزعه من على الحائط وخرج.

ثم أجفلني صوت. "هل أستطيع مساعدتك؟"

كان الصوت لامرأة تهبط الدَّرج، ضخمة وتشبه الخنزير في مئزر مكشكش وقلنسوة. قد احمرَّ وجهها بعدم رضا. نظرتُ أسفلي وأدركتُ أنني وطأتُ السجاد القرمزي النظيف، مُخلفة آثارا باهتة جدا فوقه. "نحن لا نستقبل أطفالا من الشارع، عليكِ التقدم بطلب رسمي والملجأ كامل العدد حاليا،" قالتها، دون أن تهبط درجة زائدة.

"ليس لي أطفال. أعني، لي طفلة، ولكنها ليست هنا." انتظرت المرأة، وعيناها الداكنتان ترسلان شرارات كالفحم، فشعرتُ بالسخونة في وجنتي. "هل يمكنني التحدث إلى المدير؟"

"المدير؟" أفلتت منها قهقهة. "لا أظن أنه ينبغي إزعاجه بأمرك."

"إلى من يمكنني التحدث إذن؟"

"إنكِ تتحدثين معي، أليس كذلك؟"

شعرتُ بمزاجي يحتد. نظرت إلى حذائي الرث، ووشاحي الذي يحتاج إلى رتقه. ولم يكن فستاني الأنيق مُقنعا هنا.

"منذ ستة أعوام،" قلتها، بنفس نبرتها، "تركتُ ابنتي هنا للرعاية، وفي اليوم التالي استردها شخص مُنتحلا هويتي."

لم تنبس المرأة بأي حركة، وقلَّص عبوس ملامحها الصغيرة. وازدادت القساوة في عينيها.

"لا أعرف من كان ذلك الشخص، أو لماذا فعل ذلك، ولكن... أنا والدتها. أريد أن أعرف ما حدث، وأن أتحدث إلى شخص قد يتذكر شكلها – أعني شكل المرأة التي قالت إنها أنا".

خيَّم صمتٌ، وسمعتُ بابا يُغلق في مكان ما. ثم صوتا رهيبا؛ أدركتُ أنه صوت ضحك المرأة على السلم. كان صاخبا ووقحا بصورة لا تليق بهذا المكان الهادئ والأنيق، شبيها بالمكان الذي أتيتُ منه، وليس المكان الذي أنا فيه. أردتُ أن أصعد السلم وأصفع وجهها الخنزيري.

"لدينا مجنونة هنا!" قهقهت في الردهة الخالية. "مجنونة من لحم ودم! هل هربتِ من المارستان؟"

وقبل أن يتاح لي الإجابة، انبعث صوت من خلفي. "ما هذا؟" ورأيتُ شابا يميل بجذعه من باب قرب الساعة. كان ضئيلا ونحيفا، ويكبرني ببضع سنوات، بشعر أشقر باهت. كان يرتدي قميصه فقط، ولا يعتمر قبعة – وبدا جليا أننا أزعجناه أثناء عمله. لمحتُ في الجزء الذي ظهر خلفه من الغرفة، طاولة مكتب وأوراق والوهج الناعم والمُرحِّب لمصباح زيت. كان يحدق بي.

قلت: "عذرا لإزعاجك، يا سيدي. لم أقصد مقاطعتك".

"هل مارجيري تساعدك؟"

"كلا."

"هل أستطيع أنا؟"

وقفتُ في صمت مشدوه. كانت ثلاث كلمات بسيطة، لكنني لم أعتد على سماعها. "لا أعرف، يا سيدي."

أرسل نظرة خاطفة إلى مارجيري، ثم عاد إليَّ مرة أخرى. "هل تحبين الانضمام لي في مكتبي؟"

تبعته إلى الحجرة الصغيرة، مُخلفة المرأة اللئيمة ترتجف مثل هلام هائج، وأغلق هو الباب. لم تكن مختلفة عن غيرها من الغرف التي جلستُ فيها هنا - دافئة ومضيئة وعمليَّة. كان السقف عاليا، لكن الجدران قريبة ومريحة، وأحاطت مدفأة رخامية بنار صغيرة مبهجة. عُلقت على إزار الحائط صور لمشاهد بحرية وأراض زراعية، وغطت سجادة أركان الغرفة الأربعة. لا أكاد أصدق أن غرفة فخمة كهذه قد أُعدَّت للعمل؛ كان لأعيش فيها بكل سرور.

دار الرجل حول طاولة مكتبه وجلس. قال: "أنا الدكتور ميد. أعمل هنا في الملجأ طبيبا للأطفال. وجدّي هو أحد المدراء المؤسسين."

لم يسبق لي قط أن قابلتُ طبيبا، لكني رأيت من الجهل أن أقول ذلك. فقلت: "أنا بيس".

"هل أنت والدة أحد الأطفال هنا؟"

"كيف عرفت؟"

"حسنا، أنتِ لا تحملين طفلا، ولا تعملين هنا، كما أننا في مساء يوم ثلاثاء، ولم يأخذ أحد معطفكِ، لذا... هو تخمين مدروس."

ابتسمتُ. وقلت: "آخر مرة جئتُ فيها كان يوم أحد، يا سيدي".

"دعيني أحضر لكِ مشروبا، ويمكنكِ أن تجلسي وتخبريني من الذي جئتِ لاسترجاعه. هل تحملين رقم طفلك؟"

"أعرفه،" قلتها، وأدركتُ كم كنت عطشة إذ التصق لساني بسقف حلقي. "لكن المشكلة، يا سيدي، أنها قد استُردَّت بالفعل."

رمش الدكتور ميد في ارتباك، وحاولتُ ترتيب كلماتي. "لقد أحضرتها إلى هنا منذ ستة أعوام، وعمرها يوم واحد، وفي اليوم التالي أخذها شخص تظاهر بأنه أنا. أعلم أن الأمر يبدو مزيفا، كمن تكذب. وأنا لستُ مجنونة،" أضفتُ بحزم، ثم أدركتُ بعد فوات الأوان أن هذا القول في ذاته دليل على الجنون. "أريد أن أعرف إلى أين قد تكون ذهبت."

كانت عينا الطبيب زرقاوين، اللون الذي أضفى برودة على بعض الأشخاص ولكن ليس عليه. ضيَّقهما كما فعلت مارجيري، إنما ليس في شك. بل بدا وكأنه يحاول رؤيتي بصورة صحيحة.

"هل يناسبكِ البراندي؟"

وقبل أن أتمكن من الرد، ذهب إلى خزانة خفيضة جوار المدفأة وأخرج دورقا وكأسين. وإذ وضعهما على مكتبه، سكب مقدار بوصة من سائل ذهبي في الاثنين وناولني أحدهما. تنشقتُه؛ فوجدته عبقا وحارًّا ونافذا. كان شرابا رجوليا، إنما ليس للرجال الذين أعرفهم –

بل للأطباء والمحامين والقباطنة. كان لرجال مثل دانيال. نظرتُ إلى الكأس للحظة، وكأنني قد أجد حلًّا هناك. ثم تجرَّعته، وشعرتُ به يلفح حلقي ويدفئ معدتي الفارغة. أحرقتني عيناي، ورمشت.

ثم قال الدكتور ميد: "أفترض أنكِ أخبرتِ أحدا هنا بما قلته لي؟"

أومأت. "سيد سيمونز، يا سيدي. وأخبرني أن الأمر اختلط علي."

"ثم صرفكِ؟"

أومأتُ إيجابا.

خيَّم صمت عميق. ثم قال الدكتور ميد: "والد الطفلة؟ هل ربما...؟"

"إنه ميت."

"هل تعلمين ذلك يقينا؟"

"نعم."

"لم تكونا متزوجين؟" خلت ملامحه من الانتقاد.

"كلا. مات قبل أن تولد."

"هل لكِ عائلة؟ هل يُحتمل أن قريبا قد تبنَّاها؟"

"لا أملك سوى أبي وأخي -أمي ميتة- وكلاهما لم يفعل ذلك."

"والجدود؟"

هززتُ كتفي. "جميعهم ميتون."

مرر الدكتور ميد يده خلال شعره وأسند أحد مرفقيه على الطاولة. كانت يداه صغيرتين، كيدي امرأة. ووجهه مُعبِّر بطريقة هادئة: أمكنني رؤيته يفكر بطريقة مُرتَّبة ومُلمَّة، ويضيء ذهنه

باقتراح أو فكرة، ثم يصرفها. "هل لديكِ أي... كيف أقولها؟ أي شخص قد يرغب في الانتقام منكِ؟ أي أعداء مثلا."

حدقتُ به. شعرتُ بالبرد في كل جسدي، بعد أن كان الشراب قد أدفأني. وضعتُ الكأس على طاولة المكتب. "أعداء؟" بدت الكلمة غريبة في فمي؛ لا أظنني جهرتُ بها من قبل. لم يدفعني سبب لأفعل. "مثل من؟"

أرسل زفيرا مسموعا. "خصومة مع جار أو... لا أعرف... صديق قديم."

قفزت إلى ذهني صورة نانسي بينسون المُتطفلة، وكدتُ أضحك. "لا أعرف أحدا ممن قد يأتي بأمر شرير كهذا، أنا واثقة. إنني لم أسئ لأحد قط، أو لم أتعمد ذلك على الأقل".

"هل يُحتمل أنه ابتزاز؟ لستِ... ثرية، أو تتوقعين ميراثا؟"

هذه المرة ضحكتُ فعلا. "كلا،" قلتها، ثم أعدتُ قولها بلطف أكبر لأن وجنتيه شابهما لون وردي. وأنا أيضا تضرجت: لأنه لم يكن قد سخر مني، ولا استهزأ بي. "لستُ ثرية. الحق أنني ادَّخرتُ جنيهين، ظنًّا مني أنهما سيكفيان لاستعادتها. لكنني كنتُ مُخطئة. ليس وكأن الأمر بذي أهمية الآن. لذا ربما أنا ثرية في الوقت الحاضر. حسنا، أكثر ثراء مما كنتُ عليه، وربما مما سأكون عليه لبقية حياتي." ثم أفرغتُ في جوفي ما تبقى من قطرات في كأس البراندي لمجرد أن أفعل شيئا.

"أفترض أنه لم يتبق سوى سؤال واحد: أنتِ متيقنة أنها نفس الطفلة؟"

"لا أعرف القراءة، ولكن أجل. الطفلة رقم ٦٢٧. لقد غيروا اسمها، لكنه كان جين. ونفس العلامة أيضا. وكما قلت، فإن الشخص الذي استردها كان يعرف كل شيء عني. لا أفهم كيف. هذا يعني أنه لم يحدث خلط."

أومأ الدكتور ميد. "سأرى ما يمكنني اكتشافه عن الأمر. هل يسعكِ الانتظار، إن أحضرتُ أوراقها الآن؟"

كدتُ أبتسم مرة أخرى، وأومأتُ إيجابا. غادر، بعد أن تحقق من التاريخ، وجلستُ وحدي في الغرفة الصغيرة المريحة. وجدتني أدرك بتعجُّب أني أشعر بالاسترخاء، بعد أن كنتُ أشعر بالخوف يكاد يشلُّني قبل نصف ساعة، وأنا أقطع الأرض ذهابا وإيابا خارج البوابات. وبظرف دقائق، عاد الدكتور ميد ومعه رزمة الأوراق الصغيرة التي رأيتها منذ بضعة ليال، معقودة بالشريط الأزرق. حلَّ الشريط بأصابع رقيقة، ثم حكَّ رأسه وتفحص الأوراق بحاجبين مقطبين. راقبته مليًّا، وعندما انتهى وضعها أمامه وشبك أصابع يديه.

"عندما يُردُّ أحد الأطفال إلى عائلته، تُحرَّر مذكرة ويوقعها الطرفان –أم الطفل في العادة، والسكرتير. أما السكرتير الذي حضر جلسة استرداد ابنتك في اليوم الثامن والعشرين من تشرين الثاني فقد كان سيد بيديكومب." تنهد، وتدلى كتفاه. "لقد وافته المنية في العام الماضي فقط."

"عجبا،" قلتها بصوت ضعيف.

"عجبا بالفعل. كنا سنتمكن حينها من سؤاله إن تذكر أي

شيء عن إليزابيث برايت، القاطنة في زقاق بلاك آند وايت، بلودجيت هيل. ذاك اسمكِ الكامل، وعنوانك؟"

أومأتُ، فمطَّ شفتيه إلى الداخل. كان كأسي الكريستال فارغا الآن، وتساءلتُ هل تُراه يصبُّ المزيد. تساءلتُ كم سأجني مقابل الكأس إن اختلسته دون أن يلاحظ.

"حسنا،" قالها بعد صمت، "أعتقد أن هذا لم يحدث قط من قبل. وإلا أخبرني جدي."

"ومن يكون جدك؟"

"يُدعى الدكتور ميد أيضا. كان كبير الأطباء عندما افتتح الملجأ؛ وقد تقاعد الآن، لكنه ما زال مُشاركا. سيذهل مما قلته لي."

"لن يصدقني."

"بل أنا واثق أنه سيفعل. لكنني أريد الإلمام بأكبر قدر ممكن من المعلومات أولا قبل أن أذهب إليه. كما أننا بالطبع، نحتاج لعمل اللازم حتى لا يتكرر هذا الأمر – الذي قد يتعين إدخال تدابير جديدة. ناهيكِ عن الشخص الذي انتحل هويتكِ زورا، من يضمن احتمالية ألا يُسترد أطفال آخرون بنفس الطريقة؟ من يضمن أن هذا لم يحدث بالفعل. ولكن هناك العلامة..." كان يفكر بصوت عالٍ، وعيناه تتحركان بسرعة. "لا بد أن الشخص قد أورد علامتكِ بعينها. ماذا كانت؟"

"كانت نصف قلب، مصنوعا من عظم الحوت".

"عظم الحوت. فريد فعلا. أكثر النساء تتركن مزقا من فساتينهن. عجيب." تجرَّع ما تبقى من شرابه بأناقة، وليس بشراهة

مثل نيد، ووضع الكأس بحركة حازمة. "أخبريني، هل يمكنكِ العودة يوم الأحد؟ سوف يأتي المدراء لحضور القداس، وبوسعنا عرض الأمر عليهم أثناء وجودهم جميعا. لا أشك في أنهم سيهتمون جدا بسماع قصتك. وحتى ذلك الوقت، سوف أحقق في الأمر." ثم ثبت عينيه الزرقاوين الصافيتين علي، وسادت لحظة صمت، حبستُ فيها أنفاسي. "خالص اعتذارى."

فتحت فمي ثم أغلقته. خذلتني الكلمات. وبعد سكتة قصيرة، قلت: "إنه ليس خطأك".

قال: "الأحد. سأقابلك خارج الكنيسة في التاسعة والنصف، وسوف تكونين ضيفتي."

كان جوفي دافئا من أثر النبيذ، وأثر شيء آخر شعرت به منذ أيام فحسب، وحسبتني فقدته كليًا. كان جوفي دافئا بالأمل.

***

كان نيد جالسا على كرسي إيب منفرج الساقين عندما وصلتُ إلى المنزل. تدلت إحدى يداه من على المتكأ، واستراحت الأخرى على بطنه، وكأنه أفرط في تناول الطعام. لكن هذا لم يكن الحال: فهو شاحب ونحيف منذ فترة، ويشكو من وجع في معدته. لا يزورنا سوى لطلب المال. وكنتُ أعطيه من حين لآخر. وعند مرحلة ما توقف عن التعهد برده. لم يحضر زوجته كاثرين قط، ولا أحضر أبناءهما، ولا أحضر فطيرة ساخنة أو كعكة كاسترد لنتناولها معا. لم يدعنا إلى منزله، ولم يحجز لنا مكانا في صفوف الكنيسة جوار

عائلته الشابَّة. كنتُ أعطيه المال، لو تبقى منه شيء، من أجل أطفاله فحسب.

كنتُ الآن أمعن النظر فيه. فكه مُحكم، ووجهه أحمر.

"جئتَ لتتمنى لنا عيد ميلاد مجيد، أليس كذلك؟"

"كان ذلك في العام الماضي".

"أعرف. لم نرك حينها."

"كنتُ مُسافرا".

"لقد طردته كاثرين،" قالها إيب، من الناحية المقابلة للغرفة، حيث كان جالسا على سريره، يخلع حذائه.

"لم تفعل. أنا غادرت."

"هجرتها لأجل سيدة جنيفا، أليس كذلك؟ عشيقتك القاسية؟"

لم يقل شيئا، ونقلتُ بصري بينه وبين إيب؛ كان لكليهما نفس المظهر المتجهم لرجلين خسرا كل أموالهما في لعبة قمار. لم تشتعل نار في المدفأة، وأجلتُ نظري سريعا على آثار الأقدام الموحلة، والصحون المتسخة والغسيل المُبعثر في أرجاء الغرفة والذي استغرق تجفيفه في البرد ضعف الوقت. كانت زجاجات المزر الفارغة المركونة تحتاج لغسلها، إلى جانب كومة من الملابس التي تحتاج لرتقها. كل شبر امتلأ بعمل أو آخر سيُعهد به إلي.

سأل إيب: "هل من أخبار، يا بيسي؟"

هززتُ رأسي.

"عن ماذا؟" كان نيد ينظر نحوي الآن. وجهه أكبر بكثير

من سنواته السبع والعشرين، مع خطوط حمراء متكسرة تحت جلده وبشرة رمادية جافة.

كان الشراب الذي قدمه لي الدكتور ميد قد جعل في رأسي خفة وفي لساني حدة. "لو كنتَ تسأل عني، لعرفت أنني عدتُ إلى فاوندلينج لاسترداد ابنتي."

"أوه،" قالها وهو يخفض صوته، ونظر حوله بدهشة. "أين هي؟"

"ليست هنا وليست هناك. ليست في أي مكان." كان موعد العشاء قد فاتني، ولم يتبق أي طعام. شعرتُ بأن نزول الدَّرج مرة أخرى إلى لودجيت هيل لابتياع وجبة ساخنة لهو مجهود عظيم. فمضيتُ أرتب الغرفة لأشغل نفسي بشيء أفعله، فيما جثا إيب بمفاصل متيبسة لإشعال نار. كنت سأغسل الأطباق والأكواب، وأمسح دخان الفحم من على النوافذ، ثم أخلد للنوم.

"ها؟ ماذا تعنين؟"

"لقد استردتها إليزابيث برايت، من زقاق بلاك آند وايت، قبل ستة أعوام."

"بم تهذرين؟"

"لقد اختفت، يا نيد، ولا أعرف أين. انتحل أحدهم شخصيتي -ما هي الكلمة التي استخدمها؟- آه، زورا."

"فعلة غريبة جدا، صحيح؟ من قد يقدم على ذلك؟"

"علمي علمك".

"ذهب الأب إلى حتفه، أليس كذلك؟"

"على حد علمي."

خيم على نيد صمت عميق، وراقب إيب الذي ينكفئ أمام المدفأة دون أن يعرض مساعدته. جلس أخي كأحد النبلاء المنعَّمين، وكأن الكدح والصعاب التي تحملناها جبرا قد ارتدَّت عنه ولم تصبه قط. افترضتُ أنه سيمكث ليلة أو ليلتين – فعل ذلك أحيانا، فغطَّ جواري في سريره القديم الذي كان يُفترض أن تنام عليه جين. لا بد أن كاثرين تشعر بخيبة أمل كبيرة لأنها تزوجته.

مرر إحدى يديه على ذقنه النابتة. ثم قال: "أمر تحير له الرؤوس، ها؟"

لم يكن مهتما. كان عقله في مكان آخر. تأملته، بحذاءه مغروسا فوق ألواح أرضيتنا، ومغروسا في حياتنا، مُتسائلة متى سيقتنص الفرصة لطلب المال. شعرتُ بنفسي أمتلئ بالكراهية تدريجيا فأدرتُ وجهي، ونطرتُ صرصورا من فوق طبق متسخ. كانت الغرفة شديدة البرودة، وكل الراحة التي شعرت بها قبل ساعة واحدة فقط في تلك الغرفة الصغيرة الدافئة والممتعة، قد اختفت عند المدخل حالما رأيتُ أخي.

سأل بعد فترة: "ماذا ستفعلين إذن؟"

بدأتُ أعمل مولية ظهري له. "سأحاول العثور عليها بالطبع".

ضحك، ضحكة بنغمة قصيرة وحادة جعلتني أرغب في بطحه بالطبق الذي كنت أحمله. تخيلت صوت التهشم الممتع الذي كان سيحدثه ذلك. لولا أننا لم نكن في وفرة من الأطباق.

"وكيف ستفعلين ذلك في مكان مثل لندن؟"

"لا تتظاهر بالاكتراث. لا تجلس عندك وتمثل دور من يزورنا

للسؤال عن الحال، لأنك لست كذلك. هيا إذن، أفصح - لماذا أتيت حقا؟ كم تريد؟ شيلنج؟ ثلاثة؟"

"عشرة."

أطلق إيب صفيرا خافتا، وهو يمسح يديه الملطختين بالفحم في خرقة وينهض بصعوبة. "أعتقد أنك تخلط بيننا وبين موظفي البنوك، يا فتى".

"إنه يخلط بيننا وبين الكثير من الأشياء. وأولهم الحمقى."

"هذا ليس عدلا".

"كلا، ليس كذلك. وفيم تحتاج المال إذن؟"

"الرضيع يحتاج إلى دواء".

عقدتُ ذراعي ونظرتُ إليه بثبات. "إن أخبرتني فيم تحتاجه حقا، فسوف أعطيك كراون."

أشاح بعينيه ثم عاد للنظر لي، مسلطا عينيه على مكان قرب كتفي. "عليَّ دين. تأخرتُ عن موعد تسديده بالفعل وهم يرفضون الانتظار أكثر." كانت تحت عينيه هالات سوداء، لكنها ربما من أثر اللكمات.

ذهبتُ إلى غرفة النوم لأخرج صندوق مدخراتي من تحت المرتبة.

"هذا لتسديد دينك، لا غيره. هل عليَّ مرافقتك؟"

ارتجف جسده. "كلا. لا أريد تورطكِ في هذه الأمور." ألقيتُ الكراون في كفه، وضمَّ هو قبضته حوله. "سأضيفكِ إلى قائمة الدائنين الخاصة بي. إلا أنكِ ستحتاجين إلى إقراضي ورقة وريشة أيضا. كما أني لا أعرف الكتابة."

لو قصد بكلامه أن يكون ظريفا، فنحن لم نضحك. ولا هو تحرك ليغادر، ثم أدركتُ بعد دقيقة أنه ينظر نحوي بنظرة خاصة. كان إيب جالسا على مقعد، ينظف حذائه في دلو الفضلات، مستغرقا في مهمته.

قال نيد بصوت خفيض: "لماذا ما زلتِ هنا، يا بيس؟" وأشار إلى الحالة البائسة لمسكننا المهجور. كان الماء الذي وضعه إيب على النار قد سخن، وجسسته بإصبعي قبل أن أرفعه بخرقة وأضعه على الرف قبالتي. من النافذة المظلمة رأيتُ عائلة الأيرلنديين، آل ريوردان، الذين يعيشون في الجهة المقابلة من الزقاق. كانوا يتحركون في أرجاء غرفتهم في تسلسل معقد، فجهزوا مائدة عشاءهم فيما حمل والدهم قطة برتقالية كبيرة على صدره. كان يروي حكاية، ويبتسم، وكذلك الأولاد الذين وضعوا المائدة، رغم أنني رأيت أن صحونهم متكسرة وغير متماثلة، وغرفتهم الصغيرة تعج بالملاءات المنشورة. أدركتُ أنني ما زلتُ أرتدي وشاحي، والذي كان مبتلا، فخلعته وعلقته أمام النار، حيث بدأ البلل يتبخر منه.

"بيس،" كرر نيد، وأنا أمر من أمامه. شعرت بأنامله تلمس ذراعي، وغمرتني دفعة من حزن وحب قويين لأخي، وكأنه لطخني بها. هل هذا هو نفس الصبي الذي ضم سريرينا وأصدر أصواتا مضحكة من وراء الستارة الحمراء المعلقة بينهما؟ الذي قدم عرض عرائس، صانعا فتحات في القماش بيده؟

"تأخذ مالي ثم تسألني لماذا ما زلتُ هنا؟ هذا هو السبب."

بقيتُ موليةَ ظهري له، ونقعتُ أكوابنا مرة، ثم مرة، فغطستها، ثم أخرجتها، ثم غطستها مرة أخرى.

وبعد برهة قال: "آسف بشأن ابنتك. أنا واثق أنكِ ستجدينها. أخبريني إن احتجتِ لمساعدتي."

أغمضتُ عينيّ وفتحتهما، فكان مشهد عائلة ريوردان في نافذتهم مُغبَّشا. سحبتُ نفسا مسموعا، ونقعتُ الأواني، وجففتُها، ووضعتُها على أرففها، وبعد دقيقة أو اثنتين سمعتُ نيد يتحدث إلى إيب، ثم صرير ألواح الأرضية، ثم الباب وهو يُغلق. نظرتُ إلى الأسطح والأبراج، وفكرتُ في الحركة المستمرة للمدينة في الظلام أسفلهم. ما أسهل أن ينسل المرء داخل أعماقها، وينجرف بعيدا.

الفصل السادس



تغلق الأسواق في أيام الآحاد. ولسنا من مُرتادي الكنيسة - كانت آخر مرة ذهبنا عائلةً في جنازة أمي بكنيسة سانت برايد- لذا أطال إيب النظر إليَّ أكثر من المعتاد عندما خرجتُ من غرفتي وأنا أرتدي ثوبي القطني المنقوش. اقتصر ذهابي إلى الكنيسة على أعياد الميلاد المجيد بصحبة كيزيا ووليام والصغيرين - فكنا نحشر أنفسنا في صفوف صغيرة مع الإسبان والأيرلنديين والسود، ونغني ونستمع ونتلو، ونحاول إسكات الأطفال المتلهفين إلى نصيبهم من الأوز المشوي ومهلبية البرقوق. لكنني مع ذلك لم أتناول معهم عشاء عيد الميلاد، ودائما ما اشتريتُ دجاجة في طريقي إلى المنزل لتناولها مع إيب.

"الكنيسة؟" قالها إيب عندما أخبرته عن وجهتي. "لماذا؟"

"سأذهب مع كيزيا،" كذبتُ، وأنا أغير قلنسوتي المنزلية بقلنسوة الخروج فلم أضطر للنظر إليه. "لماذا لا تزور كاثرين اليوم؟ بوسعك رؤية الرضيع؛ لا بد أنه كبر قليلا الآن."

رمقني بعينين مربدَّتين. هل كان يزداد نحافة؟ لم أستطع

التمييز؛ فأنا أرى وجهه أكثر من وجهي. تململ في كرسيه، وكان ما يزال في منامته. كان الجو من البرودة حدَّ إشعال النار طوال الوقت.

"لن أخرج في هذا الجو،" هكذا أجاب. "هلا جلبتِ لي بطانيتي؟"

وضعتها عليه وأدخلتُ أطرافها خلف كتفيه. تحول إلى رجل مختلف في البيت؛ فصغُرت رقعته وقلَّت إمكانياته.

"هل تُرى يتجمد نهر فليت كما حدث في العام الماضي،" قلتُ، وأنا أشغل نفسي بتغطيته. كان قد أكل نصف رغيفه فأكلتُ أنا الباقي. "هل تتذكر الكلب الميت الذي تجمَّد داخله؟ وظل الصغار ينكزونه بعصيهم؟"

كانت عيناه مغمضتين؛ فأومأ برأسه ليريني أنه مُنصت. دائما ما يكون متعبا في أيام الآحاد. لم يستدعِ الأمر قلقي – فهو يقضي بقية الأسبوع في الخارج، مُرتجفا في الكشك، ومُغطِّسا يديه في دلاء مثلجة من الروبيان. كان عدم رغبته في الخروج أمرا طبيعيا. دثَّرته جيدا بالحرام، وألقيتُ مزيدا من الفحم على النار، وغادرت.

***

فُتح ملجأ فاوندلينج في أيام الآحاد كقصر ريفي، فشُرِّعت بواباته السمراء على مصراعيها لجميع أكابر لندن. اختنق الطريق بالعربات، وطوَّحت الخيول المصقولة بأعرافها، نافثة بخار أنفاسها إلى الهواء البارد، فيما انتظر سائقوها بوجوه جامدة دورهم في الانعطاف عبر البوابة اليسرى في الوقت الذي أقبلت العربات الفارغة

عبر اليمنى. انسللتُ خلف زوجين أنيقين وسرت حذو العربات المطلية الفاخرة، وحينها لاحظتُ شارات العائلات المنقوشة على الجوانب والستائر المخملية على النوافذ، وتساءلتُ كم من تلك العربات ضمَّت أناسا يسكنون في الشوارع المجاورة، ورغبوا في الجلوس في طابور لمجرد أن يرى الجمع وصولهم. وأمامي، عند المبنى القصي الذي تزين واجهته ساعة كبيرة، شاهدتهم يترجلون بقامات منتصبة وباروكات طويلة وأياد ترتدي القفازات. تذكرتُ كيف اتكأ نفس الأشخاص على الجدران في ليلة القرعة ليشاهدوا، بمراوحهم وابتساماتهم المتزلفة.

كان الدكتور ميد قد طلب مني لقاءه في الخارج، لذا وقفتُ على جانب الطريق في انتظاره. كان صباحا صحوا، أقرب للربيع منه للشتاء. على حدود المرج زُرعت بضع شجيرات، وخلف الكنيسة حدائق كبيرة ومشذَّبة يمتد منها بستان. امتلأ المكان اليوم بالأطفال: بعضهم ينتمون إلى الملجأ في زي بني موحد، فيما كان بقيتهم، الذين يملكون آباء، في كامل أبَّهتهم. كنتُ قد شبعتُ من رؤية الأثرياء، حتى في شوارع المدينة، حيث يعجبهم أن يراهم الناس، وهم يخبُّون من وإلى متاجر الأقمشة والحلويات وأسواق اللعب. أما أبنائهم: فنادرا. بدا على العديد منهم أنهم لم يخرجوا قط من قبل، وكانوا شاحبين وكنزين كالحمام. شاهدتُ ولدين يمشيان حذو والدتهما، وعلى رأسيهما باروكتان فضيتان جعلتهما كنبيلين صغيرين. كان سروالاهما أبيضين كالطحين، ولمعت الأزرار الذهبية على معطفيهما.

كانت عربة أخرى قد وصلت إلى مقدمة الصف وتفرغ حمولتها

–امرأة طويلة القامة في ثوب حريري أخضر من نوع سبيتالفيلدز وابنتها في ثوب أصفر صفار الزبدة. أمسكت الفتاة الصغيرة بطبقات تنورة أمها في قبضتها وقفزت إلى الأرض، ثم حاولت الإمساك بيدها، لكن أمها كانت تتحدث إلى الحوذي ولم تلاحظ.

"آنسة برايت".

كان الدكتور ميد يقف ورائي. ولربما لم أكن لأتعرفه؛ فقد اختبأ شعره الأشقر الباهت أسفل قبعة مثلثة، وقميصه أسفل معطف أزرق أنيق. لم أكن قد رأيته إلا في جو من الألفة؛ أما الآن فلم يتعد كونه نبيلا وسط حشد النبلاء. لكنه وجدني، رغم ذلك.

"هل ندخل؟"

قدم لي ذراعه، وبعد تردد دام لحظة تناولتها. كنتُ قد رأيت أزواجا أثرياء يفعلون هذا في الشارع، وكأن المرأة لا يمكنها المشي دون مساعدة.

سألته: "هل هذا مصلًى أم حديقة ترفيهية؟"

ضحك الدكتور ميد. "قد يبدوان الشيء نفسه. إلا أن هذه الرحلة ستكلفكِ أكثر من شيلينج، لذا يكون الإقبال عليها أكبر بالطبيعة."

توقفت، وأفلتُّ ذراعه. "لم أحضر معي أية نقود."

ابتسم وهز رأسه. "هناك إناء تحصيل، ولا إجبار في الأمر. بوسعكِ ألا تضعي شيئا أو تضعي جنيها، كلٌّ حسب قدرته."

استأنفنا المشي من جديد، مُنخرطين في حشد بطيء من الأساور والكرافاتات والقبعات التي تقترب من أبواب الكنيسة.

سألت: "من كل هؤلاء الناس؟"

"مُتبرّعون. مدراء وأمناؤهم. أثرياء لندنيون، وبعضهم من الريف أيضا: ميدلسكس، هيرتفوردشاير."

"ألا توجد كنائس في ميدلسكس وهيرتفوردشاير؟"

كان الدكتور ميد سهل الابتسامة كما لاحظت. "كلا على ما يبدو."

كانت امرأة أمامنا ترتدي إحدى أطول الباروكات التي رأيتها في حياتي. مكومة ومضفَّرة، تتناثر فيها الشرائط، لونها لون الأغصان الجافة وتمتد مسافة قدم من رأسها. كنا الدكتور ميد وأنا نجتذب نظرات فضولية قصيرة، وألقى الكثير عليه تحية الصباح، مُركزين ابتساماتهم عليه دوني. ألقى بعضهم نظرة حادة على ثوبي القطني، الذي يظهر بإيجاز من وراء عباءتي البسيطة، أما رأسي فلن يهم حتى لو غطيته بكيس علف، لأن أحدا لم ينظر لي في وجهي.

وفي الداخل، وجدتُ المُصلَّى حديث الطابع، لا يزيد عمره عن بضع سنوات، وليس له أسقف سانت برايد العالية ولا أبراجها العتيقة. كان أقرب للمسرح منه لمكان عبادة. ومن قمة الجدران العالية، تدفقت أشعة الشمس خلل نوافذ زجاجية معشَّقة بارتفاع ثلاثة رجال، وأسفل السقف شرفة ممتدة بمحيطه، تدعمها أعمدة رخامية. لم تكن صفوف الصلاة موجهة للأمام، بل إلى المركز، مع ممشى يخترقها ومنبر في نهايته، فكان على الجميع أن يستديروا يمينهم أو يسارهم لمشاهدة القس يلقي عظته. تبعتُ الدكتور ميد إلى صف أول في المنتصف، وأشار لي بالدخول. شعرت وكأني شريحة لحم

معروضة في محل جزارة، وتمنيتُ لو جلسنا في الخلف. بيد أنه لم يبد واعيا للنظرات التي اجتذبناها، أو بالأحرى، ما خبأته من معنى، فقابلها بابتسامته العفوية. زاد ذلك من إعجابي به. وعلى الناحية الأخرى من الممشى، راقبتني امرأتان تعتمران باروكتين طويلتين على نحو صريح؛ ونظرتُ في أعينهما مباشرة، إلى أن أشاحتا بوجهيهما، وتبادلتا الهمس من خلف مروحتيهما. شعرت بخديَّ يحمرَّان، وفمي يجف. تمنيتُ لو أني في البيت، آكل سكر نبات وقدميَّ الحافيتين على المقعد القصير وإيب غافيا في كرسيه. كان الأحد يوم راحة - يوم راحتنا الوحيد. لا ريب أن هؤلاء الناس لا يفعلون شيئا سوى الراحة، حتى صارت لهم مُضجرة، فوضعوا مساحيق التجميل وربطوا المشدَّات ولمَّعوا الأحذية ليأتوا إلى هنا. كان هذا المصلَّى قاعة من المرايا: لم يجيئوا ليروا أحدهم الآخر إنما ليروا أنفسهم، في أعين الآخرين.

أقبلت فرقة من أطفال فاوندلينج عبر الممشى في المنتصف، مهندمين في زيهم البني الموحد. ورغم علمي باستحالة أن تكون جين بينهم، إلا أنني نظرت في وجوههم على أية حال. كانوا هادئين وغير مضطربين، ولا أثر على وجوههم لملامح التعب والنحول التي حملها أطفال بلاك آند وايت، الذين كانوا أشبه برجال ونساء عجائز بحجم صغير.

"إليوت،" قالها صوت عميق وقوي. وأمامنا وقف رجل ضخم بخدَّين ممتلئين وباروكة متقنة الجدائل، مُتكئا على عكاز برأس ذهبية.

"جدي." كان الدكتور ميد مُبتهجا. "هل ستجلس معنا؟"

"إنني برفقة الكونتيسة -عائلتها في زيارة من بروسيا- ولكن تعال إلى جريت أورموند لتناول الغداء بعد انتهائنا هنا. ستُقام سهرة." كانت عيناه الداكنتان رقيقتين وودودتين، وشعرتُ بأثرهما عندما التفت إلي. "ومن تكون رفيقتك؟"

"جدي، أعرِّفك بالآنسة برايت. إنها صديقة أسعى لمساعدتها. وربما بوسعك أيضا مساعدتنا. هل تأذن لي بإحضارها إلى جريت أورموند بعد القداس؟"

وقبل أن يتاح لي الاعتراض، لوح العجوز بيد ضخمة تغطيها الخواتم، وكأنما صمَّغ أصابعه وأقحمها في صندوق جواهر. وقال: "جميع أصدقائك مرحَّب بهم. سررتُ بلقائكِ، يا آنسة برايت." حيَّانا بإيماءة ومضى في طريقه بخطى حثيثة، ليس إلا ليوقفه بعد ياردتين أو ثلاث شخص آخر بباروكة.

في جو المُصلَّى المكتوم، ومع انتشار روائح الشَّعر والأجساد والعطور، والصخب الجماعي للعرق والمسك والزهور والتبغ، شعرتُ بدوار، وبتقلُّص في معدتي.

"هل وجدتَ شيئا منذ آخر لقاء لنا؟" سألتُ الدكتور ميد بصوت منخفض.

سحب أوراق جين من داخل سترته، معصوبة بالشريط الأزرق. "لقد أحضرت المذكرة لأعرضها على المُدراء، وأسألهم إن كان أحدهم يتذكر المرأة التي استردت ابنتك. اعلمي أنه لا يُسترد سوى عدد ضئيل جدا من الأطفال -نحو واحد فقط من كل مائة- لذا لن تكون ثمة حاجة لتذكر الكثير من النساء، والذي مع كونه أمرا مؤسفا، إلا أنه قد يعني أن الحظ في صفنا."

أخذتُ منه الرزمة. فاحت من الورق رائحة الزمن والغبار، ومررتُ إصبعي على الجزء الوحيد الذي كان مفهوما لي: رقم ستة واثنين وسبعة، وقلبت الصفحة لأنظر في الوجه الآخر، وكأن الكلمات قد تصبح فجأة مفهومة.

اقترب شخص آخر من الدكتور ميد وشرع في محادثته. ليتنا كنا ذهبنا إلى حانة أو مطعم، أو إلى منزله أو منزلي – أما هنا فكأننا نقف في شارع ستراند. جلستُ فوق يدي العاريتين من القفازات فيما تبادل هو المجاملات مع المرأة التي وقفت قبالته. لم يقدمّني هذه المرة وهي لم تسأل. كانت طويلة وشاحبة وراقية، يداها نحيلتين وبدون قفازات وشعرها أشقر تحت قبعتها. انبعثت حركة عند تنورتها، وبعد لحظة ظهرت فتاة صغيرة لتقف أمامي على الجانب الآخر من الحاجز الخشبي. رمقتني بعينين داكنتين واسعتين، وعرفتُ أنها نفس الفتاة في الثوب الأصفر صفار الزبدة التي رأيتها آنفا تقفز من العربة. لم أعرف إن كان يجدر بي قول شيء، كأن أخبرها أن فستانها أعجبني، أو أسألها عن اسمها، ولكن قبل أن يُتاح لي ذلك، شاب الاختلاس ملامحها، وانعقد لساني في مفاجأة وهي تخرج شيئا من جيبها الذي عند خصرها. وفي كفها استقر مخلوق صغير وغريب لم أره قط من قبل. رأسه متغضن وعنقه عجوزة تمتد من قوقعة بألوان خضراء وبنية، ونسق شديد التعقيد حتى لظننتها هي من لونتها. ظننته لعبة، لولا أنه في تلك اللحظة تراجع برأسه وأقدامه الأربعة المدببة، واختفى بالكامل، دون أثر سوى قوقعته الجميلة. ففغر فاهي في ذهول. أعادته الفتاة إلى ثوبها

وثنت زاويتي فمها في ابتسامة خجولة خصتّني بها. لم أملك إلا ردّ الابتسامة.

"جورجيت، تعالي." وضعت والدتها، التي لم تلاحظ ما حدث بيننا، وضعت يدا حازمة على كتفها. وفي إصبعها تألق خاتم تزينه ياقوتة حمراء.

قال الدكتور ميد: "سررتُ بلقائكِ، يا سيدة كالارد".

استغرقتُ برهة لاستيعاب ما قاله. سافرت الكلمات ببطء عبر أذني، كثيفة كحساء البازلاء، مُتخثّرة في مكان ما داخل عقلي ومسببة لي الخرس. ابتعدت المرأة والطفلة - رأيتُ أخضر وأصفر زبدة يتحركان عبر الجموع، ورأيتُ مؤخرة رأسيهما، إحداهما شقراء والأخرى سمراء. مددتُ عنقي لأرى إلى أين ستذهبان، ودخلتا صفا في آخر الكنيسة، خلفنا، بمنأى عن الأنظار، وتوارى وجهاهما خلف القبعات والبواريك.

كنتُ قد أوقعتُ حزمة الأوراق، وانحنى الدكتور ميد لاستعادتها. وكان يقول: "سنذهب إلى منزل جدي بعد القداس - مسيرة دقائق فقط، في شارع جريت أورموند. سيأتي مدراء فاوندلينج بالطبع. ذهبت لزيارته بنفسي البارحة، لكنه كان مشغولا بعشاء مع أطباء جراحين أو نحوه. مازال يعمل وهو في الثمانين! هل تصدقين؟ قلتُ له: "جدي، لن أُفاجئ إن عطس أحدهم في جنازتك فتنهضت في تابوتك لتصف له دواءً"." كان الدكتور ميد يبتسم، لكنني لم أكن أنصت له.

"من كانت تلك المرأة؟"

"من؟"

"المرأة التي كنت تحادثها حالا".

"السيدة كالارد؟ هل تعرفينها؟"

"كلا. هل تلك ابنتها؟"

"نعم. جورجيت."

"وهل هي... هل هي متزوجة؟"

"أرملة. توفي زوجها قبل بضعة أعوام. كان صديقا لي."

تذكرتُ ابتسامة الطفلة التي خصتني بها، وعيناها الداكنتين. كان شعرها بنفس اللون؟ هل لمع بحمرة في الشمس؟ عجزتُ عن رفع صوتي عن الهمس وأنا أسأل: "ماذا كان اسمه؟"

"دانيال. كان يمتهن عملا شيقا: تاجر. نسيت الآن فيم كان يُتاجر. هل كان العاج؟ كلا، إنني أتذكر الآن. كان عظم الحوت. آه، ها هو القس. هل معكِ كُتيِّب ترانيم؟"

***

لا أكاد أذكر شيئا من القداس. لا أعرف كيف بقيتُ جالسة طوال مدته، لكن الأمر لم يكن صعبا، لأنني شعرت بالخدر، وتركتُ الخطب والترانيم تمر بي مرور الكرام. لساعة كاملة لم يكن بوسعي التفكير سوى في ثلاثة أمور بالتناوب، مرة تلو مرة، في حلقة مفرغة: كان دانيال متزوجا. وكانت تلك زوجته. وكانت ابنتي معها. كانت في السن والحجم المضبوطين، وتلك العينين الداكنتين جدا، والشعر الذي يشبه شعري. كانت والدتها شقراء وأكبر مني سنًّا. أكبر حتى من

دانيال، الذي افترضتُ أنه كان في الخامسة أو السادسة والعشرين، وإن كانت عدة أعوام قد مرَّت بالطبع. خاطبت ابنتها بجورجيت.

بذهن شارد شعرتُ بيد الدكتور ميد على ذراعي، ونهوض الناس من مقاعد الصلاة وتدفقهم نحو الأبواب. أظنُّه تكلم، لكني عجزتُ عن سماعه؛ كانت أذني صمَّاء، يملأها الطنين، وكانت أطرافي ثقيلة وبطيئة. شعرتُ بأني مُتجمدة، مثل الكلب الميت في نهر فليت.

"آنسة برايت؟"

تقول المستندات أن جين أعيدت لي في اليوم الذي تلا إحضارها. ربما كانت جورجيت هي ابنة ألكسندرا كالارد بالفعل، وأننا أنجبنا ابنتينا في الوقت نفسه تقريبا. لكن دانيال كان أشقر مثل زوجته، فكان شعره أصفر رمليا وعيناه مُلوَّنتين. كان في زقاق بلاك آند وايت ثلة إخوة بشعور حمراء، وبرز واحد منهم كغراب بين الحمائم، ببشرة بنية وملامح متجهمة. قالوا إن والده يضربه.

"آنسة برايت؟"

أُخليت الكنيسة سوى من بضع نسوة تبادلن الأحاديث وطوَّحن بباروكاتهن، ومجموعة رجال وقفوا كطواويس ملونة، يتزلفون إلى جد الدكتور ميد. ولكن لا أطفال في المشهد.

"آنسة برايت!"

أفقتُ من شرودي فجأة. وكان الدكتور ميد يحدق بي وعيناه تشتعلان بالقلق. "هل أنتِ مريضة؟"

انتفضتُ من مقعدي، فكدتُ أرتطم به، وأدرتُ عيني في أرجاء المُصلَّى، وأنا ألف جذعي حتى لا يفوتني ركن أو مقعد، وأمدُّ

عنقي إلى الشرفة ثم اندفعتُ من جواره وقطعتُ الممشى إلى الأبواب، مُثبتة قلنسوتي بيد ومُحكمة ياقة عباءتي بالأخرى.

أزرق وأحمر وأبيض: معاطف غامقة وقبعات سوداء وشعور بلون السحاب في كل مكان، ولكن لا أخضر، لا أصفر. اخترقتُ الثلل الصغيرة المُحتشدة تحت ضوء الشمس الواهن، وشعرتُ بحلقي يضيق. كانت العربات قد بدأت تستقبل أصحابها، ورأيتُ بزاوية عيني طرفا من الثوب الأصفر صفار الزبدة يتوارى خلف أحد الأبواب، وقدمين صغيرتين في جوربين فوقهما حذاء أسود. أغلق حوذي أنيق الباب واعتلى مقعده. وفيما يسوي ذيل معطفه ويتناول اللجام، أسرعتُ إلى العربة، وعندما أصبحتُ على بعد عشرة أو اثنتي عشرة ياردة، شعرتُ بيد تحكم قبضتها حول ذراعي.

"آنسة برايت." كان خد الدكتور ميد متوردا. "إلى أين تذهبين؟" خرجتْ أنفاسه في سحابات صغيرة، حوّلت الهواء بيننا إلى دخان. لا بد أنه ركض خلفي. ولا بد أني بدوتُ له مجنونة. لا يجب أن أبدو مجنونة أمام طبيب. كان ينتظر تفسيرا والضيق يشوب وجهه المبتهج في العادة.

قلتُ: "لستُ على ما يرام. احتجتُ إلى بعض الهواء."

"سأصحبكِ إلى المنزل إذن؛ إن بيتي يبعد بضعة شوارع عن هنا. يمكننا أن نبلغه سيرا في خمس دقائق، أو أرسل في طلب العربة".

"لا، شكرا لك. تجدر بي العودة إلى المنزل. أرجو أن ترسل اعتذاري لجدك." ثم أدرتُ له ظهري وحثثتُ السير مُبتعدة. كانت عربة السيدة كالارد تقترب بالفعل من البوابات؛ لذا كان عليَّ أن

أسرع إن أردتُ رؤيتهما مرة أخرى. انصرف ذهني عن الأنظار التي جذبتها -وجوه تلتفت بحدة من فوق الأكتاف، وعيون تلاحقني على الطريق- لكني لم أنظر خلفي وأنا أمر من بينهم، وتركتهم يرتدُّون عني كقطرات البَرَد.

استقام الطريق بعد البوابات لربع ميل، وواصلت مسيري خلف العربة وسط الحقول الممتدة على الجانبين، حيث رفعت أبقار فضولية رؤوسها عند مرأى قافلة السير. رأيتُ العربة تصل إلى نهاية الطريق وتنعطف يمينا وتنطلق غربا تجاه بلومزبري. أبقيتُ عيني عليها، مُلتزمة جانب الطريق، ومُتفادية روث الأحصنة، كما ستفعل أي امرأة بعد القداس في يوم شتوي مشرق. سرتُ بخطوات عازمة، لكني شعرتُ كمن ستنفجر في أية لحظة. ركزتُ انتباهي على مواصلة السير، وتثبيت عباءتي في مكانها، وتبعتُ العربة السوداء اللامعة وهي تتقدم وسط زحمة يوم الأحد. ثم لم تمضِ بضع دقائق، حتى أبطأت حركتها وانعطفت يسارا في شارع اصطفَّ بمنازل تشابهت حد إصابة المرء بالثمالة. دختُ، وكان فمي جافا، وكنتُ متيقنة تماما أن ابنتي تجلس بُعيْد ياردات، في ثوب حريري بلون أشعة الشمس، وفي جيبها مخلوق غريب بقوقعة. لقد أرتني إياه، سرًّا في كفها، وابتسمتْ.

كانت العربة تمهد لتوقفها. لا أظننا نبعد عن فاوندلينج بأكثر من شارعين. وقفت لبرهة، وعيناي ترمشان بغباء كفأر فوق طبق عشاء، ثم استعدتُ رشدي وتحركت لأقف قبالة السور الحديدي الأسود لمنزل على الجهة الأخرى من الشارع. أحكمتُ عباءتي حولي، وأملتُ قلنسوتي على وجهي، وراقبتُ الحوذي يترجل ويقفز برشاقة

على الأرض أمام منزل ذي طوابق أربعة. أدت درجات إلى باب أمامي عريض طُلي بلون أسود. لم تفصل بين المنزل والمنازل المجاورة أي مسافات، مُنتصبين بجمود كالعساكر، كتفا بكتف، ومتشابهين حتى أنني لو أدرتُ عيني ثم أعدتهما، لما ميزتُ الفرق. أمعنتُ فيه النظر، بحثا عن شيء يميزه. كانت مصاريع نوافذ الطابق الأول بلون أحمر، ولاحظتُ شيئا غريبا في مقرعة الباب النحاسية. ركزتُ أنظاري، وتقدمتُ خطوات قدر ما تجرّأت. كانت مقرعة الباب على شكل حوت.

ظهر ثوب أخضر، ومعه المرأة التي ترتديه. كانت تولينى ظهرها، لذا لم أر منها سوى شعر ذهبي مرفوع تحت قبعة. وأدركتُ أنني كنتُ أرتجف، وتكاد ساقاي تنهاران تحتي. ثم ظهرت قدمان صغيرتان، وحاشية فستان أصفر. أمسكت تنورتها وقفزت مرة أخرى، ومع أني لم أره سوى مرة واحدة، إلا أني شعرتُ بالمعزّة والألفة نحوه حد الألم. كانت المرأة تتحرك بالفعل إلى داخل المنزل دون أن تلقي نظرة إلى الوراء؛ لم تمد يدها إلى ابنتها.

ابنتي.

قفزت الطفلة على عتبة الباب، ورأيت انحناءة عنقها الناعمة، وجدائل داكنة تنسدل من قبعتها. ألقت نظرة خاطفة إلى أول الشارع وآخره، كمن تريد تذكره في صباح ذلك اليوم الشتوي المشرق، ثم انفتح الباب الأسود، وتوارتا خلفه، وأسندتُ ظهري إلى السور، فتلمّستُ قضبانه خلفي، وشاهدتُ–بلمعة طلاء وصوت مكتوم– الباب وهو ينغلق، والمنزل وهو يتلألأ في السكون.

الجزء الثاني



ألكسندرا

الفصل السابع



في الساعة الثالثة من كل يوم أتناول الشاي في خلوة الضيوف مع أبي وأمي. وقبلها، أكون في صالوني بمؤخرة المنزل، وعندما يصل العقرب الذهبي الرفيع في ساعة رف المدفأة إلى الثالثة إلا الربع، أطوي جريدتي وأضعها على المنضدة المجاورة. وعليها يكون صحن ماء صغير ومحرمة لأزيل بقع الحبر من على يدي. أفعل ذلك بعناية فائقة، فأنزع خواتمي وأنظف كل إصبع واحدا تلو الآخر، وأدعك الأظافر حتى تلمع، مُترقبة وقع أقدام آغنس على السُّلم وصلصلة طقم الشاي. وفي الثالثة إلا دقيقة، أراجع مظهري في لوح المرآة الذي يتوسط النافذتين فأهندم شعري، وأنفض تنورتي وأمسِّد الكسرات في كمَّي سترتي. ثم أعبر فسحة السلم وأدخل.

تطل خلوة الضيوف على شارع ديفونشاير وصفُّ المنازل المقابلة في تماثل يشبه النظر في مرآة. من كل نافذة أمامية أو خلفية لا نرى سوى المزيد من المنازل، التي هي صورة من منزلنا - أربعة طوابق، في كل طابق نافذتان ونافذة واحدة في الطابق الأرضي بجانب الباب- وقريبة جدا من بعضها حتى أننا عندما انتقلنا إلى

هنا رأيتُ إبريقا خزفيا بزخارف زرقاء مُستقرا على حوض غسيل الوجه في المنزل المقابل، حيث تسكن عائلة من خمسة أفراد، أبوان وثلاثة أطفال. توقعتُ من أسلوب الزوج في ارتداء ملابسه والساعات التي قضاها خارج المنزل، أنه يعمل محاميا أو طبيبا. كانا زوجين اجتماعيين جدا، وكثيرا ما يستقبلان على مائدتهما كل أنواع الضيوف، فيستهلكون خمس أو ست أطقم شمع، وأحيانا يواصلون الجلوس من بعد الغداء وحتى يوضع العشاء في العاشرة أو الحادية عشرة. كنتُ في البداية أشعر بالغرابة، وكأننا جميعنا نعيش خلف عدسات مكبرة. لكني سرعان ما اعتدته، فوجدتُ راحة في التقارب والألفة الزائفة التي خلقها. لم أعرف جيراني، لكني راقبتهم، ولا شك أنهم أيضا راقبوني.

كان المنزل رقم ١٢ بشارع ديفونشاير واحدا من منازل أبي. وكان عرض الشارع لا يتسع سوى لعربتين صغيرتين تمر إحداهما بالأخرى، وهو ما كان يحدث باحتفال كبير، بدفاع كل حوذي عن نطاقه. وفي نهايتي الشارع ميدان كبير وجذاب يحوي أشجار دلب يافعة ومساحات خضراء واسعة حولها قامت المنازل، ينظر أحدها للآخر كما يفعل الجالسون على موائد المطاعم. لم أر بالطبع سوى واحد، وحفظتُ أماكن البقية على خرائط لندن التي صنعها السيد جون روك. كنت أعيش في أقصى أطراف لندن، حيث بعدها تقلُّ المنازل ويبدأ الريف. امتدَّت المدينة جنوبا وشرقا وغربا من شارع ديفونشاير، ولكن ليس شمالا، حيث تراجع الطوب والأسفلت أمام الحشائش والحقول. لم يكن دانيال راغبا في البداية في العيش بواحد

من منازل المدينة المتلاصقة، وشبَّهنا بخيول في ساحة إسطبل ينظر بعضها للآخر. ذكَّرته حينها أنه ما دام يرغب في العمل تاجرا فعليه أن يقيم في لندن. وبالتدريج، أغوته الحياة هنا، وكبرت تجارته، وبعد عام قال إنه يفضِّل أن يعيش بقية أيامه تاجرا لا ماركيز.

كانت آغنس تضع أواني الشاي عندما دخلت. قبَّلتُ أبي وأمي واتخذتُ مجلسي المعتاد أمامهما قرب النافذة. وإذ كنَّا في الشتاء، خفت الضوء في الغرفة، تمهيدا لقرب حلول الظلام – كانت الظلال قد أغشت وجوهنا جزئيا بالفعل. أشعلتُ شظية خشب من نار المدفأة وأضأتُ بها المصابيح قبل أن ألقيها مرة أخرى فوق الحطب المشتعل.

ثم قلت: "قريبا لن يجد حاملو المشاعل عملا كثيرا، فالليل يقصر دقيقتين كل يوم".

في ضوء الشموع، ازداد اللطف في عيني أبي الداكنتين، واختفت آثار الزمن من على بشرة أمي اللؤلؤية. صببتُ الشاي في ثلاثة فناجين وقلَّبتُ السكر في فنجاني وفنجان أبي. أما أمي فلا تضع السكر، إذ تشكو أنه يؤلم أسنانها. كانت يداي نظيفتان على الأقل – فهما لا يحبان رؤيتي أقرأ الجرائد، ولهذا أغسلهما، لكن أبي كان دائم الاهتمام بسماع أخبار النقل البحري. فأقرأ تلك الأجزاء لمجرد أن يكون في جعبتي ما أتحدث معه بشأنه. كنتُ في صغري أجلس على حجره في ثوب نومي فيما قرأ هو إعلانات الإيفنينغ بوست التي ظنَّ أنني سأجدها شيقة، مُضيِّقا عينيه مع ضوء الشموع الخافت. وهكذا تعلمتُ القراءة: ومع تدهور عينيه، صارت عيناي أكثر فائدة، وتعلمتُ كلمات مثل "شحنة" و "تأمين" و "مضاربة" بنفس الطريقة التي تعلم

أطفال آخرون "قطة" و "تفاحة" و "ولد". في مرة أو مرتين جلست جورجيت معي لتفعل ذات الشيء، لكنها سرعان ما سئمت الكلمات الطويلة والمواضيع المملة. كانت آغنس أفضل مني كثيرا في سرد القصص، وغالبا ما جلست جورجيت قرب كانون المطبخ والقط في حجرها وبسكوتة في يدها فيما فردت آغنس العجين وابتكرت الحكايات. كنتُ أحيانا أقف خلف باب المطبخ، لأستمع أنا أيضا.

"هل سمعتما عن الجسر الجديد في بلاكفريارس؟" هكذا سألتهما. " لا أعرف لماذا نحتاج إلى ثلاثة بطول النهر. إن واحدا يكفي بلا شك."

كانت ابتسامة أمي رائقة. وكان والدي ودودا. أصبحتُ أكبر منهما سنًّا الآن. كانت فكرة عجيبة. أمضينا نصف ساعة في دردشة فارغة، وحالما أنهيتُ فنجاني، أغلقتُ علبة السكر وأطفأتُ المصابيح، لأن الغرفة ستظل شاغرة حتى نفس الموعد غدا. وقبل أن أغادر، مسحتُ إطاري صورتيهما بالمحرمة التي أحتفظ بها في كم ثوبي: أبي أولا، في الكوة اليسرى من المدفأة، وأمي في الكوة اليمنى.

كانت جورجيت واقفة في فسحة السلم عندما أغلقتُ الباب بهدوء خلفي. نادرا ما سمعتُ وقع أقدامها الخافت على السجاد، وقد أجفلتني كثيرا، ما دفعني إلى توبيخها.

"مع من كنتِ تتحدثين؟" سألتْ، ليس لأول مرة.

"لا أحد،" أجبتُ، وأنا أعرف أنها ليست آخر مرة. كانت أحيانا تذهب إلى الغرفة من بعدي وتدير بصرها في المكان، وتقرفص لتنظر أسفل الصوان، وخلف الستائر وذات مرة اعتلت

حتى صدر المدخنة. كان فضولها بلا حدود؛ ملأ المنزل، فضغط على النوافذ وأغرق الغرف، وتخلل الشقوق والزوايا والأدراج والخزائن، ولن يلبث أن يفيض كله. سيأتي يوم تصبح فيه الأشياء التي اشتريتها لتسليتها -آلات العزف والحيوانات الأليفة والكتب والدمى والنزهة الأسبوعية (خمس دقائق في العربة، وساعة في المُصلّى، ثم خمس دقائق في العودة)- غير كافية. كنتُ أعرف أنها في مرحلة ما سترغب في الإحساس بالشمس على وجهها والمشي في حديقة وسط الغرباء كأي شخص عادي، وخشيتُ ذلك. لكنها حتى الآن، تعرف أننا نعيش بهذا النمط لنحافظ على سلامتنا.

تأكدتُ من جميع الأقفال في ذهني مُستعينة بأصابعي في عدِّهم. بالمنزل ثلاثة أبواب -رئيسي ومطبخ وقبو- وستة عشر نافذة مُحكمة الغلق في كل الأوقات. لم يكن منزلي المتواضع قصرا، لكنه احتوى غرفتين على الأقل في كل طابق - المطبخ ومُلحق الغسيل مع غرف المؤونة والمخزن في القبو، غرفة الطعام وغرفة مكتب دانيال سابقا في الطابق الأرضي، صالوني وخلوة الضيوف في الطابق الأول، ثم غرف النوم في الطوابق العليا. نامت جورجيت في الحجرة المقابلة لحجرتي، أما آغنس خادمتي، وماريا الطاهية ومدبرة المنزل، فنامتا في السقيفة. وحلَّ مكان الحديقة فناء صغير، يحيطه سور من الطوب بارتفاع خمسة أو ستة أقدام تقريبا، وفيه نشرت آغنس الغسيل وتسلمت ماريا البضائع في الزقاق الضيق، الذي تصل إليه من ممر على جانب منزل رقم ١٠. ومن بعد الزقاق تُرى خلفيات منازل شارع غلوستر، التي هي صورة من منزلي خلا مبانيها المُلحقة وستائر نوافذها. كانت شقيقتي أمبروسيا تقترح دائما أنني سأجد راحة أكبر

في الريف، في منزل له بوابات وممر عربات طويل. لكنها لم تكن تحمل أي ذكريات عن حياتنا القديمة. لم تعرف ماذا يعني أن يرقد المرء دون نوم مُنصتا إلى صوت الرياح وهي تنقض على النوافذ، وتزمجر رغبة في الدخول. كان منزلنا في مقاطعة بيك يُشعرني بأننا على حافة العالم. والظلام حالك جدا حتى ليكاد المرء يلمسه. والصمت المقلق. لم تعرف لندن هذا ولا ذاك. وهكذا أحببتها.

تردد صدى مطرقة الباب في أرجاء المنزل، وصعدت آغنس سلم القبو بخطوات متثاقلة لإجابته فيما انتظرتُ عند منعطف الدَّرج بعيدا عن الأنظار. اتضح أنها أمبروسيا، التي أعلنت حضورها بصوت عالٍ وقطَّرت المطر في كل أنحاء الردهة، جالبة معها الهواء البارد. كانت الليلة رهيبة، وقد زارتني منذ يومين فحسب، لذا لم أتوقع مجيئها. كانت تأتي لرؤيتي مرة في الأسبوع، فتحضر أطفالها أحيانا، وتحضر كلبها أحيانا أكثر. أما الليلة فلم تحضر هذا ولا ذاك، إذ كانت الشوارع قد أظلمت بالفعل والطقس سيئ. ما فاجئني أكثر هو رؤية ما كانت ترتديه.

"ماذا لديكِ؟"

كانت شقيقتي، حسب تعريف المجلات، امرأة حسناء. كانت جسيمة، وفاض كل شيء منها كما تفيض الشمبانيا من طبق مسطح: ثدياها، وضحكتها. كانت صاخبة كبائعة سمك، وتدخن كقبطان سفينة وتشرب خمرا يفوق أي رجل. في الثالثة والثلاثين، تكون المرأة قد خلفت وراءها أفضل سنوات العمر، ولكن ليس أختي: لا أعرف كيف

لم تزدد إلا سحرا. كانت هي وزوجها جورج كامبل كلارك مُتساهلين ونرجسيين ومبذرين لأقصى حد، وكنتُ مولعة جدا بهما. يعيشان في منزل كبير بميدان سانت جيمس، عندما لا يذهبان إلى جميع النوادي وغرف الاستقبال العصرية للأثرياء والمشاهير، فيعودان أكثر الوقت في السادسة أو السابعة صباحا حيث يصعدان الدَّرج إلى غرفة نومهما في الوقت الذي يهبطه خدمهم ليبدؤوا اليوم.

نزعت قلنسوتها القطنية من على رأسها وعصرتها على الأرضية الحجرية. "آغنس، أخشى أننا ربما نحتاج إلى معصرة الغسيل،" أعلنت بصوتها الرتيب.

قلتُ: "معطفكِ..."

"إنه لجورج، أجل. إنها ليلة مريعة ولم أرغب في إفساد ملابسي." كان معطفا رماديا وذكوريا، أنيقا ودافئا ومناسبا تماما لمطر شتوي غزير، لكنه جعلها تبدو كحصان جر.

"ولكن ربما رآكِ أحدهم. ترتدين ملابس زوجك!"

"ومن سيراني؟" قالت أمبروسيا بسخرية. "أؤكد لكِ أن الهودج الذي أجَّرته يكتم السر."

رفعتُ حاجبي تعجبا. اتخذت أمبروسيا عشَّاقا، وأوقعها ذلك أحيانا في المشاكل -ليس مع جورج، الذي كان لا يقل عنها فجورا- ولكن مع زوجات عشاقها وخليلاتهم. كانت تحب أن تسليني بمغامراتها في صالوني، حتى مع وجود أبنائها. كان ولداها وبنتاها مخلوقات شاحبة الوجه ومُحبِطة، أشبه بي من أمهم. بإمكان واحدة فقط من مآثرها أن تسليني لأسبوع؛ وعندما تغادر، فقد يدهشني ألا أرى سيجارا مشتعلا

في منفضة سجائر، أو جوربا يبرز من أحد قطع الأثاث. كنت أسمع عن قاعات الرقص والحفلات في قصور ساحتي جروسفينور وكافنديش، لكني جهلتُ الأماكن نفسها كجهلي بالناصرة والقدس، رغم تجسدها بالكامل في ذهني، وعلى خريطة السيد جون روك بالطبع. كنتُ قد رأيت شيئا من العالم منذ زمن طويل، وبوسعي أن أسترجع بسهولة السجاد العريض، والستائر المزخرفة والأطباق الفضية المتداولة تحت الثريات المتلألئة، والرجال بأصواتهم الجهورة ورائحة أفواههم الكريهة والنساء بمساحيق تجميلهن وقطرات العرق على شفاههن وآباطهن. رأيتُ منه ما يكفيني لبقية حياتي.

سألت: "فلمَ أتيتِ؟"

"آغنس." تحدثت أمبروسيا إلى خادمتي، التي أربكها التعامل مع المعطف الضخم. "إن وجدتُ فطيرة ساخنة بالزبدة وكأسا من الشيري في متناول يدي، فلن أشتكي."

"أمركِ، يا سيدتي." ابتهجت آغنس. كانت أمبروسيا دائما ضيفة مرحَّبا بها في شارع ديفونشاير -قطة وسط الحمائم- ووفَّرت للخادمتين كل المتعة التي قد يمنحها مشهد من نافذة عربة. "سوف أعلق لكِ هذا أمام نار المطبخ، يا سيدتي، ليجف."

"أنتِ ملاك. آه، وهلا أصلحتِ شأن هذه؟ وإن كان هذا بعيدا عن الرحمة بها." ثم ناولت آغنس القلنسوة القطنية، والتي عندما نزعتها عن رأسها لم يختلف مظهرها عن فوطة صحون. وتحت معطف جورج ارتدت ما عهدته من أثوابها الفاخرة: فستان بطراز فرنسي بلون رمادي فاتح، وتنورته بنفسجية بدرجة الغيوم الكثيفة.

صعدنا إلى صالوني، حيث المصابيح مضاءة ونار المدفأة مشتعلة. استقر عدد من صحيفة لندن كرونيكال مطويًا على المنضدة بجانب الصحن الصغير الذي استخدمته لغسل يدي، وقيّمت أمبروسيا الترتيب بابتسامة لاهية. ثم اتجهت مباشرة إلى لوح المرآة ونظرت فيه.

"مرحى، مرحى." تحدثت إلى صورتها في المرآة. "ألستُ الليلة ربة إلهام حقيقية؟"

كان الصالون مكاني المفضل في ليالي الشتاء. بستائره المُسدلة ونار مدفأته المشتعلة، كان دافئا مثل عش. أحضرت آغنس طبق فطائر ساخنة بالزبدة ودورقا من نبيذ الشيري مع كأسين، فصببتُ لنا مقدارين متساويين وراقبتُ أمبروسيا وهي تأكل بتلذذ، وتمسح الزبدة من على ذقنها. كان أبي مفتونا بالأدب القديم، وفي اليونانية كان اسم شقيقتي يعني "طعام الآلهة". كانت تحمل ما هو أكثر من لمسة إلهية؛ إذ تمطّت في جلستها فوضعت قدميها على مقعد وأمسكت بكأس شيري في يدها، فكان يسيرا تخيل عنقود عنب مكان الكأس، وسحابة مكان الكرسي، وحجاب لصون حشمتها، التي لم تملك أيا منها. تساءلتُ فعلا ماذا كانت نية أبوينا عندما منحا رضيعة مثل هذا الاسم الشهواني - ربما كان تهكما واضحا، لكنه تحوّل إلى نبوءة.

سألتُ: "لا كلاب اليوم؟"

"كان الصغار يُلبسونه ثياب الرضيع لذا تركتهم يلعبون."

"أفترض أنكِ لم تأتِ كل هذه المسافة من سانت جيمس لتناول الفطائر؟"

"كلا، لم آتِ لهذا. جئتُ لأخبركِ أننا سنرحل غدا إلى الريف، أنا وجورج والصغار. لقد تورَّط جورج في موقف، لنقل إنه حرج، سيقتضي قيامنا برحلة قصيرة لموسم أو اثنين."

حدَّقتُ في وجهها بنظرة جاحظة فيما لعقت أصابعها. "موقف حرج ماليا أم حسّيًّا؟"

"الثاني. يتعلق الأمر بابنة فيكونت وسوء فهم في مسألة السن، نتج عنه شخص شديد الغضب، دعا جورج إلى مبارزة، من دون كل الأشياء. بغض النظر، ستُرسل الفتاة إلى أوروبا وتعود في عيد الخمسين."

تعاملت أمبروسيا مع خيانات جورج كما فعلت مع أحد أبنائها عندما يكسر مزهرية. كان أي تعامل آخر ليعتبر ازدواجية.

سألتُ، محاولة إخفاء إحباطي: "لكم من الوقت ستبقون هناك؟"

"بضعة أشهر، أظن. أخبرتُ جورج ألا حاجة لكل هذه المدة وأن الجميع سينسون الأمر خلال أسبوع، لكنه اكتشف مؤخرا ولعا بسباقات الخيل ويقول إن هناك مضمارين في الشمال الشرقي يرغب في زيارتهما." ثم تنهدت. "كنتُ لأبقى في لندن ولكني واحسرتاه، زوجته. أتفهمين؟"

"الشمال الشرقي؟" ازدردتُ لعابي. "إلى أي مدى ستذهبون شمالا؟"

"دورهام، أظن، أو دونكاستر. ربما ذكر مكانا آخر أيضا، لكني لا أحسن حفظ أسماء المقاطعات."

توجهتُ إلى خزانة كتبي وبحثتُ عن كتاب الخرائط المعنيّ.

"تقع دونكاستر في يوركشاير، ودورهام أبعد منها شمالا. هل ستمكثين إذن في محافظتين؟"

لوحتْ بإحدى يديها لامبالية، وهي تلعق الزبدة من الأخرى. "لستُ متأكدة. إن ماريا حقا تصنع أروع فطائر أكلتها في حياتي؛ حتى أني قد أسرقها منك."

"لكنكِ ستتأكدين قبل رحيلك، حتى أستطيع تتبع مسارك؟"

"أجل، بالطبع. سوف أبعث رسالة وسأكاتبكِ حال وصولي إلى هناك." وابتسمت، وكأنها بذلك حسمت الأمر.

"واستراحات الطريق؟"

"لا يسهل دائما معرفة..." نظرت أمبروسيا لي، ثم أومأت. "نعم، واستراحات الطريق."

فتحتُ كتاب خرائطي، الذي استُهلكت صفحاته تقليبا، عند مدينة سكيبتون. "أتوقع أن تنطلقوا خلال أسبوع أو عشر ليال، مع كل أمتعتكم. كيف حال الطرق المؤدية إلى الشمال في هذا الوقت من العام؟"

"إنها أفضل كثيرا الآن."

"لأن الثلج سيعطلكم. والجليد قد يكون خطيرا."

"أعرف، يا عزيزتي."

"هل تُرى تغادر عربة بريد الشمال الشرقي من مضيفة بول آند ماوث في شارع سانت مارتن لو جراند. أظن البريد يتحرك من هناك إلى إدنبرة ويورك، لذا ربما تكون دونكاستر على ذلك المسار."

"سأجتهد لمعرفة ذلك."

حدثت جلبة عند الباب فأشرق وجه أمبروسيا بابتسامة.

وقالت: "هل أسمع فأرا صغيرا يشمشم بهدوء عند الجدار؟" كانت جورجيت تقف في المدخل، وهي تلوي خصلة من شعرها وتبتسم خجلا، وتأمل بلا شك مجيء أبناء خالتها للعب. "آه، إنها أنتِ! كنتُ مخطئة. ظننتني سمعتُ مخلوقا صغيرا يبحث عن فتفوتة جبن. تعالي إلى هنا وأعطني قبلة في الحال".

أدخلني نبأ أمبروسيا في موجة من التوتر، وأوقفت إصبعي على موضع ما في ويست رايدنج. " جورجيت، لماذا لم ترتدي ثوب نومك؟"

وقفتْ مترددة عند عتبة الباب. سادت لحظة صمت، وغمزت أمبروسيا لجورجيت مُشجِّعة. وقالت: "هل حان وقت نوم الفارة الصغيرة؟"

ابتسمت الطفلة، وأمرتها أن تغلق الباب. وبنظرة خاطفة نحوي وأخرى أطول وأكثر ولعا نحو أمبروسيا، امتثلت للأمر، وبعد برهة سمعتها تركض أعلى الدرج.

تنهدتُ، مُشتتة الفكر. "أين كنا؟ آه، أجل، يوركشاير."

قالت أمبروسيا وهي تعتدل في مجلسها: "سأذهب وأمنحها قبلة قبل رحيلي".

قصدتُ المكتب لأحضر ريشة وحبرا وورقة وجلستُ على طاولة الكتابة الصغيرة أسفل النافذة. كانت تخص أمَّنا، وانتشرت فيها النُّقر مكان ريشتها التي نخرت الخشب.

قلتُ: "والآن. هل ستكون ستيفنيج برأيك هي أول محطة توقف لكِ، أم ستواصلين حتى كامبريدج؟"

***

لم يقع في الأيام القليلة التالية ما يجدر ذكره، عدا خلاف مع صبي الجزار، الذي سلَّمنا طلبية اللحم الخاصة بجيراننا وطبخنا لحم الضأن قبل ملاحظة الخطأ. حزمت شقيقتي وعائلتها أمتعتهم في العربة وانطلقوا شمالا، ووعدتني بالكتابة لكنها خلَّفتني في لندن وحيدة بالكامل. لا شك أن أشهر غياب أمبروسيا ستمرُّ بطيئة بدون زياراتها الأسبوعية. ومع انتهاء موسم أعياد الميلاد وبُعد فصل الربيع، أقبلنا على فترة رتيبة وخاملة، ومرحلة سُبات وتجديد، نعود فيها لاتباع العادات السليمة، فنقلب المراتب على جهتها الأخرى ونصلح الباروكات.

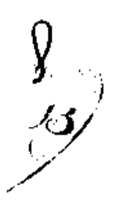
في اليوم التالي لمغادرة أمبروسيا، بدأ الثلج بتساقط. شاهدته من النوافذ الكبيرة بخلوة الضيوف في تلك الليلة الأولى لسفرها، أمي وأبي وأنا وكأس شيري، والمصابيح مُطفأة لرؤية أفضل للنُّدف وهي تتساقط في ضوء القمر، وتحطُّ بنعومة وتلتحم معا في غطاء أبيض كبير. بعد أن تأكدتُ من جميع الأبواب والنوافذ، صعدتُ لأتمنى نوما هنيئا لجورجيت ووجدتها بنفس الوضع – جالسة على كرسي أمام نافذة غرفتها، تتأمل الشارع الهادئ. كان شعرها الداكن مُرسلا على ظهرها وذراعاها تحيطان بركبتيها. راقبتها في صمت لبرهة، وقد أطَّرتها سماء الليل، ثم لاحظت أنها لا ترتدي سوى ثوب نومها.

"جورجيت، ابتعدي عن النافذة واخلدي إلى فراشك. ستلقين حتفكِ بسبب البرد".

تلقين حتفك. يا لها من عبارة سخيفة، وكأنه شخص

نصادفه. أمي وأبي ودانيال جميعهم لاقوه، وها هو ينطلق من جديد، وقريبا تصادفه روح جهولة. لم يتبقَّ لي في هذا العالم ممن أحب سوى شخصين فقط. وكان بوسعي إبقاء جورجيت قربي، أما أمبروسيا فلم تكن عصفورة تقنع بالزقزقة في قفص ما، مهما كان كبيرا وجذّابا. بل هي نمرة أو فيل مُسلٍّي. ابتسمتُ لنفسي وعبرتُ فسحة السلم الصغيرة إلى غرفتي لأبدل بملابسي ثوب النوم.

الفصل الثامن



ذاب الثلج فصار وحلا، ومع صباح الأحد صار شبيها بطبقة لامعة من دهن الأوز افترشت شارع ديفونشاير بطوله. أمضيتُ الصباح في قلق من أن تعلق فيه عجلات عربتنا، ثم ركنتُ لفكرة عدم الذهاب إلى المُصلَّى، ولذا حين توقفت العربة التي أستأجرها مرة أسبوعيا، أمام باب المنزل لتصحبنا في رحلة قصيرة إلى المُصلَّى، كنتُ في غاية الضيق. وزاد عليه أن هبطت جورجيت الدرج وهي ترتدي شملة فرو وقبعة قش في مزيج متناقض.

قلتُ بحنق: "جورجيت، نحن في شباط. لسنا ذاهبتين في نزهة إلى ساحة لامبس كوندويت."

حدقت بي وقد اتسعت عيناها الداكنتين في دهشة. وإذ لم نذهب قط في نزهة أو إلى ملاعب لامبس كوندويت، فقد حارت في فهم تعليقي، وتنهدتُ. "اخلعي قبعتك، واذهبي سريعا وابحثي عن قلنسوة أنيقة. الزرقاء، ذات الحواف العريضة. الآن!"

انصرفتْ مهرولة تنطُّ السلالم. ووقفتُ في الردهة الصامتة أوثق عباءتي عند العنق بأصابع مُتخبطة، وأقاوم الإلحاح

في مراجعة باب المطبخ لمرة أخيرة. ستستغرق جورجيت دقيقة أو اثنتين، وخلالها سيظل القلق يئز داخل عقلي كذبابة، فهرعتُ نحو السلم الخلفي ونزلتُ إلى القبو. كانت ماريا تنظف لفتًا على الطاولة الخشبية العريضة، وتدردش مع آغنس، التي تكوي بجوار الموقد، وقد لفَّت كفها بإحكام في قماش من الكتان. وبقبقت غلاية فوق الوابور. كان المطبخ هو المكان الوحيد التي أُلفيت فيه سلطتي. لم أعرف ترتيب الأطباق المحفوظة في الخزائن العلوية، أو متى تأتي بائعة الحليب. كانت له كل مقومات شركة صغيرة، شركة لم يكن لي فيها دور، بخلاف مرة في الأسبوع تُريني فيها ماريا قائمة المصروفات، وأدفعها.

ذهبتُ مباشرة إلى الباب الخلفي وجذبتُ المقبض، وانفتح الباب على الصباح البارد. سكتت ماريا وآغنس في الحال. وقفتُ في نفس الوضع لبرهة، يدي على المقبض، وأذناي تطنَّان من التوتر، وقلبي يدق بعنف، ثم استدرتُ ببطء لأنظر إليهما. انبعث هسيس خافت والمكواة توضع على قطعة القماش المثبتة على الطاولة، وتحدثت ماريا أولا. فقالت: "أنا آسفة، يا سيدتي. كنتُ أغسل اللفت وألقيتُ الماء في الفناء. كنتُ في طريقي لإغلاقه."

برز المفتاح من ثقب الباب. فأخرجته وحملته بين إصبعين. "كان بوسع أي شخص أن يدخل أثناء انشغالكما، وينسخ هذا، ثم يعود في جوف الليل ونحن نحلم في فُرُشنا." قلتها بصوت ثابت، وإن شعرتُ بالعكس. كان المفتاح النحاسي بطول سبَّابتي، وأعدته إلى القفل وأدرته مرة، اثنتين، ثلاث، شاعرة بحركة التروس المُرضية

وهي تعود إلى أوطانها. ثم وضعته في جيبي. راقبتُ آغنس وماريا في صمت مُتكدِّر، وفمين مزمومين. قلت: "سآخذ هذا معي إلى المُصلَّى".

شرعت ماريا تقول: "سيدتي، نريد استخدام-"

"وأنا أريد أن أثق بكما." حدقتُ بها عبر الطاولة الخشبية. "أحاول ذلك جاهدة".

خيَّم صمت فظيع، واختلستُ نظرة إلى رؤوس اللفت على الطاولة، فرأيتُ السكين تستقر على جنبها. وإلى يساري، هسَّت المكواة بخفوت جوار كومة من المفارش. إن الأسلحة موجودة في كل مكان، لو أنَّ المرء فقط بحث عنها. أشعرتني الفكرة بالانتهاك والتلوث، ووجدتني أتمنى من جديد لو أستطيع غسل عقلي بالقِلْي، ومحو البقع من ذكرياتي. ودون كلمة أخرى غادرتُ المطبخ لأبحث عن جورجيت، التي كانت تنتظرني عند الباب. نزلنا درجات المدخل بحرص حتى العربة، وشعرتُ بهواء الشارع لأول مرة منذ أسبوع. كان الثلج قد زاده برودة، وما لبث أن وصل إلى عنقي ووجد الثغرة التي بين قفازي وكم ثوبي. صعدت جورجيت إلى العربة وهي تمسك قلنسوتها الزرقاء، وصعدتُ من بعدها. أغلق هنري علينا الباب، وعجزتُ عن التنفس حتى أصبحنا بالداخل، وكانت الستارة الصغيرة مُسدلة. رفعت جورجيت الستارة عن الشارع، واختلست نظرة إلى مجموعة من الشابات -خادمات، في عباءات بنية بسيطة- تمشين معا بطلاقة رغم البرد.

سألت: "إلى أين تذهبن، في رأيك؟"

"جورجيت،" قلتُ، فأغلقت الستارة.

قطعنا الطريق القصير إلى المُصلَّى في صمت. شعرتُ بالعربة تنعطف في مسارها المعتاد يمينا إلى شارع جريت أورموند، ثم يسارا حتى نهاية شارع ريد ليون، ثم تنطلق نحو بوابات فاوندلينج. ساعدنا هنري في الترجل من العربة، ووقفنا برهة، وأعيننا ترمش أمام الضوء الساطع. كان هذا الوقت من العام يعني خلو ساحة المُصلَّى من أي تجمعات، فمشينا جورجيت وأنا خلف زوجين عجوزين عبر الفناء، نصف محنيَّتين في وجه الريح. طارت قلنسوة جورجيت قبل أن نصل إلى الأبواب، وانطلقت تركض وراءها، فلاحقتها بذراعين ممدودتين وهي تتدحرج فوق الأرض إلى أن قذفتها هبَّة قوية لأعلى ومباشرة إلى صدر الدكتور ميد. أمسكها بيديه الاثنتين، وهو يضحك بصفاء ويعيدها إلى جورجيت قبل أن ينزع قبعته. لم أسمع ما قاله، لكنهما سارا نحوي حيث وقفتُ عند الباب الكبير المصنوع من خشب الأرز، وقد ضمَّا قبعتيهما كما تُضم الهررة الصغيرة.

"سيدة كالارد،" قالها وهو يقترب. "إنكِ تُظهرين تحكما رائعا في غطاء شعرك. أخشى أن غطائي وغطاء الآنسة كالارد الصغيرة يتطلب مزيدا من الانضباط."

ابتسمت جورجيت ابتسامة أظهرت أسنانها.

أخبرتها: "لن يمكننا الدخول حتى تغطي رأسك،" فأقحمت شعرها داخل قلنسوتها بأسلوب غير لائق، لكن الوقت لم يحتمل قول ذلك.

أمسك لنا الدكتور ميد الباب لندخل، ولكن قبل أن يتاح لي

الإسـراع بنـا إلـى مقعدنـا المعتاد، أوقفنـي. "هل تسـمحين لـي بزيارتكِ فـي وقت لاحق من هـذا الصبـاح؟"

رمشـتُ فـي مفاجـأة. "لا تحتـاج إذنًـا للزيـارة، يـا دكتـور ميـد. نحـن نُرحبُ بك دائمـا فـي شـارع ديفونشـاير."

"يُسعدني سماع هذا. إن لم أتمكن من ملاقاتكِ بعد القداس، فأتوقع أن أصل قبل الظهر، إلَّم يكن في ذلك مقاطعة ليومك؟"

كان يعرف نمط حياتـي، لكنـه تحدث دائمـا وكأن آحادي حافلة ببطاقـات التعريـف والدعـوات. "مُطلقـا. يُسـعدني كثيـرا أن تشـاركنا غـداء الأحد."

"هذا من دواعي سروري، شكرا لكِ."

افترقنـا وذهـب كلٌّ إلـى مقعـده المعتـاد، ولـم أفكـر فـي طبيعـة زيارته أثناء القداس، ولا أثناء الترانيم، ولا أثناء رحلة العودة القصيرة بالعربـة، وحتـى الحاديـة عشـرة والنصـف، عندمـا سـمعتُ مطرقـة الباب. زارنا الدكتور ميد مرة أو نحوه كل شهر - كان صديقا لدانيال ويصغره بعامين أو ثلاثة. كان دانيال ليصبح في الخامسة والثلاثين الآن، وإن كان لم يتجاوز قط الثامنة والعشرين. لن أرى شعره يشيب، أو التجاعيد تظهر حول عينيـه، أو بطنـه تتكور بعد عقود من النبيـذ والجبـن. قدتُ الدكتور ميـد على الدَّرج إلى خلوة الضيـوف، ثم ذهبتُ إلى المطبخ. باشـرت آغنس تسخين الغلاية وجمع الصحون، وسألتُ ماريـا متـى يجهـز لحـم الحمل، فزمَّت شفتيها وقالت نصف سـاعة، ولكن دون أن تنظر في وجهي. تساءلتُ عن الذي أثار استيائها، ثم تذكرتُ وزن المفتاح عند فخذي. أخرجته ووضعته بيننا على الطاولة.

"إنَّ الدكتور ميد يعشق البطاطس المحمصة التي تصنعينها."
نظرتُ إليها حتى رفعت عينيها إلى وجهي، وهو ما فعلته بحذر مُستسلم. ثم، برؤية تعبير وجهي، زال عبوسها وسحبت المفتاح إليها.

"سأخصص له حصة إضافية إذن،" قالتها، فعرفتُ أنه قد غُفر لي.

شكرتها، وعدتُ إلى الطابق العلوي حيث جلس الدكتور ميد على مقعدي، لكني لم أمانع.

"هل أختكِ بخير؟" سألني، وأنا أتخذ مجلسي قبالته وأرتِّب تنورتي حولي.

"إنها بخير حال. غادرت إلى الشمال مع عائلتها ".

"عين العقل. إنَّ لندن رهيبة في الشتاء."

تساءلتُ إن كان سمع عن حماقة جورج مع ابنة الفيكونت، وقررتُ أنه لم يفعل. لم يكن الدكتور ميد يمنح أذنا لثرثرة المجالس، وحتى لو فعل فلن يعرف نصف من يدور حولهم الكلام. وحسب ما أعلم فهو لا يحضر المجالس من بابه، ما سبَّب إحباطا للصيَّادات من الأمهات اللاتي لهن بنات في سن الزواج، ورغبن في تقديمهن له بأناقة ولذة علبة ماكرون. لم يكن الدكتور ميد قد تزوَّج قط أو اتخذ خطيبة. بوسامته، ووظيفته المحترمة، ومنزله في بلومزبري، واتصالاته العائلية، كانت عزوبته في بعض المجالس تعدُّ أكبر فاجعة منذ فقاعة شركة ساوث سي التي أفلس بسببها الكثيرون. كان صديقا رائعا عبر السنين، وتقبَّل أسلوب حياتي دون تعليق أو تدخل. سبق له أن اقترح مرة أو مرتين، أن تمارس جورجيت بعض التريض، لكنه

تراجع عندما رفضت. كنتُ قد أخبرته في جنازة دانيال، في يوم دافئ بمنتصف نيسان، ونحن في الكنيسة أنني لن أغادر المنزل بعد الآن، وقد أوفيتُ بوعدي. لم أشعر بالأسف أثناء عودتي إلى شارع ديفونشاير في ذلك اليوم، وأنا أعرف أني لن أشعر بالشمس على وجهي ولا بالريح المنعشة على عنقي. كانت الخسارة قد خلفتني صفحة بيضاء، ولم أشعر سوى بالراحة عندما أغلقت باب المنزل خلفي، كمن يعتلي فراشه بعد يوم طويل. ثم جاءت جورجيت بعدها بوقت قصير، ومرت ثلاث سنوات من العزلة بسلاسة. ربيتها في هدوء وسلامة، إلى أن جاء صيف كانت فيه بالثالثة من عمرها، وكان المنزل حارًّا وخانقا، وبكت لثلاثة أيام متواصلة، حتى كدتُ أفقد صوابي وأصاب باليأس. فأرسلتُ خطابا باكيا إلى أمبروسيا، التي جاءت من فورها وأخذتها في نزهة على الأقدام حول ساحة كوين في نهاية الشارع، وبعد عشرين دقيقة عادت طفلة أخرى. أقنعتني رحلتهما القصيرة أن تغيير الأجواء لمرة في الأسبوع هو ضرورة لصحة الصغيرة، إن لم يكن لصحة عقلي، واقترحت أمبروسيا المُصلَّى الجديد في ملجأ فاوندلينج، على بعد ثلاثة شوارع فقط. كان دانيال قد دُفن قريبا في كاتدرائية سانت جورج، لذا كنتُ أعرف المكان، فوافقتُ أسرع مما توقعت. وفي صباح يوم أحد مشرق من نيسان، أتت لاصطحابي في عربتها، وارتديتُ معطف خروج وقبعة وخرجت إلى الشارع لأول مرة منذ ثلاث سنوات. شعرتُ حينها بالدوار الشديد من أثر التوتر حتى أني لا أذكر سوى تشبثي بيد جورجيت وكأنها هي أمي، وتشبثها هي بيدي، والعودة إلى إحساس القرب الغريب من أشخاص آخرين،

وحركاتهم السريعة وغير المتوقعة. كنتُ أفضّل دار عبادة هادئة وبسيطة، لكن هذا المصلَّى كان جديدا حتى ليكاد المرء يشم رائحة دهانه. كانت المقاعد مطلية بالورنيش في نظافة، وكتيبات الترانيم جديدة. وكان السقف عاليا والنوافذ تلمع. كان شبابه بلسما - لم يرَ شيئا من حزني أو حزن غيري. وجدتُ اليوم حلمًا، لكني في مساءه ذهبتُ إلى الفراش وأنا أشعر كمن عبرت محيطا وتقف بساقين مُرتجفتين فوق شاطئ بلد غريب.

ابتهج الدكتور ميد بهجة أمبروسيا لرؤيتي أخرج من المنزل، وعلَّق قائلا إنه سيصحبني إلى المسرح أيضا. فأجبتُ مازحة أن المجيء إلى الكنيسة قد استغرقني ثلاثة أعوام، لذا فإن مسرحية ستستغرق خمسة عشر، فضحك. كان كلانا يعرف أنني لن أذهب، وأنني لم أفعلها حتى مع دانيال، الذي ذهب إلى كل مكان وفعل كل شيء بدوني. لو شعر الآخرون نحوي بالشفقة، فلأنهم لم يعرفوا أن ذلك كان قراري.

سرَّني سماع آغنس عند الباب مع آنية الشاي. وضعت كل شيء على الطاولة، ومعهم طبق صغير من البسكويت الإسفنجي، ثم انحنت باحترام وغادرت الغرفة. ومدَّ الدكتور ميد يده لتناول بسكويتة.

"فلتحرص على ترك مكان للحم الحمل الذي أعدته ماريا،" قلتُ له، فتوقفت يده بالبسكويتة في منتصف الطريق إلى فمه، وبدا كصبي وبخه أبواه بصورة لم أملك معها سوى الابتسام. واصلتُ: "كانت أمي تحب البسكويت الإسفنجي. وتضعه في صندوق صغير من خشب الجوز على منضدة زينتها. وسمحت لي بتناول واحدة كل يوم

أحد قبل النوم، وهي تمشط شعري. كنتُ أحيانا، عندما تخرج هي وأبي، أتسلل إلى غرفة نومها وأسرق بسكويتة. كان لذيذا. إن ماريا تصنع بسكويتا طيبا جدا، نفس بسكويت أمي تقريبا."

أدركتُ أني نسيت نفسي بالكامل، وأني كنتُ أحدق في صورة أمي. لم يكن عسيرا تخيلها تصغي للحديث، إذ أنها اتخذت هيئة شخص مبهور بحكاية شيقة، فأشرقت عيناها وباعدت برقة بين شفتيها في تعجب. تنحنح الدكتور ميد وأكل البسكويتة بتهذيب، وهو يمسح شفتيه بفوطة طعام.

ثم قال: "قبل الغداء، أود التحدث إليكِ في مسألة بالغة... آه... الحساسية."

"أوه؟" واعتدلتُ أكثر في جلستي.

"إنها تتعلق بابنتك."

"جورجيت؟"

ابتسم، ولاحظت كسرة بسكويت في غاية الصغر على طرف شفتيه، وقاومت الرغبة في إزالتها. "وهل لديكِ غيرها؟"

تضرَّج وجهي ووضعتُ فنجاني في صحنه.

"هل فكرتِ في مربية لها؟"

تناولتُ رشفة من الشاي. "لم أفعل، في الحقيقة".

"قد يكون هذا مفيدا لها. إن بيوتا كثيرة مثل بيتك لديهم مربيات الآن."

"لكن جورجيت ليست رضيعة. تستطيع ارتداء ملابسها بنفسها والقراءة بمفردها، وهي تتناول وجباتها وتأخذ دروسها معي."

"ليست المربيات للرضع فقط. لدى شقيقتي مربية لأبنائها الثلاثة، والذي يبلغ أكبرهم الخامسة عشر. إن مربيتهم تعتني بهم، وتصحبهم في نزهات، وغيرها من الأمور." تغيرت ملامحه، وانزلق فنجانه قليلا من يده، فانسكب بعض منه. "ليست النزهات إلزامية بالطبع. بإمكانها أن تعد جورجيت لمرحلة الشباب. بإمكانها أن تقرأ معها، وتحيك معها... وكل ما تفعلنه أيتها الكائنات الجميلة لجعل المنزل دافئا."

تخيلتُ امرأة غريبة تدخل منزلي وتأكل طعامي وتنام تحت سقفي. وتستولي على ابنتي. كنا أربعة فقط لزمن طويل. إنَّ شخصا جديدا سيغير تكوين البيت بصورة لا رجع فيها.

سألني الدكتور ميد: "ألم يكن لكِ مربية وأنتِ طفلة؟"

"كلا، لم أكن بحاجة إلى واحدة."

"لابد أنكِ شعرتِ بوحدة تامة."

"مُطلقا. كان أبي وأمي معي، كما أنا الآن مع جورجيت."

وضع الدكتور ميد فنجانه برفق على الطاولة. وانتظرت أن يتحدث.

قال: "ثمة امرأة قابلتها مؤخرا في عملي. لم تُوفَّق في الحياة، وأريد مساعدتها. لا أملك لها وظيفة في منزلي لسوء الحظ – فلدي طاهية وخادمة، كما تعلمين."

"وتريد لهذه المرأة أن تصبح مربية جورجيت؟"

فكَّر قليلا فيما سيقول. "إن كان في مقدوركِ إيجاد متسع لها في منزلك، فأجل. لقد مرَّت بمحنة رهيبة لا تخطر بالبال. وآمل ألا يكون في عرض التكفل بأجرها إهانة لكِ."

"لا حاجة بك لذلك،" قلتها، وأنا أعتدل قليلا في جلستي، مُلتذعة قليلا من تلميحه أنني لن أستطيع تحمل أجر خادمة ثالثة. تكَّت الساعة، ومن الشارع أسفلنا جاء صوت عربة تفرغ صناديقا أو براميل. "هل تملك خبرة في تربية الأطفال؟"

"نعم. عملت مربية لولدين لدى عائلة في لندن."

"أين في لندن؟"

"في سبيتالفيلدز، حسب قولها، لذا ربما هم نسَّاجو حرير."

"لا تملك خبرة مع البنات إذن." حدقتُ في النوافذ المظلمة للمنزل المقابل، ورأيتُ الإبريق المزخرف. "لا توجد غرفة لها."

رمش الدكتور ميد في دهشة. "في كل هذا المنزل؟"

"لكل من آغنس وماريا غرفة منفصلة، ولا يمكنني أن أطلب منهما الآن مشاركتها."

"مربية شقيقتي تنام مع الأطفال."

غيَّرتُ وضع قدمي فوق السجاد وأسندتُ لوحي كتفي على الكرسي. لو أصبح لجورجيت مربية تنام في غرفتها، فسوف تكون بمثابة حارس - خفير. سوف تبلغني بأقل كحة، وحمَّى، وأي علة تصيبها. وإن تسلل أحد إلى المنزل... حسنا، ستحظى جورجيت بشخص معها، شخص ينبه أهل البيت ويحميها. كان يُخيَّل لي كثيرا، مع غياب الرجال في المنزل، أني أسمع ليلا خطوات على الدرج، مع أن جميع غرفنا مغلقة طبعا بالمفاتيح. شخص خامس سيعني فما إضافيا يجب إطعامه، ونفقات إضافية في دفتر الحسابات، ولكنه يعني أيضا إضافة في الآذان التي تنصت، والأعين التي ترى.

ثم قال الدكتور ميد: "اسمها إليزا سميث".

"وكم عمرها؟"

"إنها في منتصف العشرينيات."

رفعت حاجبي تعجبا. "كيف تقابلتما؟"

تململ الدكتور ميد في مقعده وصببتُ لنا فنجانين آخرين من الشاي. ثم قال: "هذا هو الجزء الحساس. فلنقل إنها مريضة".

نظرتُ إليه. "أيمكن لمربية عزباء تحمل أجر طبيب من بلومزبري؟"

"ظروفها استثنائية."

"آه." فهمت. لن يقول، بالطبع، أنها إحدى الأمهات غير المتزوجات اللاتي قابلهن في ملجأ فاوندلينج، مع مولود غير شرعي. وإن سألته فسوف يُضطَّر للكذب وإلا أعلن حقيقة مخزية. كنت أعرف منذ زمن أن مساعدة الناس جزء من طبيعته، وكأنهم طيور وقعت من أعشاشها، ووُضعت في صناديق لرعايتها بجوار التنور. نظرتُ إلى والديّ. فكان وجه أمي مشجعا، ووجه أبي يريد معرفة المزيد.

ثم طرق الباب، وسمعتُ آغنس من فسحة السلم تقول: "لقد وُضع العشاء، يا سيدتي".

قال الدكتور ميد: "كل ما أطلبه هو أن تقابليها."

نهضتُ من مقعدي فنهض بدوره، لكني عوضا عن التوجه إلى الباب، ذهبتُ لأقف أمام النافذة. لم يكن في الشارع كثيرون، وظهرت على الضوء الواهن علامات استعداده للأفول. أنهى كناس جانبا

من الشارع ثم اختفى، ودخل رجلان يرتديان معطفين أنيقين إلى منزل رقم ٤٠. كانت الستائر قد أُسدلت في رقم ٢٨، أمامنا مباشرة، صدًّا للبرد على الأرجح.

"سأقابلها إذن،" قلت، وأنا أدير رأسي عن الطريق ربع استدارة. يمكنك إحضارها إلى هنا هذا الأسبوع، في يوم يناسبني. هل أخبرتها عني؟"

"عنكِ أنتِ، يا سيدة كالارد؟"

"تعرف ما أعنيه. لن تجد الكثير من الشابات قد يرغبن في البقاء محبوسات داخل منزل متحفظ كهذا، ليلا ونهارا."

شعرتُ به يقترب مني، لكني لم أبعد عيني عن طوب المنازل المقابلة. تقلصت المسافة بيننا.

"ربما..." قالها، ثم أضاف بخفوت أكبر: "... ربما يمكنها اصطحاب جورجيت إلى الميادين والمتنزهات. كثير من المربيات ورعاياهن-"

"إنَّ جورجيت لا تغادر هذا المنزل، وعليه فهي أيضا لن تغادره. يمكنها أن تحصل على أجازة لنصف يوم شهريا. إن لاءمتها هذه الشروط، فإني أرحب بلقائها لأقرر مدى كفاءتها لهذه الوظيفة. وإن لا، فلا وظيفة. والآن، دعنا لا نتأخر عن لحم الحمل الذي أعدَّته ماريا."

الفصل التاسع



وفي صباح ضبابي بارد بعد ثلاثة أيام، انسابت عربة الدكتور ميد السوداء فوق شارع ديفونشاير وأبطأت حتى توقفت خارج المنزل. كنت أراقب من النافذة، تحجبني الستائر جزئيا. رأيتُ قبعة الطبيب تبرز من المقصورة، ومعطفه الممشوق الداكن، ثم مد يده، فتناولتها يد أصغر بلا قفازات، أعقبتها قلنسوة بيضاء، تحيط بوجه شاحب على شكل قلب رفعته صاحبته ليتأمل المنزل. تراجعتُ إلى الظل. كانت الغرفة ساكتة، ومصابيح الزيت مضاءة. لم أعرف كيف يجدر بي استقبالهما: هل أقف عند النافذة أم عند المدفأة، أم وأنا جالسة، مع كتاب في حجري ربما، أو جريدة؟ جاء قرع مطرقة الباب من الطابق الأرضي، أعقبته أصوات في الردهة. سوف تقابلها آغنس قبلي. كانت الخادمتان قد أظهرتا سرورا بفكرة توظيف مربية، وقالتا إنه اقتراح مذهل. لكني لم أعرف ما قيل بعد إغلاق باب المطبخ.

كنتُ قد أمضيت الأيام التي تلت اقتراح الدكتور ميد في حالة استغراق في الأفكار، فسهوتُ عن تناول خبزي المحمص ورقدتُ في سريري مستيقظة أثناء نوم الجميع. كان تصور فرد خامس في البيت مخيفا ومثيرا في ذات الوقت، كما أنها شابة –

مخلوق عجيب كسلحفاة جورجيت في منزلنا. ليت أمبروسيا كانت هنا معي، ولكنها من ناحية أخرى، قد امتصَّت كل الضوء والطاقة من الغرفة، ومنِّي، وصارت هي المنبع كثريًّا في السقف. كلا؛ إن هذا مما يجدر بي التعامل معه وحدي. عجزتُ عن تذكر آخر مرة زارنا فيها غريب. كان سنَّانو السكاكين وصبية الجزارين وبائعات الحليب يطرقون باب القبو باستمرار، بيد أنَّ آغنس وماريا قد تعلَّمتا ألا تُدخلا سوى أولئك المدونين في القائمة المُعلَّقة على حائط المطبخ.

سمعتُ طرقة آغنس المهذبة على باب خلوة الضيوف إعلانًا بقدوم الضيوف، وأدركت أني كنت في منتصف الطريق بين النافذة والكرسي الذي أجلس عليه عادة، ولم يعد الوقت يسمح بالاستقرار في أي منهما. فُتح الباب وأمسكته آغنس للدكتور ميد، الذي دخل أولا، وهو يُميل قبعته ويبتسم، وبعده المرأة الشابة.

قال بعذوبة: "سيدة كالارد. أقدم لكِ الآنسة سميث."

كانت متوسطة الطول -لا بالقصيرة ولا بالطويلة- داكنة الشعر والعينين، وعلى وجهها نمش متناثر. كانت يداها مشبوكتين بتوتر، وقد رفعت إحداهما إلى رقبتها، حيث رُبطت عباءتها.

قلتُ: "إنني أعرفك."

جحظت عيناها الداكنتين، وتوقفت عند عتبة الباب، متجمدة كمنحوتة خزفية لجارية، أو فتاة ريفية، مُهندمة ومكتنزة بصدرها الكبير ومعصميها النحيفين. كان شعرها بنيًّا غامقا وموَّجا عند عنقها، وكان هناك توُّرد جذَّاب في خديها.

بدأ الطبيب ميد الحديث. "أتعارفتما بالفعل؟"

"كنتِ في المُصلَّى بالأسبوع الماضي".

"أوه،" قالتها، وكان صوتها ناعما. "أجل، كنتُ هناك."

كانت أنيقة الملبس، ترتدي فستانا منقوشا بلون الكريمة وسترة سوداء بحواف مخملية. وقد أوحت الطريقة التي جذبت بها كمَّيها أنها اشترته حديثا، وإن كان مُستعملا بلا شك. كانت تنظر لي بطريقة غريبة، وتساءلتُ ماذا أخبرها عني الدكتور ميد. لا بد أنه أخبرها أني أرملة. ربما توقعتني عجوزا أو مُقعدة أو قديمة الطراز. قالت أمبروسيا ذات مرة أن عدم خروجي من المنزل خسارة كبيرة، لأن نصف رجال لندن سوف يقعون في حبي. فقلتُ ممازحة: "تعنين النصف الذي لم يقع في حبك؟" فأجابت أن الكل واقعون في حبها، إنما ليس أكثرهم مخلصين في عواطفهم.

وبعد دقيقة، أيقنتُ أن الآنسة سميث لا بد شعرت بتحديقها، لأن وجهها تضرج قليلا، زيادة على التورد الذي كان في خديها وأنفها من أثر البرد. نظرتْ إلى الأرض، ثم إلى الدكتور ميد الذي منحها ابتسامة مُشجِّعة.

"آنسة سميث، أقدم لكِ صديقتي العزيزة، السيدة كالارد."

قالت: "خاطبيني إليزا، من فضلك".

ثم شرعت تسترق النظرات إلى نواحي الغرفة، إلى صورتي أبي وأمي، ومصابيح الزيت، والزخارف، وكأنها تخمِّن ثمنها. راقبتها، وانتبهت هي إلى نظراتي، فأعادت عينيها سريعا إلى الأرض.

"إليزا؟" قلتُ أحثها، وقد تسلَّيتُ جزئيا بجرأتها.

قالت في شبه همس: "ظننتُ فقط، يا سيدتي، أن الصغيرة قد تكون هنا." كانت نبرتها قوية، ونطقتها بلهجة محليَّة.

"لا حاجة بكِ لمقابلة ابنتي إلى أن أقرر ملاءمتكِ لهذه الوظيفة."

عبرت وجهها خيبة أمل سريعة. ثم أومأت ومنحتني ابتسامة صغيرة. قادها الطبيب ميد عبر الغرفة، قاصدا دون شك تجنب أي بدايات كريهة، وتوجهتُ أنا نحو الطاولة الصغيرة وجلستُ في كرسي عالي الظهر. حذا الطبيب ميد حذوي، وسحب كرسيا آخر لإليزا، التي ترددت أمامه، ثم جلست. ساد في الغرفة صمت عميق، إلا من صوت حفيف التنانير وصرير الكراسي التي استقبلتنا في إذعان، ثم تذكرتُ أني المخوَّلة بإدارة الحديث، واعتدلتُ قليلا في جلستي، ففعلت هي مثلي. ومع جلوسنا متقاربتين، لاحظتُ انبعاث رائحة خفيفة جدا منها، رائحة سمك أو ماء بحر، إضافة إلى رائحة طقس بارد وعفونة مقززة طفيفة من سترتها.

قلت: "إليزا. أخبرني الدكتور ميد أنكِ تبحثين عن وظيفة في العمل مربية."

أومأتْ، وأدركتُ حينها أني لا أعرف ماذا أقول بعدها.

"كانت إليزا مربية لصبيين،" قالها الدكتور ميد، بفخر يوازي فخر أبٍ بابنته. تساءلتُ لبرهة إن كان يحبها، ثم قررتُ أنه أمر مُستبعد.

سألتُ: "ولماذا انقطعتِ؟"

رمشت في ارتباك، وبدت ذاهلة للحظة. ثم قالت: "لقد رحلوا. نقلوا معيشتهم إلى اسكتلندا."

"أخبرني الدكتور ميد أنهم أقاموا في سبيتالفيلدز. هل كانوا من نُسَّاج الحرير؟"

"كلا، يا سيدتي. كان السيد غيبونز - أقصد أن السيد غيبونز عازف."

"على أي آلة؟"

"الكمان."

"عازف كمان من سبيتالفيلدز" قلتها متمعّنة. "وهل تملكين خطاب تزكية؟"

"نعم." ثم مدت يدها داخل سترتها وأخرجت ورقة مطوية، فوضعتها على الطاولة التي بيننا ودفعتها نحوي ببطء وتردد. فتحتها وقرأتها سريعا. مازالت تحمل دفء جسدها.

"ولم ترغبي في الانتقال معهم إلى اسكتلندا؟"

فأجابت: "إن وطني هو لندن، يا سيدتي."

"وأين تقيمين؟"

"في آخر شارع بولتري. جوار مضيفة هوجزهيد. هل تعرفينها؟" كانت عيناها يقظتين، وظهر عليها التوتر البالغ - حيث تخشَّب كتفاها وملأت الجديَّة عينيها.

"كلا،" قلتها، بعد سكتة مقصودة.

عرفتُ أنها تكذب. وقررت ألا أتابع استجوابها، فطويتُ خطاب التزكية الزائف الذي امتلأ بالأخطاء الإملائية. لقد أحضر لي صديقي مربية حبلت بلا شك من سيدها وطُردت، ولا أظنه أدرك ذلك. إنه يعرف، بالطبع، أنها أنجبت مولودا غير شرعي،

ويعرف أني فطنتُ للأمر. ذاك ما جرى به اتفاقنا غير المنطوق يوم الأحد أثناء تناول البسكويت الإسفنجي. هل تراها كتبت الخطاب بنفسها؛ كان خط اليد لشخص متعلم، إنما بالكاد. وهو ليس خط الدكتور ميد. إضافة إلى أنه لم يكن ليمارس عليَّ خدعة كهذه. كانت خدعتها إذن، لا خدعته. عرفتُ أنني لن أكتشف الحقيقة أبدا، واعتبرتها أمرا مُخزيا، لأنني تمنيتُ لو تكلمت النساء بحرية أكبر عن هذه الأمور. ربما فعلن ذلك في المطاعم والحانات؛ لن أعرف أبدا. مثلما لن أعرف إن كان رب عمل إليزا العازف قد اغتصبها، أم كانت تحبه. ولا سأعرف شعور إنجاب طفل ثم تسليمه إلى الملجأ وأنا أعلم أني لن أراه مرة أخرى أبدا. كانت المرأة التي تجلس قبالتي قد عاشت حياة لم أتصورها – كانت أمًّا ثم لم تعد كذلك. ذاقت الحب وذاقت الفقد. كان بيننا شيء مشترك، إليزا وأنا.

تنهدتُ بعمق، وحبست هي أنفاسها. اتخذت عيناها نظرة مُسلِّمة: نظرة فيها تحفظ وكبرياء، وفيها خوف أيضا، وإن لم ترغب في إظهاره.

قلت: "كنتُ أيضا لأرفض الانتقال إلى اسكتلندا."

تجمدتْ لوهلة، ثم انفرجت شفتاها عن ابتسامة عريضة. كانت أسنانها صغيرة ومُرتَّبة. بإحدى ثنيتيها كسر طفيف، وكانت أقصر من الأخرى.

"هل تعملين حاليا؟"

"نعم، يا سيدتي."

"أين؟"

"في راج فير، عند برج لندن."

"تبيعين الملابس؟"

"نعم، يا سيدتي. أساعد صديقة. لكني أرغب في العودة إلى عملي القديم."

"وما السبب؟ إن العمل في التجارة يمنحكِ الحرية، كما أفترض؟ عائلة تعودين إليها؟ وأصدقاء تقابلينهم؟"

"إن العائد منها لا يكفي. كما أني أحب الإقامة في محل عملي، يا سيدتي".

تراجعتُ في مقعدي وتأملتها. "أفترض أن الدكتور ميد قد أخبركِ عن شكل الوظيفة؟"

أومأت الفتاة. "أجل، يا سيدتي."

"وشكل... نمط الحياة الذي أتبعه؟"

ظهر عليها عدم الفهم. "نمط الحياة؟"

"ما يتعلق بالأماكن التي نتواجد فيها جورجيت وأنا."

ظهر على جبينها عبوس بسيط، ونظرت أولا إلى الدكتور ميد، ثم إليَّ. "لا أفهم."

"أنا لا أغادر المنزل".

غمر الاستيعاب وجهها. "أوه، أجل. أعرف هذا."

"وكذلك ابنتي."

أومأت، وإن لاح الاضطراب في عينيها الداكنتين. "لا تغادرانه إلى أي مكان؟"

"فقط إلى الكنيسة في أيام الأحد. تلك هي حدود عالمنا. والتي ستكون هي بالتالي، حدود عالمكِ أيضا."

انتظرتُ رد فعلها، وبدا أنها تفكر في الأمر، فلعقت شفتيها، وعلى وجهها تحرُّق لقول شيء ما، لكنها كتمته، وردمته. أصبح وجهها هادئا وخاليا من التعابير.

ثم قالت: "فهمت. وسوف أسعد بالعيش هكذا. إنكِ تملكين منزلا جميلا ولا حاجة بكِ لمغادرته. ولماذا قد تغادرينه، ولديكِ كل ما تحتاجين؟ طعام وطباخة ومدفأة. ولا رجل في المكان. إني أراه رائعا."

وسمحت لنفسها أن تخصَّني بابتسامة صغيرة لم أملك سوى ردها.

"ألا تملكين نية للزواج في هذه الفترة؟"

"لا." قالتها بيقين، ثم كررتها وكأنها أعادت التفكير: "لا."

نظرتُ إليها بتمعن، وبادلتني النظر، وفي تلك اللحظة قررتُ أمرين: أحدهما يمكنني مباشرته في الحال، والآخر في وقت لاحق.

نهضتُ من مقعدي وهبَّ الدكتور ميد واقفا جواري.

"فلتأذنا لي،" قلتها، وتركتهما في خلوة الضيوف، وأغلقتُ الباب برفق خلفي وصعدتُ إلى الطابق العلوي.

لم تكن جورجيت في غرفة نومها. تنهدتُ وناديتها، فسمعتُ عراكا بالأعلى، حيث مبيتُ آغنس وماريا. وبعد قليل ظهر وجهها المستدير أعلى الدَّرج، تلوح عليه آثار ذنب متكاملة.

"جورجيت، انزلي إلى هنا في الحال! لقد حذرتكِ من الصعود إلى هناك."

ودون نقاش، نزلت الدَّرج بخفة وتجاوزتني مثل قطة،

فانطلقت نحو غرفتها. "يوجد شخص أريد منكِ مقابلته، ولكن إن كنتِ تسيئين التصرف، فسوف أضطر لإخبارهم أن وقاحتكِ تجاوزت الحدود اليوم."

"من يكون؟" سألتني، وقد توقفت عند المنعطف ورمقتني بنظرة فضولية.

"هل تسيئين التصرف؟"

هزت رأسها نفيا.

"أين قلنسوتكِ المنزلية؟"

رفعت كتفيها حتى أذنيها.

"اعثري على قلنسوتكِ والبسيها، ثم تعالي إلى خلوة الضيوف."

ظهر التهلل واضحا على وجهها وغابت في غرفتها. وفي خلوة الضيوف، وجدتُ الدكتور ميد وإليزا وسط محادثة سريَّة. حضرت جورجيت خلفي وبقيت متخفية في تنورتي. كانت قد ارتدت قلنسوتها على عجل، فسوَّيتُ من أمرها ودفعتها للأمام.

قلتُ: "جورجيت. تعرفين الدكتور ميد، بالطبع، وهذه صديقته، إليزا سميث."

وفي الحال، حدث أغرب شيء رأيته: إذ اقتربت جورجيت، وهي التي تحذر الغرباء، حيث لم تلتقِ بكثير منهم في عمرها الصغير، اقتربت من المرأة الشابة. ومن جانبها نزلت إليزا على ركبتيها من كرسيها. وأساريرها منفرجة عن ابتسامة –تلك الابتسامة العفوية– ومدَّت يدها إلى جورجيت. كان الفعل عفويا جدا، ودون أي تخطيط،

وشاهدتُ بدهشة معتدلة جورجيت وهي تمنحها يدها بخجل. تبادلتُ النظرات مع الدكتور ميد، وكان مُبتهجا.

همست إليزا، وقد أشرقت عيناها. "مرحبا، يا جورجيت. سررتُ بلقائك."

انهال شعر جورجيت الداكن فوق ظهرها، ولطَّخ التراب تنورتها. تمنيتُ أنها لم تعد مرة أخرى إلى التنقيب في الطابق العلوي. حدث منذ عام أو نحوه، أن وجدت آغنس تحت سرير جورجيت صندوقا يحوي أغراضا سرقتها منا جميعا - أقماع خياطة، وقصاصات ورق، وحتى فرشاة شعر ظلت ماريا تبحث عنها لشهور. ومن غرفتي أخذتْ مرآة مُصغَّرة، وزهرة مجففة مكبوسة وتذكار حب من دانيال كان قد أعطانيه منذ أعوام: قلب مصنوع من عظم الحوت، مقسوم إلى نصفين. وعقابا لها، أخذت كل لُعبها وكتبها وأغلقتُ عليهم في غرفة نومي، واضطرت هي إلى العيش بدونهم أسبوعا كاملا. فضجرت وتبرَّمت حتى شعرتُ أنه عقاب لي أيضا، وكنت في مثل سرورها عندما انتهى الأسبوع.

وجدتُ إليزا تقول: "أخبرتني والدتكِ بكل شيء عنكِ. تملكين منزلا جميلا. هل لديكِ لُعب كثيرة؟"

منحتها جورجيت إيماءة صغيرة، فتراقصت قبعتها مع حركة رأسها. كانت إليزا لا تزال تمسك بيدها. وأومأتُ إلى الدكتور ميد برغبتي في محادثته على انفراد، فنهض مرة أخرى وتبعني إلى المدفأة.

قلتُ في صوت خافت: "إنها تملك عاطفة كبيرة تجاه الأطفال. لكني أخشى أنها قد تدلل البنت، أو تجعلها ضعيفة."

"إنها تملك لمسة أنثوية طبيعية،" قالها الدكتور ميد وهو ينظر نحوها. "سوف تكون مثالا حسنا لجورجيت."

"تبدو مُتساهلة جدا معها."

"التساهل أفضل من القسوة، ألا توافقينني؟"

"ربما. وإن كانت جورجيت ليست هرة تحتاج للتربيت."

"كلا بالطبع."

وقفنا لبرهة نراقبهما. كانت جورجيت تخبرها بشيء، وهي تحرك ذراعيها دون تحفظ، وكانت إليزا تنصتُ مبهورة، وكأنها القصة الأكثر سحرا في العالم. قررتُ أن أطلع الدكتور ميد على القرار الذي اتخذته في وقت سابق.

فقلتُ: "لإليزا وظيفة هنا، إن أرادت. أنا مستعدة لتقديم هذا المعروف، باعتباري صديقتك، ما دام سيحقق المنفعة لكل منكما بالشكل الذي وصفته. لكنني أرفض سماع كلمة أخرى عن دفعك لأجرها، وسوف أجد إهانة في تكرار عرضك."

أفتر ثغر الدكتور ميد عن ابتسامة ساحرة، ووضع يدا على ذراعي وضغطه. أجفلتُ ومسحتُ فوق المكان الذي لمسني فيه، وكأنه دُنِّس، لكنه لم يبدُ مُهانا.

قال: "سيدة كالارد، إنني في غاية السرور. شكرا لكِ. لن تندمي على ذلك." ثم ازداد صوته خفوتا، وتكدرت عيناه الصافيتان. "ليت بوسعي أن أخبركِ بالمصاعب التي مرت بها".

"لا تقل شيئا." شعرتُ بحرارة في ذراعي. منذ أن مات دانيال، لم يلمسني أحد بخلاف جورجيت، وكان ذلك نادرا. وحتى

معها كنتُ أضطرب؛ لم تكن لديَّ غريزة الأمومة التي تملكها إليزا، ولا الأريحية البهيجة التي يملكها الدكتور ميد. كانت الحميمية شيئا أكابده، عوضا عن الاستمتاع به، فصارت أحد الأشياء التي بحث عنها دانيال في غيري. كنتُ أعرف أن هناك من يشبع احتياجاته، وكنتُ مسرورة بذلك. كما أن أمبروسيا أخبرتني أن هذا أمر غريزي عند الرجال كقضاء حاجتهم ليلا. لم يكن عجزي عن منح هذا الجانب من الحميمية يقلقني، أما ما شغلني حقا فهو الجانب الآخر منها والذي عجزتُ أيضا عن منحه، في حين قدمته الزوجات الأخريات بصورة طبيعية: فأخذن القبعات من أزواجهن بعد يوم عمل مرهق، ورتَّبن خصلات شعرهم، وعرفن متى احتاجوا حمامًا أو كأس براندي. أعتقد أن الناس يسمونها عاطفة. كنت أشاهد رجالا مع زوجاتهم يسيرون في شارع ديفونشاير مُتأبطي الأذرع، ويعرجون هنا وهناك، ويشيرون بأيديهم ويتبادلون الضحكات والقبلات واللمسات، فأشعر بالتخشُّب والجمود كأني واحدة من عرائس جورجيت. تلك النساء، التي منهن إليزا، تمشط الواحدة منهن شعر فتاة صغيرة وتصنع لها مقعدا من ركبتيها دون جهد، دون تفكير. وقفتُ أراقبهما، وشعرتُ، شعورا خافتا جدا، بشرخ صغير يحدث داخلي. لم أعرف هل هو حسد، أم حزن، أم ذنب، ولم أكترث بتحليله.

اعتدلتُ في وقفتي. وقلت: "جورجيت، اصعدي إلى غرفتك."

انفضَّ المشهد الصغير والرقيق، ووضعت جورجيت أصابعها على مقبض الباب، وأرسلت نظرة مترددة أخيرة إلى إليزا، كمن يودع محبوبا يسافر بحرا، ثم غادرت الغرفة. نهضت إليزا على قدميها،

وحوَّلت عينيها إليَّ. وكانتا تحترقان بالرغبة، ورأيتُ لأول مرة مدى احتياجها الشديد إلى هذا العمل. وقفنا نتبادل النظر، فيما طقطقت حوافر أحصنة في الشارع أسفلنا، ودارت عجلات العربات. تُرى هل ترَّست آغنس الباب جيدا بعد إدخالهما. حاولتُ مقاومة الإلحاح في النزول والتأكد.

سألتُ: "متى يمكنكِ الشروع في العمل؟"

وبعد أن كان جسدها مُتيبسا بشدة؛ تهدَّل كتفاها، وانفرجت أساريرها. شبكت يديها أمامها وكأنها لا تعرف ماذا تفعل بهما. "وقتما تشائين، يا سيدتي."

"سيكون عليَّ طلب سرير لغرفة جورجيت - لا يوجد مكان في غرف الخدم، لذا سيكون هذا مكان نومك. سأمنحكِ راتبا شيلنغين وستة بنسات في الأسبوع. هل يناسبكِ أسبوع من اليوم؟"

"نعم، يا سيدتي. يناسبني جدا. يناسبني جدا. شكرا لكِ."

***

حالما انصرفا وأغلقتُ الباب وترَّسته بنفسي وراجعتُ بقية الأبواب، ذهبتُ أقصد جورجيت. وكانت تجلس أمام النافذة في غرفة نومها، وتنظر منها إلى شارع ديفونشاير، وسلحفاتها في حجرها، تمد رأسها المتغضن نحو غصن بقدونس حملته لها. كانت غرفتها مربعة، وأصغر من غرفتي، بورق حائط مخطط وسرير صغير من خشب الورد ملتصق بالحائط. استقر صوان أسفل نافذة ومسند قدمين مبطَّن أسفل الأخرى، وهو الذي ركعت فوقه جورجيت لتنظر إلى الخارج.

غطت الدمى والألعاب كل الأسطح تقريبا: خيول خشبية، ودمى أطفال، وخذاريف. ينبغي أن أتوقف عن شرائها لها، إذ قريبا تتجاوز سن اللعب. ولكن ماذا بعد ذلك؟ ماذا ستفعل فتاة في العاشرة، أو الثانية عشر، أو الرابعة عشر، بخلاف عمل سباق للأحصنة فوق السجاد؟ لقد تعلمت الفرنسية، مع أنها لن تذهب إلى فرنسا. لن يرى أحدا أثوابها الجميلة، ولن يمدح ضفائرها سوى آغنس وماريا.

"هل تعجبكِ إليزا؟" تحدثتُ وأنا على الباب مكتبة سُر مَن قرأ

لم تكن قد سمعتني أدخل فانتفضت في مكانها، وراحت وجاءت كأنما ضُبطت أثناء فعل مُشين. كانت قبعتها قد اعوجَّت ثانية، وثوبها الأبيض مجعَّد ومتسخ أيضا. بدا أنها لم تسمع ما قلت، وسألتها مرة أخرى، فأضاء وجهها من الأعماق، وابتسمت وأومأت بحماس كبير. كانت أسنانها ما تزال لبنية، كصف من اللآلئ الصغيرة.

"هل تحبين أن تصبح مربيتك؟"

"ماذا تعني مربية؟"

"إنه شخص يعتني بالأطفال. سوف تعيش معنا في المنزل، وتنام هنا في غرفة نومك."

"وأين سأنام أنا؟"

"هنا معها. سنجد لها سريرا ونضعه هنا. لكن عليكِ أن تضمي ألعابك في مكان واحد، وإلا لن نجد مُتسعا لأغراضها."

بدا عليها السرور ونظرت بسعادة إلى المكان الذي سيحتله سرير إليزا في مواجهة سريرها. أما ما قالته بعدها فقد فاجئني.

"إنني أعرفها."

"ماذا قلتِ؟"

"أعرفها. إليزا."

"أجل، رأيتِها في الكنيسة."

"التقيتُ بها."

حدقتُ بها. "في الكنيسة؟"

خفضت عينيها وشرعت تلعب بحاشية فستانها. ثم قالت: "إنها تعجبني."

انبعث من الطابق السفلي صوت آغنس المجلجل على الدَّرج، وطرأ لي فجأة أن الساعة الثالثة، وأنني سأتأخر عن تناول الشاي مع أبي وأمي. لم أكن قد قرأتُ الجريدة. ولا حتى نظرتُ في كتاب خرائطي لتتبع رحلة أمبروسيا إلى الشمال. أصابني الذعر في الحال. كان النظام مهما – الروتين. لكن الأمور لن تجري كما عهدتُ لأكثر من أسبوع آخر، ثم سيبدأ ترتيب جديد. لو أطلتُ التفكير في الأمر، لغيرتُ رأيي بالكليَّة، لذا تركتُ غرفة جورجيت وأغلقتُ الباب برفق خلفي، وبعد لحظة جاء صوتها الناعم من الداخل، قاطعا أفكاري. فأسندتُ يدي على قائمتي الباب، وأرحتُ أذني على الخشب وأصغيت.

"مرحبا، يا جورجيت، تشرفتُ بلقائك،" قال صوتها الفض. انعقد حاجبي، وأصغيتُ أكثر. "اسمي إليزا، وأنا هنا لأعتني بكِ. سأمنحكِ الحب والحنان، وسألعب معكِ طوال النهار، وفي وقت الليل أيضا."

أغمضت عيني وفكرتُ في أمبروسيا. كنتُ لسبع سنوات الطفلة الوحيدة لوالدي، ويمكنني لو بذلتُ مجهودا، أن أستحضر ذكرى الوقت الذي كنتُ فيه المادة الوحيدة لعواطفهما. تمتَّعتُ بدفء

حبهما كقطة تجلس في رقعة مُشمسة، ولم أرغب في شيء آخر. جاء بيننا شقيق صبي، لكنه رحل سريعا ودون جلبة كما فعل في مجيئه، تاركا أمي في بكاء لفترة من الوقت. ثم جاءت أمبروسيا وبقيت، مُكفهرة وباكية بين ذراعي أمي. كنتُ في ذلك الوقت مذعورة، ولفترة شعرتُ أني منبوذة بصورة مُحزنة. ثم كبرت وبدأت تشبه الآدميين، وأصبحتْ جسدا دافئا في سريري. كانت تغزني بأصابع مكتنزة، مبهورة بشعري وأنفي وأسناني، ومشت ورائي مثل كلب منزلي صغير. ثم بدأت تتكلم، ونادتني "أساندر"، مع لثغة بسيطة. أحببتها وأحبَّتني، وأمام فرحة والدينا شُغفت إحدانا بالأخرى. أخذتني الشفقة على جورجيت عندما تذكرتُ أنها لن تعرف أبدا ما يعنيه وجود شقيق، وجود رفقة.

انبعث صوتها من جديد: "إليزا، هل تحبين سكرا في الشاي؟"

أبقيتُ جبيني على الباب، وأسفلي بطابقين، دقت الساعة الطويلة في الدهليز مرة، مرتين، ثلاث مرات. لم نكن قد التقينا بإليزا سوى من قليل، وها قد تحركت تروس المنزل من أماكنها بالفعل. انحرف النهار عن قضبانه، وتأخرتُ أنا عن موعد الشاي.

الفصل العاشر



"**هل** هذه كل أمتعتك؟" هكذا سألتُ، وبالطبع كانت كذلك. وصلت إليزا وليس معها سوى جوال من القماش، وحتى هذا الجوال لم يمتلئ سوى لنصفه، فبدا مثل قطة وُضعت في جراب استعدادا لإغراقها. وقد ارتكبت أول أخطائها بالفعل، عندما جاءت من الباب الرئيسي وليس من سلم القبو، وترددت آغنس على عتبة الباب قبل أن تُدخلها بسرعة. كنتُ أراقب من الدَّرج، وانتفضت آغنس مُجفلة عندما تكلمتُ من وسط العتمة. وكنتُ في طريقي إلى أعلى من المطبخ، بعد أن تبادلتُ مع ماريا بضع كلمات غاضبة بسبب طلبية اللحم الجديدة. ظلت الطاهية البليدة تلفظ نفس الجملة مرة تلو الأخرى، وتسأل هل نحتاج لمزيد من الكرشة والكبد ولحم الفخذ، حتى عيل صبري تماما في النهاية.

كان الدهليز مظلما، ولم أستطع رؤية وجه إليزا إبَّان تراجع آغنس عن الطريق. كانت تقبض على جوالها بكلتا يديها، ولم أر سوى الوميض الباهت لقلنسوتها، وحدود عباءتها الكئيبة.

"لا تأتِ من هذا الباب مرة أخرى،" كان كل ما قلته، قبل

أن أواصل طريقي أعلى الدَّرج. وكنتُ قد أصدرتُ تعليمات لآغنس أن تريها أين تنام وأين تضع أمتعتها، إلا أنني لم أكن قد وصلت إلى منتصف الدَّرج حتى وجدت جورجيت تنزل قفزا. وقفتُ في طريقها بتنورتي.

"ليس هكذا تنزل الآنسات المهذبات على الدَّرج. حتى الأطفال لا ينزلون هكذا. وحدها الكلاب من تنزل هكذا. هل أنتِ كلب؟"

تجمَّدتْ في مكانها، وقلنسوتها المنزلية معوجَّة. تنهدتْ وهندمتها، وخضعت لي دون تأفف. كان خدها مُلطخا بالتراب، وأناملها سوداء.

"هل كنتِ تطعمين ألعابكِ فحما مرة أخرى؟ آه منكِ، تتعمدين عصيان الأوامر! إن الفحم مكانه في السطل - كم مرة يجب أن أخبركِ؟ ستكون مهمة إليزا الأولى هي تنظيفكِ جيدا. إنها لم تضع أمتعتها بعد وها أنتِ تخلقين لها بالفعل عملا."

اختفى المرح من عيني جورجيت البنيتين الواسعتين. كانت ترتدي أفضل فساتينها - ثوب صغير منفوش بألوان وردية وبيضاء، تزين خصره وكميه شُرَّابات لونها عاجي. وكانت تربط شريطا حريريا حول عنقها وتنتعل خفين أنيقين بلون ذهبي. انتبهت لعينيَّ تقيِّمانها، فانعقد حاجباها في تحدٍّ. خرجت أنفاسها حارة من أنفها الصغير الغاضب الذي اتسعت فتحتاه. رفعتُ إصبعي وكأنني سألمس الشريط الأبيض حول عنقها، لكني تراجعت. كان يجدر بي أن أقول: "ما أجمل المجهود الذي بذلته من أجل إليزا." كان يجدر بي أن أقول: "تبدين جميلة." ولكني قلت: "كان الأفضل أن ترتدي الشريط الأزرق."

سمعتُ الكلمات تسقط من شفتي، وتنزل رطما عند قدمي جورجيت، قاسية وغير موفقة. وقفت إليزا بصمت خلفنا. كنتُ أعرف أنني لا أحسن التحدث مع ابنتي، وها قد شهدت ذلك. كنت أعرف أنني لا أحسن حُبَّ ابنتي، ويوما ما ستشهد ذلك. تعرفين السبب، قالها ذلك الصوت الحاقد في عقلي، الصوت الذي استخدم شفتي أحيانا كمنفذ للخروج.

كانت جورجيت تحدق في الأرض بتعاسة، وقد لذعتها كلماتي، وكانت إليزا تقف في الردهة مُقيَّدة ومترددة بينما انتظرت آغنس تعليماتي. وفجأة وجدتني عاجزة عن مواجهتهن، أي واحدة منهن، فرفعتُ تنورتي وواصلتُ صعود الدَّرج، مُتجنبة الصالون تماما وقاصدة غرفتي. وفوق الصوان الواقع بين النافذتين كان الدورق الكريستال يتلألأ بضوء خافت. ثمة من ملأه، وأرسلتُ تنهيدة ارتياح. أغلقتُ الباب بالمفتاح ونزعت نعليَّ أولا، ثم سترتي ومشدَّاتي، فوضعتهم على الكرسي ووقفتُ منتصبة ويداي على خصري. ملتُ يمينا ويسارا، وتمطَّيتُ إلى فوق وإلى الأمام، وأخذتُ شهيقا وزفيرا. حككتُ ظهري وأزلتُ مشابك شعري. وأسدلتُ الستائر جزئيا فأصبحت الغرفة ناعمة ومعتمة. ومن المكتب في التجويف المجاور للمدفأة أخرجتُ صندوقي العزيز، فمسحتُ عنه براحتي غبارا خياليا. كان مصنوعا من خشب الأبنوس، ومنقوشا برسومات يابانية صغيرة مرصَّعة بعرق اللؤلؤ ورقائق الخيزران الذهبية. مرَّرتُ يدا على الغطاء، وبالأخرى سكبتُ من الدورق الكريستال، ثم أخذت الصندوق والكأس، وذهبت للجلوس على الأرض عند نهاية سريري، ووضعتُ كليهما على السجاد

أمامي. وضعتُ ساقا على الأخرى ودسستُ تنورتي تحتهما، ثم وضعتُ يديَّ فوق عينيَّ وتنفَّست.

أخرجت محتويات الصندوق، واحدا تلو الآخر، كمن يقطف عنبا من عنقود، ورتبتها على الأرض. ترتيبا أتقنته مع الوقت. فأتى أولا خاتم أمي وقرطاها المرصعين باللؤلؤ الذين ارتدتهم في يوم زفافها. ثم شارات أبي العسكرية، وهم ثلاث شارات نفثتُ فوقها من أنفاسي ولمَّعتها بإبهامي ووضعتها في مثلث فخور. تليهم منحوتة دانيال التي ألفها عادة في محرمة، فأزلتُ أطرافها الحريرية كما قد تفعل عاشقة لأكشف عن وجهه. وفي المنحوتة التي نُقشت على عاج أملس، صُوِّر دانيال من الجانب، فبدا وكأنَّه يلتفت تلبية لنداء شخص على شِماله. كان يرتدي باروكة رمادية وسترة حمراء، وكانت نظرته فاتنة ولعوبة ومعتدَّة، كما كانت بالضبط عندما قابلته في المطبخ الخالي بمنزل خالتي ليلا، هاربة من حفلة. وجدتُ نفسي أبتسم وأتذكر.

"لم أركِ،" قال حينها، إذ وجدني أسخن حليبا على النار. "إنكِ خفيفة كفأرة."

كان الخدم أيضا قد ذهبوا للاستمتاع بوقتهم، وكنتُ قد نزلتُ من غرفتي حافية إلا من جوربي، آملة ألا يراني أحد. تجاهلته، وضممتُ شالي حولي، وأنا أراقب القدر يسخن.

"هل أنتِ ضيفة؟" حاول مرة أخرى. "لم ألاحظكِ."

"كلا، أنا ابنة أخت،" قلتها، دون أن ألتفت نحوه.

"آه، ابنة الأخت. سمعتُ عنكِ." كان صوته قد اقترب كثيرا، ولم تعجبني فيه نبرة المعرفة المُسبقة. "تقول خالتكِ كاساندرا أنكِ

لا تحضرين حفلاتها، وتجلسين في السقيفة تحيكين نسيجا من الأحلام. هل هذا صحيح؟"

هل كان يسخر مني؟ نظرتُ إليه للمرة الأولى، فوجدته وسيما، تلك الوسامة الغندورة. كان أصغر مني، ببضعة أعوام، ويشعُّ منه شباب مُتباه. أشحتُ عنه مرة أخرى. طلب مني علبة قداح لإشعال غليونه، فأخبرته بجفاف أن نار الموقد مشتعلة بالفعل أمامنا، وأنه سيوفر على نفسه مجهود إشعال نار أخرى، فضحك، وبحث عن شظية في جرة على رف الموقد. أشعل غليونه وسحب نفسا عميقا، وكأنه ينتظر هذه اللحظة طوال الليل. وقفتُ مُتيبسة، أراقب قِدري، فيما دخَّن هو بجانبي وسألني عن اسمي.

"ألكسندرا."

"آه، أجل، أخبرتني خالتك. لقد قابلتُ شقيقتكِ أمبروسيا – شعلة نار هي، أليست كذلك؟ من يكون والدك؟"

سكتُّ، وبعد برهة قلت: "باتريك ويستون-هاليت".

قال مُتأملا: "لماذا أعرف هذا الاسم، ويستون-هاليت؟" ثم استطرد بعد برهة بتبدل في نبرة صوته ونغمة إدراك خفيضة: "أوه. أنا آسف."

بدا تعاطفه حقيقيا، فأزال جفوتي. عدتُ للنظر إليه، ورأتني عيناه الملوَّنتان، ورأت من أكون. أخبرني أن اسمه دانيال كالارد، وطلب مني البقاء معه في المطبخ الخالي لحين انتهائه من تدخين غليونه، قائلا إنه يبغض الحفلات، لكني عرفتُ أنه يدَّعي. كان في الرابعة والعشرين، وتتلمذ مؤخرا على يد تاجر خزف في لندن. كان في المراحل الأولى من تأسيس شركته الخاصة لبيع وشراء عظام

الحوت، لكنه احتاج إلى مستثمر. مُتبرع، حسب تعبيره، جاعلا الكلمة تبدو ساحرة وأجنبية. أخبرني كيف اصطادوا الحيتان وجلبوها إلى لندن وأفرغوا أحشاءها في ميناء بروثرهيث، وهناك ينتقي التجار البقايا، فيقمون على ضلع من هنا، وجمجمة من هناك. وكيف أن شحمهم يستخدم في صنع زيت المصابيح، وعظامهم في صنع المشدَّات النسائية.

أخبرني: "إنكن معشر النساء تتعاملن معه أكثر من الرجال. فتلمسن عظم الحوت في كل مرة ترتدين فيها الملابس."

تضرجتُ خجلا. كنتُ في تلك الليلة قد غادرتُ غرفتي طلبا لكوب حليب، وعدتُ إليها وقد وقعتُ في الحب. لكني كنتُ في التاسعة والعشرين من عمري. وعشتُ مع خالتي كل شبابي، ولم أذهب قط إلى المدرسة، ولا أوروبا، ولا حتى شلتنهام، التي كانت أقرب مدينة لنا. كان عالمي قد تقلَّص إلى حجم بندقة. ثم جاء دانيال إلى إحدى حفلات الخالة كاساندرا، وشقَّه إلى نصفين.

خلدتُ إلى فراشي في تلك الليلة برأس مليء بالحيتان، والسفن، والأمواج المتلاطمة، ودانيال، دانيال، دانيال.

وفي اليوم التالي، عاد لرؤيتي في منزل خالتي الرطب والبارد قبل عودته إلى لندن، وأخبرته أنه يستطيع الحصول على مالي لتجارته إن تزوجني. كنتُ وأنا فتاة، أشاهد كيف تعامل أبي مع أترابه في زيارتهم لمنزلنا، وقدمتُ عرضا لدانيال: نقيم في منزل بلومزبري، وأساعده في تأسيس تجارته. كان ينصت لي في عدم تصديق، ولم يبرد إبريق الشاي، حتى كان قد قبَّل شفتي.

كادت الخالة كاساندرا تقضي بسكتة عندما أخبرتها أنني سأتزوج من رجل قابلته بمطبخها في الليلة السابقة. كنت أعرف أنها سلَّمت بأنها لن تتخلص مني أبدا، لا سيما وقد تزوجت أمبروسيا من جورج في العام السابق، مُحكمة بذلك طبقة الغبار التي غطت فرص زواجي. حاولت كاساندرا من قبل، فجاءت بطابور من العزاب إلى منزل نوزلي بارك، ورفضتهم جميعا أمام إحباطها. كان لديَّ ورثي من والديَّ ولم أرغب في زوج. لم أفكر في الزواج أو تغيير وضعي مُطلقا، وكنتُ أيضا كبيرة في السن. ثم دخل دانيال كالارد إلى المطبخ باحثا عن شعلة، فكانت أنا.

تزوجنا في يوم شديد البرودة من كانون الثاني بعد شهر من لقائنا، وطردنا المستأجرين من منزل ديفونشاير. كان يوم الزفاف هو أول يوم أغادر فيه المنزل منذ خمسة أعوام، وكان الخوري قد وضع كرسيا أمام منبر الوعظ، ظنًّا منه أني عرجاء. أصابني الخوف من ركوب العربة، وظللتُ أرتجف طوال الطريق إلى لندن، لكن دانيال شبك أصابعه في أصابعي بإحكام. نظرتُ إلى دبلتي زواجنا بلونهما الذهبي الزاهي، وشعرتُ وكأنهما يدا شخصين آخرين.

أخرجتُ خاتمه وأدخلته في أعرض أصابعي. كان، لعجبي، ما يزال دافئا، وكأنه خلعه لتوه. حوى الصندوق الخشبي بضعة أشياء أخرى: أول سنٍّ أوقعته أمبروسيا، وجزّة من شعورنا - أنا وأمبروسيا وأمي وأبي - معصوبة بشريط، ونيشان الحداد الذي طلبتُ صنعه بعد موت دانيال، مرصّعا بلآلئ صغيرة لامرأة تفترش قاعدة شجرة وتتساقط فوقها أوراق الصفصاف. وأخيرا الشارة، برقم ٦٢٧

وقطعتان، نُقشت فوقهما أحرف أولى من أسماء، ومما صنما قلبا.

***

لاحقا عصر ذلك اليوم، قصدتُ المطبخ لأسأل آغنس وماريا إن كان يجدر بإليزا أن تأكل معي في غرفة الطعام أم معهما في المطبخ. حدقت اثنتاهما في وجهي بعدم فهم فتنهدت.

سألت: "ما العُرْف في المنازل التي تشبهنا؟"

فأجابت آغنس: "لم أعمل من قبل في منزل به مربية." وكانت في أواخر الأربعينات، وتعمل مذ كانت في العاشرة.

وقالت ماريا: "ولا أنا. كان السيد نِسْبت وزوجته مسنين عندما بدأت العمل في منزلهما، وكان أبنائهما قد كبروا وغادرو المنزل."

"مادامت ستنام مع جورجيت، فهل يأكلان معا أيضا؟ ليتني سألت الدكتور ميد."

وقفت ماريا عند الموقد المسخَّم، تقلب هريسة تفاح في قدر. "أظنُّ اللائق أن تأكل معكما،" قالتها بلا تردد. لا بد أنهما ناقشتا الأمر بالفعل. فهمت: لقد اعتادت كلتاهما مثلي على أسلوب معين في الحياة هنا، ولا ترغبان بعد كل هذه السنوات في تغيير الترتيب الذي تسير به الأشياء. كانتا مُتحفظتين. حسنا، أنا أيضا كذلك. توتَّر الجو وهما تنتظران. لم أرغب في إثارة استيائهما فيسلبهما مني منزل آخر. كنتُ لأحتمل خادمة واحدة جديدة؛ أما ثلاث خادمات فأمر يفوق طاقتي.

"ستتناول إذن طعامها معنا،" قلتها باقتناع أكبر مما شعرتُ به. راجعتُ قفل الباب من باب العادة وصعدتُ إلى غرفة جورجيت.

كانت إليزا وجورجيت تجلسان على الأرض وقد ثنت كل منهما ساقيها تحتها وأمامهما انتشرت دمى جورجيت. كان سرير ثان قد وُضع لصق الجدار الأيسر، وفُرش بملاءات بيضاء جديدة. ولا بد أن إليزا لم تستغرق أكثر من دقيقة لتفرغ حقيبتها، التي لم تكن ظاهرة للعيان. وانتبهتُ فجأة إلى أن الوحيدة في المنزل التي تعرف أين يُفترض أن تأكل إليزا هي إليزا نفسها، لكنني لم أجرؤ على سؤالها. رفعت عينيها إلى وجهي، في نظرة مُترقبة، وشبه طفولية هي أيضا. لم أكن أعرف عنها شيئا تقريبا لكنها ستعرف الكثير عني. كانت مقايضة معروفة، مع شذوذها – فبينما لا يعرف الأرباب سوى القليل جدا عن خدمهم، يعرف الخدم أربابهم معرفة دقيقة تشمل كل الجوانب تقريبا. رصدت خادمتاي أشياء كثيرة عني، ولكن ليس كل شيء. كضوء الشمس عندما يقع على فناء، تبقى دائما أجزاء منه في الظل.

قلتُ: "إليزا. سوف تتناولين عشاءكِ معنا، جورجيت وأنا، كل مساء في الخامسة."

أومأت موافقة. "شكرا لكِ، يا سيدتي."

هل يجدر بي يا ترى قول شيء آخر: أنني أتمنى أن الغرفة أعجبتها، أو أن موعد الغسيل هو الاثنين من كل أسبوع. كان نفاذ الصبر يفور من وجه جورجيت كالبخار من القِدْر – لقد قاطعتهما. فخرجتُ وأغلقت الباب خلفي. لم أكن مرغوبة في المطبخ، وها أنا

لم يعد لي مكان هنا. ثم أدركت شيئا: أننا لفترة طويلة كنا فريقين - آغنس وماريا، وجورجيت وأنا. وقد تكوَّن فريقان جديدان الآن، وصرتُ وحدي. الطفلة ومربيتها، والخادمة والطاهية، وأنا. الأم. الأرملة. ربة المنزل. كنتُ أملك أدوارا عديدة لشخص واحد، لكني نادرا ما شعرت برغبة في القيام بأي منها. لماذا فجأة صرتُ لا أعرف كيف أعيش بسلام في بيتي؟ تذكرتُ أمبروسيا وكتاب خرائطي، وحملتُ نفسي إلى الصالون لبحث مسارها.

ثم حان وقت العشاء، فاتخذتُ مجلسي المعتاد على المائدة، بين زبدية الحساء وصحن لحم مسلوق. كان الخصاص والستائر قد أسدلوا اتقاءً للبرد. ثم أقبلت إليزا وجورجيت، فاعتدلتُ قليلا في جلستي ومسَّدتُ فوطة مائدتي. كان قد مضى وقتٌ طويل منذ أن تناولتُ العشاء مع شخص غريب نسبيا. لاحظتُ أن إليزا بدَّلت ملابسها إلى ثوب أخضر بسيط أظهر ساعديها، ولاحظت هي أني أتأملها، فأشحت ببصري إلى اللحم المدهون بطبقة لامعة. لم يقل أحدنا شيئا، واتخذت جورجيت مجلسها المعتاد قبالتي، لكن إليزا لم تتحرك من مكانها عند نهاية الطاولة.

سألت ببشاشة: "هل سيأتي آخرون؟"

"عفوا؟"

"كل هذا الطعام... هل هو لنا؟"

قلت: "نعم، إنه لنا، وأحب أن آكله قبل أن يبرد، إن تفضلتِ بالجلوس." شعرتُ بتضرج وجهي، لوقاحتها في التلميح بأني أدير منزلا مُبذِّرا لابنها وليمة متواضعة. لا تُقارن بالموائد المتخمة التي

أراها من خلف نوافذ المنازل المقابلة. وفيما أتميز غيظا، غرفتُ الحساء في كل صحن من صحوننا الثلاثة. أبقت جورجيت عينيها في طبقها، ولاحظتُ احمرار أذنيها. أما عينا إليزا الداكنتين فظلتا تتنقلان فوق المائدة.

قلت: "أخبريني يا إليزا، كيف يكسب والدكِ قوت يومه؟"

راقبتني أختار ملعقة الحساء وبحثت عن نفس الملعقة عندها. "إنه سائق مركب، يا سيدتي."

"من رجال التِّيمز إذن. على أي مرفأ؟"

"تحويلة لندن".

"ماذا ينقل؟"

"أي شيء مُتاح. لكن التبغ هو بضاعته الرئيسية."

تناولتُ رشفة من حساء الكرفس. "تأتي الحمولات من الأمريكتين إذن؟"

حدقت إليزا بي. "هل تفهمين في السوق، يا سيدتي؟"

"كان زوجي الراحل من رجالات البحر."

نظرت في حساءها. "فيم كان يعمل؟"

"عظام الحوت. كان تاجرا."

ثم خيم صمتٌ تخللته الصلصلة الخافتة لملاعق الحساء فوق الأسطح الخزفية.

"متى مات إن سمحتِ لي بالسؤال؟"

اختلستُ نظرة إلى جورجيت. لم نتحدث عن والدها إلا نادرا، ولم تسأل عنه، حيث أنها لم تقابله قط.

"مات قبل أن تولد جورجيت."

"كيف؟" انبعث السؤال بنعومة، كشهقة صغيرة. لكن عينيها الداكنتين كانتا تنظران لي عبر الطاولة بدفء جعلني من توقده ألين. مسحتُ فمي بفوطة مائدتي.

قالت: "أعتذر. لا بدَّ أنكِ ترينني وقحة."

"لا أفعل." ثم قلتُ متأملة. "إنه سؤال منطقي، أليس كذلك؟ الموت مصير حتمي للجميع في النهاية. كل ما في الأمر أنه لا أحد سألني عن السيد كالارد منذ سنين." بدا وقع اسمه غريبا في فمي، وفي الغرفة، التي جلس فيها سابقا مرات لا تُحصى، على المقعد الذي احتلته جورجيت الآن. لم يتغير شيء في الغرفة -نفس الجدران بلونها الأزرق الزهري، نفس الطاولة والكراسي المصنوعة من خشب الجوز- ومع ذلك لم تعد هي نفسها بصورة ما.

حدث ذلك صباح يوم سبت من نيسان. كان يجلس أمام الفطور وقد أغلق عينيه ووضع رأسه بين يديه. خمّنتُ أنه أسرف في الشرب في الليلة السابقة. فسكبتُ له المزيد من القهوة، ودهنتُ خبزه بمربى برتقال. لم يكن مشهدا غريبا، ولم أشعر بالقلق، لذا حالما انتهيت من طعامي، أخذت جريدتي إلى الصالون. أتذكر الإعلان الذي كنت أقرأه -عن خبز زنجبيل، في مخبز بكورنيل- عندما سمعتُ صرخة آغنس، ونداءها لي. حسبتها رأت فأرا.

كان دانيال قد انهار، نصفه على الأرض، ونصفه على كرسيه، وهو يمسك برأسه بين يديه، ويئن بألم فظيع. رفعناه آغنس وماريا وأنا وحملناه بمشقة إلى الدَّرج حيث تقيأ على بسطة الطابق الأول.

ولما وصلنا إلى الطابق الثالث كان قد بدأ يتصبب عرقا، فنزعنا عنه سترته لنجد قميصه تحتها غارقا في العرق. وأمام غرفتنا، كانت عيناه تدوران في محجريهما، وأطرافه تنتفض بلا صوت في رعشات صغيرة. وفي اللحظة التي رفعناه بجهد فوق السرير، كان جليًا أنه يحتضر. ومرَّت ساعات لا أذكر عددها، لكن النهار أصبح ليلا، وتخدَّلت ساقاي من الركوع. كان الدكتور ميد في الخارج للدراسة، لذا استُدعي طبيب آخر - طبيب لا نعرفه دانيال وأنا حسن المعرفة، ولم يعالجه بالاهتمام المألوف الذي عهدناه من صديقنا. سألني إن كان دانيال قد سبقت له الشكوى من الصداع. وتذكرتُ المرات الثلاث أو الأربع في ذلك العام التي اشتدت عليه آلام رأسه حتى ألزمته فراشه طوال اليوم، بيد أنه كان يتعافى عادة بحلول المساء، فينهض في سريره ويتناول عشاءه من آنية. ربما شكَّ جزء صغير مني في خطورة الأمر، لكني لم أسمح للفكرة بالتبلور في عقلي، فصرفتها وعدتُ إلى جريدتي، مُقنعة نفسي أن الخمر هي السبب. لم أسمح -لم أستطع أن أسمح- لنفسي بتخيل خسارة شخص جديد، وظننتُ خطأً أن اتخاذ زوج أصغر سنا، سيجنبني ذلك لسنوات، وحتى لعقود. كان ينبغي أن أتذكر أن الموت كالحياة في انجذابه إلى الشباب والجمال.

أخبرتُ إليزا: "قال الطبيب أن العلَّة كانت في دماغه. اشتكى من صداع في وقت الفطور ومات في نفس الليلة."

كانت هي وجورجيت تحدقان بي، في احترام وإصغاء. أخذتُ ملعقتي وبدأتُ آكل، لكني جلبتُ الموت بالفعل إلى الغرفة، وها هو يتلكأ الآن في انصرافه كدخان سيجار. كان طيفه قد بقي في منزلنا

لزمن طويل بعد رحيل دانيال، وظللتُ أحيانا أذهب إلى غرفة جورجيت ليلا للتأكد من أنها تتنفس. وكنتُ أفعل ذلك مرتين في الساعة وهي رضيعة، حتى والمرضعة تغط في النوم بركن الغرفة. بحثت عن الأنفاس الناعمة عند أنفها الصغير، ولمستُ بشرتها الحريرية لأتأكد من دفئها. لم تكن تحذرني وهي في نومها، وسلامها بثَّ الطمأنينة في نفسي وجعلني أشعر بأني في أمان، مؤقتا. ثم بدأت تتحرك، فحَبَتْ ومشت وتدحرجت. قد تسقط من السلالم، أو تلسعها نار، أو تبلع أغراضا صغيرة: فحم، أقماع خياطة، أعقاب شمع. وضعتُ كل شيء إما تحت الحراسة وإما في مكان عال، بعيدا عن متناول أصابعها الدبقة والمكتنزة. لو كان بيدي أن أثبت وسائد على كل سطح وأطوق كل ركن، لفعلت.

قلتُ: "أخبريني، يا إليزا، هل أصيب رعاياكِ السابقون بالمرض كثيرا؟"

فأجابت: "كلا. كانا ولدين عفيَّين. أظنهما أصيبا بالزكام بين حين وآخر، إنما لا جدري أو ما شابه."

عفيَّين. هل بدت جورجيت عفيَّة، ببشرتها البيضاء الشاحبة وقوامها الصغير؟ لم تكن تملك شهية كبيرة، أو خدين متوردين وساقين مكتنزتين كالأطفال الذين أراهم في الشارع.

"هل كنتِ تخرجينهما كثيرا؟"

"كانا في الخارج طوال الوقت، يا سيدتي. لم أستطع إدخالهما قط."

"ولم تصبهما أي أمراض؟"

"كلا، يا سيدتي".

"لا سعال ديكي، أو شرَث؟"

"إطلاقا."

"طفلان صغيران في شوارع لندن ببلاعاتها وجرذانها وجيَف الحيوانات المكومة فوق بعضها. ولم تقلقي على صحتهما؟"

"كلا، يا سيدتي." كان صوتها خفيضا.

تنهدتُ وغرفتُ في طبقي كمية كبيرة من هريسة التفاح، مع أني فقدتُ شهيتي. "إن هذا يبدو لي أقرب إلى الإهمال."

أكلنا في صمت، وظننتُ الحديث انتهى، لكن الظاهر أن إليزا كانت تفكر فقط في ردها. فقالت، بفم يمتلأ بالبطاطا، ويبتلعها بتلذذ: "كثير من الناس عليهم أن يخرجوا، يا سيدتي. الأطفال لا يفعلون هذا دائما، هذا صحيح، إلا إن كانوا يشتغلون. لكن كثيرا من الناس يعيشون حياة طويلة وهم في الشوارع طوال اليوم. إن شقيقي كنَّاس شوارع." ثم تناولت ملعقة أخرى ممتلئة. "لو أن الجميع يقضون حتفهم من المرض، لكان أولهم، لكنه لم يصب حتى بالحصبة في حياته."

كنَّاس شوارع! وأب يكسب قوته من نقل التبغ بحرا. ندمتُ أني لم أسأل الدكتور ميد عن عائلة إليزا، فافترضتُ دون تفكير أن المربيات ما هنَّ إلا بنات مُنعَّمات لأصحاب متاجر أو موظفين في مكاتب محاسبة. كان جديرا بي أن أخمِّن من لهجتها المحلية، التي فاحت منها الشقق الضيقة والسرير الذي ينام فيه خمسة، ولن أنسى الرائحة الغريبة التي فاحت منها. سوف آمر آغنس بتهوية ملابسها غدا وأتحدث إلى الدكتور ميد، وأخبره – ماذا أخبره؟ أن عائلة إليزا

لم توافق طموحاتي؟ أنه قد أحضر لي فتاة سوقية، ومهما يكن ولع جورجيت بإليزا، فإنها لن تتعلم منها شيئا في الأدب والأخلاق؟ أستطيع تخيل تعبير وجهه، متأهبا وخدوما، وكيف سأبدو وأنا أتكلم: كمتعجرفة بغيضة. انتهيت من طعامي، فمسحتُ فمي، وأرجعتُ مقعدي إلى الوراء، ثم غادرتُ دون أن أقول شيئا.

كانت آغنس تضيء المصابيح في صالوني، فذهبتُ إلى خلوة الضيوف لأنظر من نافذته. كان الشارع مظلما، وكان حامل مشعل يرشد هودجا إلى واحد من المنازل المقابلة. ترجل راكبه ودفع أجرة حامل المشعل والحوذي. وضع حامل المشعل النقدية في جيبه وأطفأ مشعله، وابتلع الليل ثلاثتهم. ارتجفتُ وأسدلتُ الستائر، وقصدتُ مقعدي لأجلس عليه.

"هل تُرى ارتكبتُ خطأً،" قلتها لوالديَّ بعد صمت طويل. لم أستطع رؤية وجهيهما. كان الجو باردا مع خلو المدفأة من النيران، وكانت فكرة الانتقال إلى دفء وضوء الصالون مغرية إلا أنها بدت لي مجهودا كبيرا، وكنتُ مُتخمة بالطعام ومتعبة، لذا سمحتُ لعينيَّ أن تغلقا لبرهة.

ثم ترامى صوت عند الباب، وسمعته يُفتح ببطء شديد فوق السجاد. ثم ظهرت شمعة مُشتعلة، ألقت بضوئها الدافئ على حاملها: وجه مستدير، بوجنتين مكتنزتين وعينين داكنتين. كانت إليزا. جلستُ دون حراك في الظل، وانتظرت. أغلقتْ هي الباب برفق خلفها، وشاهدتُ اللهب ينتقل إلى الناحية الأخرى المقابلة للباب. كانت خطواتها حذرة، ولا وقع لها فوق السجاد. حركتُ رأسي

قليلا جدا وراقبتها وهي ترفع ضوء الشمعة إلى الجدران، كأنما تبحث عن شيء ما. سارت بمحيط الغرفة، ومرت خلف مقعدي ودارت حوله، حتى توقفت أمامي قبالة المدفأة. ثم وكأنها عند مفترق طرق، نظرت يسارا إلى صورة أبي، ثم يمينا إلى صورة أمي، وقررت زيارة أبي أولا، فتقدمت بخطوات صغيرة ومترددة وهي ترفع الشمعة عاليا، لتقف على بعد قدم أو قدمين منه. وإذ عاينته مميلة رأسها إلى جانب، تهدَّل كتفاها، وكأنما خاب أملها. بقيت في مكانها دقيقة أو اثنتين، وحدق كلانا به في الضوء المختلج: جبينه الوقور، وعيناه الطيبتان. ثم انتقلت إلى أمي، فسلطت الضوء على أجزاء منها -شفتاها الورديتان، خصلاتها الذهبية- ثم سلَّمتها مرة أخرى للظل. تنهدت، وانخفض لهب الشمعة، مُرسلا ضوءا واهنا فوق المكتب الموضوع أسفل صورة أمي، ومستقرا في النهاية عند خصرها. وإذ ذاك قررت أن أتكلم.

"لقد أصاب الرسَّام تصوير كل شيء عدا لون عينيها، التي كانت عسلية لا زرقاء."

قفزت إليزا مجفلة، وأطلقت صرخة أنثوية اخترقت الهدوء المخملي للغرفة. وأوقعت الشمعة فارتطمت بالأرض بصوت مكتوم وانطفأت. انحنيتُ لاستعادتها من حيث تدحرجت صوب تنورتي بنفس اللحظة التي فُتح فيها الباب، كاشفا عن قوام آغنس مظلما على خلفية فسحة السلم.

سألت: "سيدتي؟ هل هذه أنتِ؟"

فقلتُ: "آغنس، سنحتاج إلى شمعة أو اثنتين. لقد انطفأت

شمعة إليزا للأسف. ولا بد أن الشمع قد تصلب فوق السجاد؛ ولا أعرف ماذا تستخدمين لإزالته، لكني آمل أن تتم إزالته."

نظرتْ في الظلام جُزافا، ثم أومأتْ ونزلت الدَّرج. سمعتُ أنفاس إليزا -متقطعة ولاهثة- وكدتُ أسمع قلبها يدق بعنف داخل صدرها.

قالت: "سيدتي. لم أكن أعرف أنكِ هنا."

"يمكنني دخول أي مكان أختاره في منزلي. أما أنتِ في المقابل، فلستِ كذلك. قبل أن ترحلي، وهو ما ستفعلينه عاجلا، ودون تزكية، هل ترغبين في إخباري لماذا دخلتِ متسللة في الظلام إلى خلوة الضيوف بمنزلي؟"

لم تجب. عادت آغنس بشمعتين مضاءتين، وكانت حدقتاها واسعتين وفضوليتين، وتتنقلان بيني وإليزا.

"شكرا لكِ، يا آغنس. سوف آخذهما."

وضعَتْهما في يدي وأغلقتِ الباب. نهضتُ وناولتُ واحدة إلى إليزا، ورفعتُ الأخرى نحو صورة أمي.

"هذه أمي، ماريان. كانت في الرابعة والعشرين عندما رُسمت هذه اللوحة - والتي طلبها أبي هدية زفاف. لقد رأتِ الخلفية قاتمة جدا وبائسة؛ وكانت تفضِّل سُحُبا وسماء زرقاء، لكنها عوضا عن ذلك حصلت على غيوم كثيفة وأشجار مظلمة. لوحة تنبؤية، كما اتضح. وكأن الرسَّام عرف ما سيأتي".

كانت إليزا تحدق بي، فاغرة فاها، وعيناها السوداوان تلمعان.

"وهـذا أبـي، باتريـك." تحركـتُ نحـو صورتـه فـي التجويـف الأيسـر، وتبعتنـي، بلهـاء كنعجـة. "وسـيم، أليس كذلك؟ لقـد وُلـد فـي جزيـرة بربادوس بالمحيط الأطلسـي. هـل يمكنـكِ تخيل مـكان كهذا؟ كان يحكـي لـي عنهـا عندمـا كنـتُ صغيـرة: أشـجار النخيـل، والريـاح الدافئة، والشمس التي تسفع جلدكِ إن أطلتِ الجلوس تحتها. قال إن البحر كان أكثر زرقة من أي شيء قد تتخيلينه، أكثر زرقة من السماء، أو الياقوت الأزرق. لقد عجز تماما عن الشعور بالدفء في إنجلترا. كان يرتدي سترة نوم تحت كل ملابسه." ثم عدت إلى مقعدي، ومعي بركة الضوء التي صنعتها شمعتي. وقلت: "والآن، إما أن تخبريني ماذا كنتِ تفعلين بتجوالكِ في الغرفة على أطراف أصابعك، أو تخبري الدكتور ميد، لأن أول شيء سأقوم به هو الإرسال في طلب حضوره. وإذا لم تخبري أيًّا منا، فإن غفير الدرك سيمر قريبا في دوريَّته. أيًّا كان قراركِ، فسوف أعرف."

يبَّس الخوف الفتاة؛ حتى أن لهب شمعتها اهتز بتوتر، وكأنها تحكم قبضتها عليه بشدة. "سيدتي،" قالتها بصوت يكاد لا يُسمع. "لم أقصد ضررا، أقسم لكِ. كل ما في الأمر أنَّ ما قلته على مائدة العشاء عن موت زوجكِ... تساءلتُ إن كانت له صورة في أي مكان بالمنزل".

فسألت: "ولماذا قد ترغبين في رؤية صورة لزوجي؟"

"فقط لأن حكايته بدت مأساوية، يا سيدتي، إن سمحتِ لي بقول هذا. أردتُ تكوين صورة أوضح عنه في ذهني. أعتذر إن كان ما فعلته خطأً."

فكرتُ في كلامها. "وقاحة، ربما. جرأة، أكيد. هل سأحب

وجود مربية جريئة في منزلي، يا إليزا؟ هل ستحبين أنتِ ذلك؟"

فتحت فمها ثم أغلقته.

قلت: "لا أحب ذلك عن نفسي. ولا أحب تشجيع صفات كهذه في ابنتي. الفضول مسألة مختلفة، إلا في حال خروجه عن اللائق."

"أوه، إنها فضولية جدا،" قالتها إليزا، مع تبدل في نبرة صوتها. "لقد سألتني كل أنواع الأسئلة بالفعل، عن نفسي وعن لندن وعن... كل شيء، حقا."

راقبتها بتمعن. كان وجهها مضيئا من الداخل كما الخارج، بنور آخر غير اللهب المرئي.

سألتُ: "هل فعلتْ؟ وبم أخبرتها؟"

هزت منكبا. "هذا وذاك. منذ قليل أخبرتها عن معارض الحيوانات في شارع ستراند. هل زرتها من قبل؟ كلا، لم تفعلي بالطبع. آسفة. يوجد بيت بداخله فيل. وفي واحد من الخانات جملان في إسطبل."

"جمالٌ في خان؟ هل نحن في لندن أم المارستان؟"

ضحكتْ، ثم وضعت يدها على فمها سريعا. "أظن اسميهما واليس ووينيفريد. لهما رائحة بشعة. ويبصقان. لن تحبي الاقتراب منهما أكثر من عشرين ياردة."

سألتُ: "وماذا أيضا هناك؟"

"يوجد مخلوق غريب جدا. نسيت اسمه. يشبه فيلا بأرجل قصيرة. وفي وجهه قرن كبير من العظم."

"إنكِ تمزحين الآن."

"لا أمـزح، أقسـم بذلـك! رأيتـه بنفسـي. ذهبـتُ وصديقتـي. سـمعنا أنـه مـن أفريقيـا فـأرادت الذهـاب ".

"أفريقيـا، هنـا فـي لنـدن." قلتهـا، فكان وقـع الكلمـة نفسـه غنيـا وجذابـا. "أفترض أنهم يملكون مخلوقـات مختلفة هنـاك."

"يمكنـكِ دفـع سـت بنسـات والدخـول لرؤيـة الفيـل. إنه فـي نهاية درجٍ ضيق، في غرفة تطل على الشارع، وتكفي جسمه بالكاد، الشيطان المسـكين. أقدامـه مكبَّلـة بالسلاسـل، وعنقه، لكنهم لا يحيطونه سـوى بكـوخ خشـبي، ولا أظنـه يصمـد أمامـه. سيتشـقق كالفحـم كمـا قلـتُ لصديقتي. يبدو وكأنه قد يسحق ثلاثة رجال وعرباتهم اليدوية بضربة واحدة مـن خرطومـه. لـم أقترب منه كثيرا عن نفسـي. كانت صديقتي تعـرف الحـارس لـذا دخلنـا مقابل ثـلاث بنسـات لكل منـا. وأخبرنـا أنه يمكننـا الصعـود مـرة أخـرى إن كان الفيـل هادئـا، لكننـا لـم نرغب في ذلـك. بعـد أن رأيـتُ عينيـه، لـم أرغـب فـي رؤيـة المزيـد. شـعرتُ وكأني أرى روحـه. لـم أحـب النظر إليه."

"لمـاذا؟"

"كان... حزينـا. أعـرف أنـه حيـوان ولا يملـك مشـاعر، لكنـي عرفـتُ كمـا أعـرف اسـمي، أن ذلـك المخلـوق كان وحيـدا. لـم يكـن فـي المـكان الـذي ينتمـي إليـه."

وقفنـا لبرهـة فـي صمـت حاولـتُ فيـه تخيـل الوحـش ذو الجلـد الثخيـن الـذي لـم أره سـوى فـي النقـوش.

ثم قالت إليزا: "جورجيت تحب الحيوانات، أليس كذلك؟"

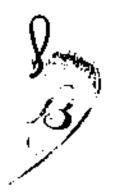
تنهـدتُ. "بلـى. لقـد دللـت قطـة المطبـخ، وسـمَّنتها، لـذا لـم

تعد تجيد سوى الاضطجاع بجوار الموقد. لديها عصفور وسلحفاة. لن أشتري لها كلبا - فلن أتحمل صوته، أو وبره، والفوضى التي يحدثونها... لا." وإذ نسيت نفسي، هززت رأسي ونهضت. "سأكتب إلى الدكتور ميد، وستذهبين لحزم أغراضك. يمكنكِ إخبار جورجيت في الصباح. هل استعدّت للنوم؟"

وكانت إليزا من الأدب حتى أظهرت ندمها. وقالت: "نعم، يا سيدتي." لكنها لم تتحرك. وقفنا نتبادل النظر، وشعرتُ أنها تملك الكثير لتقوله لكنها لم تستطع. ارتاح ضميري لأني سأطردها لسبب، سبب هو ليس مجرد تحاملي الشخصي.

قلتُ: "بيّتي الليلة، بما أن الظلام قد حلّ. لكنكِ سترحلين قبل الفطور." فتحتُ لها الباب، وتبعتها إلى داخل المنزل الصامت.

الفصل الحادي عشر



مـرّت ساعة، وكنت أجلس في الدفء المضطرم لصالوني عندما أعلنت آغنس قدوم الدكتور ميد وأدخلته، فجعلني منظر صديقي أعتدل في ذهول. كان وجهه شاحبا، وعيناه غائرتان تحتهما ظلال بنفسجية.

"دكتور ميد،" قلتها، وأنا أهبُّ إليه من فوري. "ما الخطب؟"

قال بصوت أجش: "لقد مات جدي."

وقفنا متواجهين في الغرفة الصغيرة. وتملكتني رغبة خاطفة في ضمّه بين ذراعي، رغبة سريعة وجياشة كشرارة أحدثتها جذوة، ثم انطفأت. واكتفيتُ بوضع يدي على كم معطفه الذي كان مبللا.

قلت: "لم تأخذ آغنس معطفك. تعال، دعني آخذه منك. سأطلب إحضار براندي. أم تفضل البورت؟ أم الكلاريت؟"

كان عاجزا عن الكلام، ومحزون القلب بوضوح. ساعدته في خلع معطفه وقصدتُ غرفة المكتب في الطابق السفلي، حيث حُفظت أفضل قناني النبيذ في خزانة مقفلة، وقررتُ بلا تفكير نفض الغبار عن زجاجة براندي ثمينة أرسلها زوج أختي في واحد من أعياد الميلاد المجيدة. كنت أنتظر اللحظة المناسبة لفتحها. وفي أقل من دقيقة،

عدتُ لمكاني مع الدكتور ميد في الضوء الدافئ والخافت للصالون بكأسين زجاجيين، فنزعتُ غطاء الزجاجة وصببتُ النبيذ بعجلة.

لم أستطع النظر إليه، لأن حزنه كان صريحا ومكشوفا. لم يعرف كيف يستوعبه بعد، أو ماذا يفعل به. عرفتُ ذلك الشعور جيدا.

قلت: "أنا في غاية الأسف لمُصابك. نخب جدك." قرعنا كأسينا وشربنا بعمق، وتراجع في مقعده وكأن شيئا آخر غير معطفه قد انزاح أخيرا.

سألتُ: "متى حدث الأمر؟"

"هذا الصباح." مرر يده على وجهه وأعاد خصلات شعره التي أفلتت من تحت قبعته. ثم نزع القبعة نفسها ووضعها على الأرض عند قدميه. "كان في الثمانين من عمره. سنٌّ مديدة كما يقولون. لكنها لم تعنِ سوى أننا عشنا معه أطول، وأحببناه أكثر."

"هل ينبغي أن تكون في البيت؟ أعتذر عن الإرسال في طلبك. لو كنتُ أعلم..."

"البيت،" قالها بصوت أجوف. "مع خدمي؟"

"كلا، مع عائلتك".

"جُبلت النساء على تدبر الحزن،" هكذا قال الدكتور ميد. "إن أمي مشغولة جدا في منزله، ولن يفيد وجودي سوى في تعطيلها."

كنت أعرف أن الدكتور ميد يملك قطيعا من الشقيقات، وأمٌّ هي راعية القطيع التي تهتم بهن، وتستهلكها شئونهن وشئون عائلاتهن حتى أهملت تماما ابنها الوحيد. كان والده قد مات من سنين، وظلت والدته تسكن قصر بيركلي سكوير وواظبت على جدول

مزدحم بالمواعيد، مع أنها لا بدَّ بلغت الستين. ومع هذا العدد من النساء اللاتي يحتجن للإعالة، وهذا العدد من أطفال الملجأ الذين يحتاجون للرعاية، كان أمرا يدعو للعجب أن يجد الدكتور ميد وقتا لحلاقة ذقنه.

"أنا آسفة،" هكذا قلت. "على الأقل فإن لندن مازالت تحتفظ بدكتور ميد واحد من الاثنين."

ابتسم بجهد، ومع غياب ما يُقال، احتسينا كأسين آخرين من النبيذ.

سأل بعد صمت قصير: "ما الأمر الذي طلبتني لأجله؟"

"أنا؟" كنتُ تائهة لوهلة، ثم تذكرت. إليزا. وذلك اللقاء الذي حدث في الناحية الأخرى من فسحة السلم قبل ساعة. بدا الأمر كله تافها الآن. لم أعد أثق بها، لكني لا أثق بأحد على أية حال. نظرتُ في وجه الدكتور ميد، الخدوم والطيب، وقررتُ أنني لا أستطيع إحباطه دون داع. لقد نال الرجل ما يكفي من الحزن ليوم واحد. فقلتُ: "آه. كانت جورجيت تسعل خفيفا، لكني أظنها ستعيش." تعيش! كم هو لفظ قاسٍ. "ما أعنيه هو أنها تعافت كثيرا بالفعل. حمى طفولية، رحلت بنفس السرعة التي جاءت بها."

"يسرني سماع هذا. هل تريدين مني فحصها؟"

"لا، لا. لا داعي. إنك لن تعمل الليلة."

لاح شبح ابتسامة على فمه. "ليست هذه أنتِ، يا سيدة كالارد. كنتِ في العادة تطلبين مني فحصها مع أبسط زكمة."

"ربما أزداد تغافلا بتقدم العمر."

ابتسم. "كم سنة مرَّت على معرفتنا؟"

"في الشهر الماضي نكون قد انتقلنا إلى هنا منذ أحد عشر عاما. أظنك كنتَ مازلتَ طالبا في ذلك الوقت."

"صحيح. أذكر أني فكرتُ حينها كم بدا كال ناضجا، بزواجه منكِ وتأسيس تجارته، بينما أنا ما أزال في كامبريدج."

"نسيتُ أنك كنتَ تخاطبه بهذا الاسم."

"خاطبته بأسوأ منه."

سررتُ برؤيته وقد انصرف تفكيره، وبأنني من فعل ذلك. شاهدنا نار المدفأة تطقطق وتفرقع. أُسدلت الستائر في وجه البرد، وكدتُ وأنا أجلس في مقصورتي الصغيرة، مُرخية جفنيَّ والكرسي أمامي مشغول، كدتُ أتخيل دانيال معي. كان الشيء الوحيد الذي افتقدته في الزواج هو مجالسة الذكور. إن أحاديث النساء تنحصر في شئون المنزل، كالخدم والمنسوجات. أما الرجال فتحدثوا عن السفن والتجارة والشواطئ الأجنبية. لم أستطع المشاركة، لكني أصغيتُ بافتتان عندما أحضر دانيال معارفه إلى المنزل. لقد تزوجنا لأربعة أعوام، ومع أنها كانت أقصر مرحلة في حياتي، إلا أنني تعلمت فيها أكثر من كل الأعوام التي سبقتها والتي لحقتها. أربعة فصول من شتاء، وأربعة فصول من صيف. لو كنتُ أعلم أن هذا هو كل الوقت الذي سأقضيه معه، فهل كنت سأحاول أن نخرج معا؟ نتمشَّى حول الميدان في أمسية ربيعية دافئة؟ نركب العربة إلى المسرح؟ هل كنتُ سأصعد السلالم الضيقة بشارع ستراند لأريه الفيل المكلَّل بالسلاسل؟

"سيدة كالارد؟"

جفلت. كان الدكتور ميد قد مال للأمام فقصرت المسافة بيننا، وصار جانب وجهه دافئا في ضوء النار. ظل على وضعه ولم يتحرك، وقبل أن أدير عيني عبر شيء ما الهواء بيننا.

"إن كأسك فارغة. يا لتقصيري." ملأته إلى منتصفه مرة أخرى. "أخبرني، هل ستقيمون جنازة جدك في مُصلًى فاوندلينج؟ كان شغوفا جدا بالملجأ."

"أجل، أعرف ذلك. لكنه أوصى بأن تقام في كنيسة المعبد. هل ستأتين؟"

بصعوبة بالغة هززتُ رأسي نفيا.

"بالطبع. سامحيني. سوف يكون ذلك مؤلما لكِ."

تخيلته يصعد الدَّرج إلى غرفة نومه الليلة، ويُطفئ شمعته، ويشد أغطية سريره عليه؛ وعلى الفضاء الخالي إلى جانبه. قال سابقا على سبيل المزاح أنه متزوج من عمله، لكن عمله لن يضع على ذراعه يدا حنونة، أو يحضر له قدح شوكولاتة، أو يعانقه إن هاجمه الحزن في أحلك ساعات الليل. كان إلى جانب عمله في الملجأ، يعالج الأحياء الفقيرة، فيذهب إلى المقاهي في هولبورن وسانت جايلز ويداوي من يستطيعون دفع بنس واحد للدخول. وكان أحيانا يرافقهم إلى منازلهم، غرفهم وأكواخهم الرطبة، ليفحص طفلا أو زوجة سقيمين. رفض أن يطلب منهم أجرا، لكنهم دفعوا له: دقيقا، أو شمعا – أشياء تافهة لم يستطع رفضها وإلا أهانهم. كان ذلك سلو جده أيضا، حتى بعد أن كبر سنُّه، وقد نال احتراما شديدا بسببه.

قال: "إنكِ متعَبة. شكرا لكِ على البراندي."

"لا، لستُ مُتعبة. ابقَ قليلا. احكِ لي عن جدك. احكِ لي عن دكتور ميد الآخر."

نقل كأسه من يد إلى أخرى. وتلألأ السائل عبر تعرجات الكريستال. "ما الذي تحبين معرفته؟"

"لنستهل إذن من البداية، لذا أخبرني قبل كل شيء، أين وُلد."

"وُلد في ستيبني، من دون كل الأماكن الأخرى."

"ثم جاء كل هذه المسافة إلى بلومزبري."

ابتسم. "أجل. هل تعرفين أنه عاش في إيطاليا؟ لقد حصل على شهادة جامعية من جامعة بادوفا. وكان هذا هو السبب الذي جعلني أيضا أدرس هناك. كما أنه،" تابع، وقد تحمَّس لحكاياته، "زار الملكة آن وهي على فراش الموت."

"لا أصدق."

"بل زارها فعلا! كانت تعاني في احتضارها من عطش شديد، لا يرويه أي مشروب. فأوصى لها بالعنب، وفي ثاني زيارة، وجد أطباقا من العنب في جميع أنحاء الغرفة، مئات من الأطباق."

"وكان طبيب الملك، صحيح؟"

"صحيح. وإن جازت لي الصراحة، فأنا أجد عمله في المقاهي أقوى تأثيرا من البلاط. ذلك كان المكان الذي قدم فيه أعظم أعماله. ذلك هو الرجل الذي أتمنى أن أصبح مثله."

قلت: "ذلك هو الرجل الذي أنت عليه".

صمت مُتأمل. "كان واحد من أصدقائه قد مرَّ اليوم على منزل جريت أورموند ليقدم تعازيه. يعمل كاتبا. وماذا قال؟ دعيني

أتذكر بالضبط..." ثم ضيَّق عينيه وظهر طرف لسانه بتفكر عند شفتيه. "قال لي: "لقد عاش جدك في شمس الحياة الرحبة أكثر من أي رجل تقريبا." لن أنسى كلماته طوال حياتي."

جلسنا نتفكر، وأدركتُ أن تفكيري لم يتجاوز من قبل مكان جلوسي، والكلام الذي يقال فيه. كان إحساسا غير مألوف. لا بد الآن أن ماريا تعد العشاء في المطبخ؛ وآغنس تدفأ الشراشف؛ وجورجيت توضع في فراشها بالطابق أعلانا.

ثم وكأن تفكيري فيها قد استحضرها إلى الغرفة، فقال الدكتور ميد: "كيف وجدتِ إليزا؟"

تذكرتُ خطواتها الصامتة فوق السجاد، ولهب شمعتها الفضولي. تذكرتُ فمها الممتلئ بالبطاطا، وحكاياتها عن الجِمال والفيلة. لم يمضِ على وصولها يوم لكني شعرتُ به شهرا، وكأن وجودها ملأ فراغا لم يعرف أحدنا بوجوده. قررتُ أن أبقيها في وظيفتها حاليا. من أجل صديقي.

قلت: "إنها مقبولة."

رفع حاجبيه. "مقبولة؟"

"لم يمر يوم بعد."

"آمل أنها لم تثر استياءكِ؟"

بوسعي إخباره. بوسعي إحباطه وتمزيق روحه أكثر. وضعتُ كأسي على الطاولة ولعقتُ شفتي. "إنك تعرفني جيدا الآن، يا دكتور ميد. كنتُ لأجد عيبا فيك شخصيا، لو أن علاقتنا بدأت بعملك معي."

ابتسم، وبدا مسرورا. "أعترف أنني لا أراني سأكون مربية

ممتازة." ثم فوجئتُ بما قاله بعدها. "كيف كان دانيال سيرى الأمر برأيك؟"

"لم يخطر لي هذا من قبل. ربما كان سيعلّق على غلبة عدد النساء في المنزل، لكنه في المقابل قد يجد الأمر مسليًا جدا أيضا."

"أجدني ميالا إلى الأخير."

"لأنه لم يكن لديه أشقاء. ولكن مع غياب شيء يورِّثه، لم يكترث كثيرا بالإنجاب."

قال بعطف: "لكنكِ أنجبتِ جورجيت. لم يتركْكِ وحيدة تماما. كم آسف أنه لم يقابلها قط. وكم آسف أني لم أكن موجودا."

"كنتَ مُسافرا. وكانت لديَّ شقيقتي. كانت أمبروسيا هي كل ما أحتاجه، وأحيانا أكثر من اللازم." وبعد برهة، قلت: "أنا آسفة لأنني لن أحضر الجنازة."

"لا تفكري في الأمر."

جلسنا في هدوء صاف. لم يسبق لي قط أن سألت الدكتور ميد كيف رآني لأول مرة بعد أسبوع أو أسبوعين من الزفاف. ليس مألوفا لامرأة في التاسعة والعشرين ألا تكون أرملة؛ فالنساء غير المتزوجات في مثل عمري إما أرامل أو مومسات. لم تكن بي رغبة في أن أصبح سيدة مجتمع، مطرقة بابها لا تهدأ، وتقدِّم فطائر الكاسترد ومشروب البَنش في أقداح مزخرفة، ولم أكن أعرف هل سأصبح أمًّا أم لا في تلك السن الكبيرة. لحسن حظي، لم يفكر دانيال كثيرا فيما أراده، وتقبلني كما أنا. إن أكثر العرائس تشعرن في يوم زفافهن بالحب والسعادة، بعد سنوات طويلة من

البحث عنهما. أما أنا فقد شعرت بالارتياح. كنتُ طوال حياتي أبحث عن الأمان وأخيرا وجدته.

***

اعتادت إليزا على الحياة في شارع ديفونشاير، وسار يومها كالتالي: في السادسة صباحا، تستيقظ، وتشعل النار، وتحضر الماء وتتناول الفطور. وفي السابعة، توقظ جورجيت وتحمّمها بالإسفنجة، ثم تجففها جيدا وتُلبسها ثيابها. كانت جورجيت تُحمِّم نفسها في السابق، ولكن بوسع إليزا الآن أن تفعل ذلك، وتفحصها بحثا عن أي علامات لمرض وشيك. وعندما تصبح جاهزة، تحضرها إليزا إليَّ لتناول الفطور وتعود إلى غرفة جورجيت فتفتح النوافذ وتنفض الأسرَّة وتفرغ النونيّات. تقرأ جورجيت على مسمعي لساعة ونأخذ دروسنا كالمعتاد: الحساب والفرنسية والبيانو، إضافة إلى الإيطالية مرة في الأسبوع. وأثناء انشغال جورجيت، كانت إليزا تصلح أغراضها، ثم تنضم إليها جورجيت في التطريز، والذي لم أعلمها إياه من قبل. كانت ثنتاهما تلعبان الشطرنج والكوتشينة بعد الظهر، ثم تغسل إليزا يدي جورجيت وتعدُّها للغداء، الذي يوضع فورا في الخامسة. خلال ثلاثة أيام، كانت إليزا قد صنعت محرمتين من القطن بحواش بسيطة من قميصي نوم جورجيت القديمة. وفي اليوم الخامس، ذهبنا إلى الكنيسة معا في العربة، وجلسنا في [illegible] بين [illegible] من النظرات الفضولية إلى [illegible] واحدنا. غضت إليزا بصرها بتواضع طوال الوقت، ورأيتها أكثر مهابة وخضوعا من أي

وقت مضى. غاب الدكتور ميد، ودعوتُ له بالصحة، ولجده بالرحمة.

ذات صباح، بعد أسبوع من وصول إليزا، استقر خطاب من أمبروسيا أمام مرشَّات الملح والفلفل ساعة الفطور مثل ضيف رابع. غمرتني السعادة، وأخذته إلى صالوني لأستمتع به لاحقا، وهناك غمز لي من رف المدفأة. كان يوما باردا ومُشرقا سماؤه بيضاء محددة تجثم فوق المنازل، وكنت أقرأ في جريدة جينرال آدفيرتايزر عندما قاطعني صوت عنيف فوق رأسي، وكأنه أثاث يترامى في الأرجاء. هرعتُ إلى الطابق العلوي لأجد باب غرفة جورجيت مفتوحا على مصراعيه، ومن إطاره تنانير تتطاير. كانت هي وإليزا يدا في يد، متورِّدتي الخدَّين ومبتسمتين، قد تحرَّرت شعورهما من تحت قلنسوتهما وهما تثبان على قدم ثم الأخرى وتضحكان.

طلبتُ تفسيرا: "ما هذه الجلبة؟"

اعتدلت إليزا في الحال، لكن جورجيت لم تفلت يديها. "كنا نرقص، يا ماما! إليزا تعلمني رقصة الجيغ."

انعقد لساني بالكامل.

"سوف نتوقف إن كنا نحدث ضجة كبيرة، يا سيدتي."

"بل تحدثان ضجة هائلة. ظننتُ أحدا يقطع خزانة الملابس بالمنشار ليجعل منها حطبا."

وضعتْ يدا على فمها لتخفي ضحكتها، وقهقهت جورجيت في بهجة. كان صوتا لم أعهده ينطلق منها عفويا.

"إن سمحتِ لنا، يا سيدتي، فيمكننا التمرن في الفناء."

"خارج المنزل؟ كلا، هذا لن يحدث."

"أرجوكِ، يا ماما. انظري، أكاد أتقنها." وشرعت جورجيت تتراقص في الأرجاء بحيوية، وقد اعوجَّت قبعتها وتطاير شعرها في كل اتجاه.

"لا يسعني تخيل ساعة أو مناسبة ستحتاجين فيها للرقص بهذه الطريقة. والآن توقفي عن صنع هذه الجلبة، إنكِ تزعجينني."

"إن سمحتِ لنا بالخروج فسوف نبقى حيث يمكنكِ رؤيتنا، يا سيدتي. ستكون الضوضاء التي نصنعها أقل هناك."

شرعت جورجيت تهتف: "أجل، الغناء، الغناء، الغناء!"

"كفى!" ثم تنهدتُ. "اذهبا الآن، قبل أن تسببا لي صداعا."

انطلقتا، قبل أن يتاح لي تغيير رأيي، في سباق طفولي إلى الدَّرج، وهتفتُ خلفهما أن يقفلا البوابة الخلفية. كانت غرفة جورجيت فوضى من الدمى والألعاب، بخذاريف مالت على جانبها، وقطع دومينو تبعثرت كأوراق شجر وعرائس أُلقيت على ظهورها. سأخبر إليزا لاحقا أن هذا غير مقبول. لكن ما لبثت فكرة مختلفة أن طرأت لي بعدها: هكذا أيضا كانت تبدو غرفتي وأنا طفلة، عند إشراكي أمبروسيا في ألعابي المعقدة. أصبحت لجورجيت الآن صديقة، رفيقة، لم أستطع قط أن أمنحها إياها. تنهدتُ، وأغلقتُ الباب.

لم تكن المساحة المسوَّرة خلف المنزل تزيد عن ثمانية أو تسعة ياردات طولا وأربعة عرضا، بمخزن للفحم عند حائطها القصي. تحصَّنت إليزا وجورجيت ضد البرد - إليزا في عباءتها الصوف البسيطة، وإن ظلت يداها بدون قفازات، وجورجيت في عباءتها السيرج السميكة التي ارتدتها للكنيسة. أما يداها

فكانتا مشبوكتين بموفَّة فرو، ومن عباءتها لاح حذاء جلدي برقبة للأطفال لم تلبسه إلا نادرا حتى أنه لم يحتج إلى تنظيف. راقبتُ ثنتيهما ترقصان الجيغ، محاطتين بثلاثة جدران من الطوب كأنهما خنزيران في حظيرة، وأنفاسهما تتصاعد في سحب صغيرة. ظهر قط مخطط كبير على الجدار المطل على الحارة، وأشارت جورجيت إليه في فرح. نظر إليهما القط في لامبالاة إذ ذهبتا لمشاهدته، ثم لم أدر إلا واليزا ترفع جورجيت وجورجيت تسحب يدها من موفَّتها وتمدها لتلمس القط. شعرتُ بفمي ينفتح ليصرخ فيها أن تتوقف، بيد أن زجاج النافذة حال بيننا. ولم يسعني سوى مشاهدتها تمسِّد على المخلوق السمين مرة، مرتين، قبل أن يسأم منها وينقلب من فوق السور ويبتعد عن الأنظار. ثم وكأنها أحسَّت بانتباهي، أدارت إليزا عينيها من فوق كتفها إلى المنزل ورأتني أراقب، فمنحتني نصف ابتسامة قبل أن تربض لتكلم جورجيت. أشارت إلى الأعلى وتبعت عينا جورجيت إصبعها، ولوحت كلتاهما. وبعد برهة رفعتُ يدا مترددة ردا عليهما، ولاحظتُ مدى التشابه بينهما من مسافة بعيدة، فكان لهما نفس الوجه المستدير الشاحب والشعر الداكن والحاجبين اللذين التقيا على الجبهة. وانتابني شعور غريب بالانفصام، وكأنهما غريبتان تماما. ثم أنزلتا أيديهما والتفتت إحداهما للأخرى من جديد، وتراجعتُ بحرج بعيدا عن المشهد، وأنا أشعر وكأنني كنتُ أودعهما على متن سفينة متجهة إلى ميناء بعيد، بينما أنا على الشاطئ. [illegible]
... وحتى أصرف تفكيري، تناولتُ خطاب أمبروسيا، ومضيتُ

لأحضر فتاحة الأظرف من المكتب أسفل النافذة، مختلسة النظر عبر زجاج النافذة مرة أخرى، لأرى ثلاث أشخاص وليس اثنين.

كان رجل يقف على الجانب الآخر من السور، ويختلس النظر من فوقه، ووضعت إليزا ذراعا دفاعية حول كتفي جورجيت. انتابني الفزع في الحال، ولكني قبل الاندفاع إلى الطابق السفلي لاحظتُ تعبير وجه الرجل. لم يكن شرسا أو شهوانيا، بل مُتوسِّلا. كان له شعر أحمر يتموج تحت طاقيته السوداء، وبشرة بيضاء شاحبة، ويرتدي معطفا لا يناسب صقيع شباط - إنه متسول لا شك، إذ كانت إليزا تهز رأسها نفيا، وأصابني الذعر بدوار وأنا أتخيله يسحب سكينا أو طبنجة. هرعتُ إلى الطابق السفلي وكل أنواع الاحتمالات تتسابق في رأسي: كأن يفجر رأسيهما بثقبين، أو يقطعهما إلى شرائط ويتركهما والحياة تتسرَّب منهما في الوحل. وصلتُ إلى سلم المطبخ واندفعتُ أهبطه، مُقتحمة المكان على ماريا، التي كانت تفرد العجين على الطاولة الخشبية.

"سيدتي؟" تأتأت، وأنا أفتح الباب الخارجي بعنف.

وارتفعت ثلاثة وجوه لتنظر نحوي، وقد أجفلها الصوت.

"جورجيت،" قلتها بنبرة بطيئة، واضحة، كما قد يخاطب المرء حصانا خائفا. "تعالي هنا في الحال." صنعت أنفاسي سحبا أمامي. نظرتْ إلى مربيتها، التي أومأت لها، فأقبلت عليَّ مطيعة، ووقفت إلى جواري. راقبتُ ماريا من المدخل، وشوبَكها يلوح كسلاح.

"إليزا، من يكون هذا الرجل؟"

كان صوتها ضعيفا وخائفا. "إنه شقيقي، يا سيدتي."

"شقيقك؟"

عاينتُ القليل الذي أمكنني رؤيته من فوق رقبته القذرة. لم يملك اللون الداكن لشعر أخته وعينيها، وإن كان له نفس فمها الواسع ووجنتيها البارزتين. وبمزيد من التأمل، وجدتُ أن إليزا أيضا تملك بريقا أحمر في شعرها، كلهب نار يتلألأ فوق قشرة كستناءة. حاولتُ أن أسبغ غوره، وهو كذلك من حوالي ست ياردات، فيما وقفت إليزا صامتة بيننا.

ثم قالت في النهاية: "انصرف، يا نيد. هيا."

أومأ وحكَّ رأسه، وبعد اختلاس نظرة أخيرة نحوي غاب لأسفل، وكأن بابا سريًّا انفتح من تحته. لا بد أنه كان يعتلي شيئا لينظر من فوق السور الذي بُني بارتفاع عالٍ يضمن الخصوصية والأمان، حتى لا يستطيع المتجولون في الممر الخلفي أخذ شيء من الملابس التي تجف في الفناء، ومع ذلك يأتي شقيق إليزا، ليفعل هذا بالضبط، خلال استراحته من كنس الروث في الشوارع.

وعندما عدنا جميعا إلى المطبخ، وأُقفل الباب قلتُ: "إننا لا نستقبل زوارا في هذا المنزل،" كنت ممتقعة الوجه من الغضب.

قالت الفتاة: "إنني لم أدعُه، يا سيدتي".

"ما كان الغرض من زيارته إذن؟"

"زيارة من؟" دخلت آغنس بدلو من أوراق شاي مستعملة كانت تنظف بها السجاد، ووضعته على الطاولة. سقط شويك العجين مرتطما بالأرض، وحنت ماريا بنيتها العريضة لاستعادته.

قالت إليزا: "لا أعرف، يا سيدتي. إنه يعلم أنني أعيش هنا الآن، لذا أتوقع أنه أراد الاطمئنان عليَّ."

"لا أريد رؤيته في شارع ديفونشاير مرة أخرى."

أومأت إليزا، لكنها بدت مهمومة لبقية اليوم. كلما نظرتُ إليها تساءلتُ هل الرجل شقيقها حقا، قد أتى يطمئن على حالها، أم كان لزيارته غرض مختلف تماما.

كانت إليزا سميث أحجية بالنسبة لي، ولم أكن قط ماهرة في حلِّ الأحاجي.

***

وفي تلك الليلة رقدتُ مستيقظة أشاهد القمر من خلف ستائر فراشي وستائر النوافذ التي تركتها مفتوحة. قد تدلى وجهه السديمي فوق ظهور المنازل في شارع غلوسيستر المقابل، برَّاقا من وراء السحب الرقيقة. كنت قد جلست لوقت متأخر أكتبُ لأمبروسيا، التي وصلت إلى الشمال الشرقي بأمان ووجدتْ منزلا للإيجار في ضواحي دورهام، هو ملك لدوق سافر لقضاء الشتاء في أوروبا. قالت في خطابها أن هناك عدة أفدنة، وساحة اسطبلات تعجُّ بالخيول، وأنهم ركبوا خيلا في جولة جماعية، عندما كفَّ الصغار عن الركض كالجراء حتى غطتهم الأوساخ. وإذ عرفتُ أنها وصلت بأمان، شعرتُ بالاسترخاء - حيث أدركتُ أن فكي ظل مُطبقا لأسبوعين، فغرزتُ أصابعي فيه، ودلَّكته لأزيل التوتر، وصببتُ لنفسي كأس براندي من الدورق أسفل النافذة احتفالا بوصولها الآمن.

دقَّت ساعة الدهليز من بعيد مُعلنة منتصف الليل. اكتوى حلقي من أثر الشراب، وكانت معدتي فارغة. رغبتُ في شيء

من الخبز والجبن، فقررتُ النزول إلى الطابق الأرضي، وقدماي الحافيتين سوى من جوربين لا تحدثان وقعا على السجاد. وفي القبو وجدتُ بصيص نور ينبعث من إطار باب المطبخ، وهمسا خافتا، ودفعتُ الباب لأجد إليزا وآغنس على طاولة المطبخ. كان ظهر إليزا للموقد، وجلست آغنس في مواجهة الباب. وعلى وجهيهما نظرة جادة وسرِّية لرجلين يلعبان القمار، ولا بد أنهما أخفيا دهشتهما برؤيتي، كما فعلتُ أنا. ضممتُ سترة نومي حولي، رغم دفء المطبخ من أثر بقايا جمرات الموقد.

قالت آغنس: "سيدتي. لقد حسبناكِ شبحا."

"فكرتُ أنه ربما تبقى من العشاء شيء من الخبز والجبن."

نهضت آغنس، وشغلت نفسها في حجرة المؤن. وظلت إليزا لا تنظر لي، وهي تتفحص أظافرها وتفرك آثار السكين على الطاولة.

قلتُ: "أخشى أن تستيقظي مرهقة في الصباح".

قالت بصوت منخفض: "لن يحدث، يا سيدتي."

لقد قاطعتُ محادثة شخصية، هي في الأغلب عنِّي.

وضعت آغنس كوب حليب صغير أمامي وفتحت غلاف الجبن. وقفتُ أنتظر انصراف إليزا، لكنها لم تفعل.

قلت: "سمعتُ في طريقي جورجيت تتحرك."

ودون أن تنظر نحوي، نهضت من أمام الطاولة وخرجت من المكان بخطى خفيفة.

سألتُ آغنس: "فيم كنتما تتكلمان أنتِ وإليزا؟"

وضعتْ قطعة خبز وجبنا في طبق. وقد بدت خطوط وجهها

أعمق في ضوء اللهب الوحيد بالمكان. "أمور متفرقة. وسرقَنا الوقت." ثم تثاءبت. "يجدر بي الصعود إلى غرفتي."

راجعتُ الباب الخارجي، وأغلقت آغنس المصاريع وأخذت الشمعة، ومضينا في رحلتنا الصامتة إلى الفراش.

الفصل الثاني عشر



"**آغنس**، هناك زنجية خارج منزلي."

كانت امرأة شابة في تنورة بنية غامقة وسترة سوداء تقف خارج نافذة غرفة الطعام، تنقل بصرها بين أول الشارع وآخره وكأنها تنتظر أحدا. كان شعرها مرفوعا تحت قلنسوة بكشاكش وبدت في غاية الثبات. تُرى هل تنتمي لأحد المنازل الكبيرة في المنطقة، لكن شيئا في مظهرها وطريقة ملبسها جعلها تبدو امرأة حُرَّة، لا تنتمي لأحد. قرأتُ من قبل عن زنوج لندن، الذين استقر أغلبهم شرقا بين مستعمرات مورجيت وكريبلجيت، والذين لم يُستعبدوا قط. كانوا أبناء الرجال والنساء الذين حُرِّروا من العبودية، وقد توارثوا أعمالهم الخاصة وسكنوا منازل تؤجر بالغرفة كما تفعل طبقة العمال في لندن. كان أبي قد تربَّى في مزرعة قصب سكر في باربادوس، وتساءلتُ ماذا سيقول عن هذه المرأة، التي كان مظهرها عاديا ولا يتميز عن أي مواطن إنجليزي.

كفَّت آغنس، التي كانت ترفع مائدة الفطور، عن وضع أواني الخزف في آنيتها وانضمت إليَّ عند النافذة. قالت: "غير معقول. تبدو وكأنها لا تحمل همًّا في العالم."

سألتُ: "من أين هي برأيك؟"

"أنا ذاهبة، يا آغنس،" جاء صوت إليزا من المدخل، كنا في يوم أحد، وكان اليوم أول عطلة تأخذها إليزا منذ انضمت إلينا. كانت قد أخبرتني بأنها لن ترافقنا إلى المُصلَّى، بعد إذني، حتى يمكنها زيارة أسرتها. وحينها انهار وجه جورجيت بصورة درامية، وكأنها لا تحتمل البقاء معي، الأمر الذي عكَّر مزاجي. تخيلت أن إليزا تخرج إلى الصباح الصحو حاملة سلة على ذراعها، وتتخلل شوارع بلومزبري، حيث تنحسر المنازل الفارهة والميادين الخضراء في النهاية عن مبانٍ سكنية متداعية وأزقة من ضيقها حتى ليستطيع المرء مصافحة جاره من النافذة. حاولتُ تخيل بيتها، غرفة أو غرفتان، بأثاث بسيط، وعلى طاولة يجلس والدها وشقيقها الأصهب يأكلان طيرا مشويا بأصابعهما. هل تُرى يجدر بها أن تضع ملابسها في الأتون عندما تعود: كانت المدينة هي المكان الذي انتشر منه الطاعون، من بين أمراض أخرى.

لاحظتُ وجودي مع آغنس فأقبلت. "إلام تنظران؟"

قلتُ مُعلِّقة: "إنها أنيقة ا لملبس للغاية."

"سأطلب منها التحرك،" قالتها إليزا بسرعة. "سوف أذهب الآن على أية حال."

كانت جورجيت تنتظرها في الردهة، وعندما عانقتها مربيتها، تشبثت بتنورتها كبرنقيلة. شاهدتها تجذب كم إليزا، ومالت إليزا لتسمع بينما قرَّبت الصغيرة شفتيها من أذنها.

قالت: "نعم، سأعود بالطبع. سأكون هنا قبل الغداء لأغسل يديكِ. اتفقنا؟"

لكن أسارير الطفلة لم تلن، وظل فمها مزموما في خط قلق. كانت إليزا قد علَّمتها كيف تلف جدائلها بقطع من قماش حتى ينسدل في خصلات متموجة، زينتها هذا الصباح بشرائط.

"جورجيت، اتركي مربيتكِ في الحال واذهبي لإحضار قبعتكِ من أجل الكنيسة. سوف تصل العربة في أية لحظة."

انصرفت آغنس بالآنية تصلصل بين يديها، وعندما غابت سمعتُ تهامس إليزا وجورجيت في الردهة.

وكانت إليزا تقول: "لا تحزني. ستذهبين إلى الكنيسة مع ماما، ثم تعودين لإطعام عصفورك وسلحفاتك وترتبي ألعابكِ في أماكنها، ثم ستجدينني وقد عدتُ قبل حلول الظلام."

"في أي ساعة؟"

"الثالثة."

"إلى أين تذهبين؟" تذمرت جورجيت، وبدا صوتها وكأنها دفنت وجهها في جسد إليزا.

"سوف أقابل صديقتي، ونتمشى قليلا، وعندما نشعر ببرد يصيب أيدينا بالخدر، سنبحث عن مطعم دافئ لطيف لتناول شيء من الطعام. ثم سأذهب إلى منزل أخي وأسلم على ابنيه، ثم أزور أبي، ثم أعود!"

"لن تتوهي؟"

ضحكت. "كلا، لن أتوه. يحسن أن أذهب الآن."

بيد أنَّ جورجيت شرعت تبكي. وتناهت شهقاتها الصغيرة الخافتة إلى غرفة الطعام، حيث وقفتُ قابضة بيدي على ظهر المقعد غير المبطن. قالت: "لا تذهبي أرجوكِ."

ذهبتُ الى الباب. وأمرتها: "كفي حالا عن البكاء. إن إليزا تستحق عطلة، وقد تدبرتِ أمركِ بدونها طيلة السنوات الست الماضية."

انتزعت جورجيت نفسها من جسد إليزا ورمقتني بازدراء خالص. اشتعلت عيناها الداكنتان الحادّتان، وانقبض وجهها في عبوس. "أريد أن أذهب معها."

"لا تحلمي."

"أريد أن أذهب!" ضربت بقدمها الأرض، فأطلقتُ صرخة.

أمسكتُ بمعصمها وهززتها. "يا لكِ من طفلة وقحة. اذهبي إلى غرفتكِ في الحال. لن تأتي معي إلى الكنيسة، ولن تلعبي في الفناء هذا الأسبوع. اذهبي!"

رمقتني بنظرة هي الأكثر شراسة، ثم دارت على عقبيها وفرّت، فتركتني مع إليزا. أرسلت المربية نظرة إلى الدّرج حيث اختفت جورجيت، وبعد برهة، قالت: "هل أبقى، يا سيدتي؟"

"كلا."

ازدردت لعابها. "هل مازلتِ ستذهبين إلى الكنيسة؟"

"إنهم يتوقعون حضوري."

"ستتركينها هنا وحدها؟"

"لن تكون وحدها في وجود الطباخة والخادمة. يمكنكِ الانصراف بعد أن تحبسيها في غرفتها. إنني أضع المفتاح على رف المدفأة في غرفتي، في المزهرية الوردية. سأدع لكِ تفسير العقاب للصغيرة، لو أنها لم تفهمه بالفعل. وأتوقع عند عودتي من الكنيسة أن

أجد غرفتها مُغلقة بالمفتاح، والمفتاح في مكانه الصحيح. هل هذا مفهوم؟"

أومأتْ، خافضة العينين. وعدتُ إلى غرفة الطعام لأنتظر وصول العربة، ورأيتُ المرأة الزنجية مازالت واقفة، تنقل بصرها بأناة بين أول الشارع وآخره. وبعد بضع دقائق سمعتُ باب الشارع يُغلق تحت نافذة غرفة الطعام، وإليزا تصعد الدرجات وتفتح البوابة السوداء. لم أستطع رؤية وجهها. تحدثت وجيزا إلى المرأة، التي كانت قد ابتسمت بسرور عندما رأتها، ثم ذوت ابتسامتها عندما تحدثت إليزا، وأومأت، ثم تحركت إلى أول الطريق. راقبتها إليزا وهي تبتعد، وأحكمت حولها عباءتها. استدارت تلقي نظرة على المنزل، فقابلت عيني وأشاحت بنظرها في الحال، ثم سارت جنوبا نحو المدينة. ولم تكد تختفي من المشهد حتى ظهرت العربة السوداء، وخيولها تنفث أنفاسا تشبه سُحُبا ضبابية في الصباح البارد. كنتُ أتوتر دائما قبيل المغامرة بالخروج، فوقفتُ الآن لدقيقة كاملة عند الباب الرئيسي، وأعصابي تتقافز ككرات بلي في جراب. لشدَّ ما سهلت إثارتها؛ ربما كان ثأرا لجورجيت؛ أو لأن إليزا تركتنا جورجيت وأنا وحدنا لأول مرة منذ شهر تقريبا. ربما هي السلاسة التي غادرت بها المنزل، وسيرها الحثيث إلى المدينة الضخمة والمكتظة. أو ربما لأن ابنتي أحبت مربيتها أكثر مني.

"سيدتي،" جاء صوت آغنس. "لقد وصل هنري مع العربة."

ودَّعتني عند الباب بدفعة لطيفة، وفركتُ عضديَّ إذ تدفق البرد إلى الداخل. ساعدني هنري في ركوب العربة، وتدحرجت

عجلاتها عبر الشوارع، فانعطفت يمينا إلى شارع جريت أورموند، حيث عاش د. ميد الكبير، فاتجهت أفكاري مرة أخرى إلى حفيده. قامت الجنازة وانقضت دون وجودي لمساندة صديقي، لكنه لم يغب عن تفكيري طوال اليوم، وتخيلتني أبتسم له من مقعد الكنيسة، وأمنحه القوة بوجودي.

"لا ابنة جميلة اليوم، يا سيدة كالارد؟" قالتها امرأة عجوز في المُصلَّى، أثناء استلامنا كتيبات الترنيم من أحد صبية فاوندلينج المهندمين. عرفتُ من صوتها أنها السيدة كوكس، زوجة عضو في الحزب اليميني. كانت ترتدي حريرا أزرق ليلكي مع ذهبي غامق، وعلت باروكتها الرمادية معظم الموجودين. هززتُ رأسي نفيا وحاولتُ المضي قدما.

"هل ستزورين منزل ريتشارد ميد بعد القداس؟ سيبدأ المزاد اليوم."

"مزاد؟"

"لتركة الطبيب الراحل. إن آلاف المقتنيات معروضة للبيع: لوحات، تحف، كتب. بعضهم نادر جدا. ألم تقرئي الخبر في الصحف؟ لقد انتشر على نطاق واسع في دوائرنا." وشدَّدت على ضمير الجمع الذي أدى وظيفته في استبعادي، حيث لستُ أكثر من أرملة تاجر.

انعقد لساني. كان المزاد يعني أن العجوز مات مديونا، لكن الدكتور ميد لم يلمح إلى ذلك قط. قلتُ: "عليَّ العودة إلى المنزل بعد القداس."

"إنَّ كل لندن سيتبارون في رفع أصواتهم للحصول على

مقتنياته من لوحات رامبرانت وهوجرت. وسمعتُ أن المزاد يضم حتى طبعات أولى لأعمال شكسبير."

"طاب يومكِ، يا سيدة كوكس."

بعد القداس، توجهتُ مباشرة إلى الدكتور ميد، الذي كان يقف جوار مقعد صلاته المعتاد، محاطا بالمُعزِّين، الذين رغبتُ بشدة في طردهم كما قد أفعل مع سحابة ذباب. مرَّت خمس دقائق كاملة قبل أن يلقي عليه آخر المُعزِّين تحيته رافعا قبعته.

"سيدة كالارد،" قالها بابتسامة، آخذا بيدي التي ترتدي القفازات.

"كيف كانت الجنازة؟"

"رائعة."

"أنت فقط من يمكنه قول شيء كهذا. لائقة بريتشارد إذن."

"شكرا لكِ، كانت كذلك. أجورجيت غائبة اليوم؟"

"إنها مُتعبة هذا الصباح. تركتها تستريح. ما هذا الذي سمعته عن إقامة مزاد؟"

تبدلت ملامحه على الفور. وهز رأسه. "لقد رحل الجد عن العالم كما جاءه إلا قليلا."

قطَّبتُ. "ماذا تعني؟"

"لقد ترك عددا ضخما من الفواتير دون تسديدها. عددا ضخما من فواتير بقيمة ضخمة. وقد رحل، كما تعلمين، عن هذه الحياة دون أن يتاح له وضع كل شيء في نصابه، لذا لكِ أن تتخيلي وجود حشد مُعتبر."

"إنها صدمة ولا شك، لكني آمل أنها ليست كارثية؟"

"يمكن تجنب الكارثة إن بعنا كل شيء."

"كل شيء؟"

"يجب أن أذهب. أنا آسف. سوف يبدأ المرض في منزله الآن. لن أسأل إن كان بإمكانكِ المجيء." تكلم بلطف، لكن كلماته وخزتني رغم ذلك. "سوف أمر على شارع ديفونشاير حالما أستطيع."

مرَّت امرأة قصيرة في قلنسوة زرقاء ووضعت يدا على ذراعه، مُتمنية له يوما طيبا.

"أريد أن أشتري شيئا." قلتُ بغتة. "من المزاد."

رمش في دهشة. "حقا؟"

"نعم. أقرب مقتنياته إلى قلبك. اشتره لنفسك، هدية مني. مهما كان السعر."

فتح فمه وأغلقه. "إنه كرم بالغ، لكني أؤكد لكِ أنه ليس ضروريا."

"إنه ضروري جدا بالنسبة لي. كان جدك رجلا كريما، وعلينا أن نكافئه بمثل كرمه."

"دكتور ميدا!" قالها صوت ما. وقاطعنا مرة أخرى رجلان يعتمران باروكتين معقدتين، ومدَّا يديهما لمصافحة الطبيب. "دعنا نرافقك إلى شارع جريت أورموند."

"لا نريد أن يفوتنا شيء،" قالها الآخر، وقبل أن يتاح لي توديعه سحباه بعيدا، وكل منهما يمسك بذراع. أظهر تعبيرا ينم عن عجزه ولوح مودعا، فقابلته بالمثل، وشعرتُ بفرحي ينضب.

وفي العربة أثناء عودتي إلى المنزل، أزحتُ الستارة عندما

وصلنا إلى ناصية شارع جريت أورموند لأراها مكتظة بمُحبي التجمعات، وكأنما هو مهرجان ريفي. فُتح باب منزل ريتشارد ميد على الشارع وتقاطر شريط من القلانيس والقبعات المثلثة على الطريق، يتخللهم مارة يتوقفون للاستفسار وعربات بحصان واحد تتباطأ حتى التوقف.

"حشرات،" تمتمتُ، دون تخصيص، وأفلتُ الستارة، عائدة إلى ظلامي.

***

حالما وصلتُ إلى المنزل، ذهبتُ مباشرة إلى طاولة المكتب في غرفة نومي. وكانت إليزا قد أعادت، كما أمرتها، مفتاح باب جورجيت إلى المزهرية الوردية على رف المدفأة، فوضعته في جيبي، وأخرجتُ صندوقي الشخصي، فبحثتُ عن مُرادي وحملته في كفي. قصدتُ غرفة جورجيت، وأدرتُ قفل الباب. كانت تجلس بلا حراك في سريرها الضيق، لا تنظر إلى الشارع أو تلعب بألعابها أو تفعل أي شيء آخر مما تفعله عادة لتشغل نفسها. رفعت عينيها في أمل، ووجدت وجهي، فخاب وجهها لقاء ذلك.

وكأنه يقول، أوه، لستِ إليزا.

سألتُ: "هل تندمين الآن على تصرفكِ السابق؟"

قالت بصوت خافت: "نعم، يا ماما."

"لقد سألوني عنكِ اليوم في الكنيسة، الدكتور ميد والسيدة كوكس. واضطررتُ لإخبارهما بسوء تصرفك."

نظرتُ بكآبة في حجرها، وشعرتُ بوخزة ندم. لماذا حب الابناء هو أكثر أنواع الحب تعقيدا؟ كيف تشعر الأم بالغيرة والحزن والرفض وكأنهم عاطفة واحدة بسيطة ومجرّدة؟ كيف لا ألمسها إلا بالكاد، ومع ذلك أستطيع تمييز رائحتها معصوبة العينين، ورسم كل نمشة على وجهها؟

ذهبتُ لأقف قبالتها، فرفعتْ رأسها بترقب، وذقنها الصغير قد برزت في تحدٍّ. كان شعرها منسدلا فوق كتفيها، ولم تنزع حذائها بعد. إن جثوتُ لنزعهما عنها، فهل ستظنني ضعيفة، وغيرتُ رأيي؟ نيابة عن ذلك قررتُ الجلوس إلى جانبها، وشعرتُ بالسرير الصغير يئنُّ من تحتي.

"انظري إلى هذا،" قلتها، وأنا أخرج دبوس الحداد على دانيال من جيبي وأمد بها كفي المبسوطة.

"ما هذا؟" أخذته مني، فغطى كل كفها تقريبا.

"طلبت صنعه عندما مات والدك."

تأملت المرأة المنهارة على القاعدة الحجرية في إظهارها المتكلف للحزن. ثم همست: "هل هذه أنتِ؟"

"يا إلهي، كلا. إنه رمزي. هذا شعر والدك." أشرتُ إلى الذؤابات المطلية التي صُبَّت فوق العاج، ومررت أناملها فوقها.

"هل تلبسينه؟"

"كنت. إنني أحفظه في غرفة نومي. ستحصلين عليه يوما ما."

سألت: "متى تعود إليزا؟"

ماتت لحظتنا قبل حتى أن تولد. أغلقت أصابعي على الدبوس ونهضت. "اخلعي حذائكِ ورتبي ألعابك. سوف تعود إليزا قريبا."

لم يغب عني احتمال ألا تعود، لم يغب عني أيضا في كل مرة ذهبت آغنس وماريا في عطلتهما الشهرية. امتدت لندن في الخارج مثل فك مفتوح، مستعدة لابتلاع أي شخص يقرر الاختفاء، وقد غادر خدم أعلى أجورا من خدمي منازل أكبر حجما من منزلي. أرّقتني الفكرة. ولهذا أبقيتُ المنزل دافئا، وشراشف السرير نظيفة، وحجرة المؤن عامرة: تعويضا عن تصرفاتي الغريبة، وملامحي الجامدة. كنتُ قد وضعت نفسي في قالبي الخاص طويلا جدا حتى فات أوان التغيير، وبدلا منه طلبتُ شموعا لغرفتي نومهما واشتريتُ لهما الهدايا في أعياد الميلاد: علب لوز محلى ولفّات من قماش الكاليكو. لا يحبُّ الخدم أسيادهم؛ حتى أصبح ذلك مادة للأغاني العاطفية وقصص الأطفال. لكن كلا من خادمتيَّ امتلكت حرية في التعبير عن رأيها، وحازت قدرا من السلطة، وظلت مخلصة لأكثر من عقد. كانت الثقة ضرورية بالطبع، وأُخذت بالاستحقاق لا بالمطالبة. أغلب البيوت الأخرى، فيها رجال يقفون على رؤوس خدمهم ودستة رضَّع يحتاجون لتنظيفهم وإطعامهم وتدليلهم، لكن شيئا من الهندام كان في منزل تحكمه النساء، وشيء آخر رجوته، الأمان. كان توفير مكان آمن للمعيشة هو مهمتي، هو هدفي، الذي يدور حوله وجودي.

لكن إليزا عادت، بوجنتين متوردتين وقد علقت بها روائح المدينة: الهواء البارد، والقش، والسّباخ، وهواء المطاعم المعبأ بالتبغ. دخلت من الباب الرئيسي، وقبل أن تتمكن حتى من وضع يدها

على البوابة، كانت جورجيت قد هبطت الدَّرج ركضا لاستقبالها، فانعطفت حول الأركان ككلب سباق وارتطمت بتنورة إليزا أمام الموقد. انفجرت الاثنتان ضاحكتين وتعانقتا في استعراض عواطف درامي، حتى خُيِّل إليَّ أن ستار مسرح سينسدل أمامهما. كنتُ في المطبخ لأطلب من آغنس إرسال طلب بصنع دبوس حداد للدكتور ميد، يعينه على حزنه. كنت قد رسمتُ التصميم بنفسي في صالوني، ومررته إلى آغنس من فوق الطاولة بكل الكبرياء الذي أمكنني استجماعه، مع أن عنقي كان دافئا.

حلَّت إليزا شالها وضغطت يديها المتجمدتين على خدها الساخن، ثم وضعتهما فوق الفرن. وقالت: "لم يكن عند أبي نار. ولا عند أخي. جعلتني الإقامة هنا أعتاد الدفء طوال اليوم."

"كيف حال أخيكِ؟" سألتها. وكانت تتحدث عنه بولع صريح، لكنها لم تجب على الفور، واكفهرَّ وجهها.

قالت: "ليس بصحة جيدة."

"أوه. أتمنى له إذن شفاء عاجلا."

شكرتني، وناولت جورجيت كستناءة محمَّصة اشترتها لها، ثم راقبتها وهي تأكلها بسعادة، ولكن دون اللمعة المعتادة في عينيها. أكلت جورجيت وابتسمت في وجهها، وعادت تلك الوخزة من جديد – وخزة حسد وخوف– لأنني كنت أعرف أنها تحبها، وأن إليزا ستغادر يوما ما، لتتزوج أو تجد عملا في مكان أكثر تقليدية، مُحطمة قلب جورجيت برحيلها.

الفصل الثالث عشر



وصل قبل الظهر، وسمعتُ قدمي آغنس في الردهة. نهضتُ وذهبت إلى المرآة، ورتّبتُ شعري ونسّقتُ قلادتي. تسارعت دقات قلبي، ومرَّت سنة قبل أن أسمع طرقة آغنس على باب خلوة الضيوف، جلستُ خلالها ووقفتُ، ثم جلستُ مرة أخرى.

"سيدة كالارد." كان الدكتور ميد يبتسم وهو يدخل الغرفة. ثم لاحظتُ ظلالا تحت عينيه وبدايات لحية خفيفة على فكيه.

قلت: "أنت مُرهق."

"حقا؟ أفترض أنني كذلك."

"ألم تنم؟"

تنهد وجلس في المقعد المقابل. "الشتاء قاسٍ دائما. مات أربعة من أطفال فاوندلينج منذ كانون الثاني. آخرهم دُفن هذا الصباح." وعند زاويتي عينيه ظهرت خطوط صغيرة، مثل شقوق في جبس.

"هذا مريع. لا شك أنك بذلت كل ما بوسعك. وها هو الشتاء يتأهب للرحيل أخيرا."

أومأ موافقا دون اقتناع، وارتشف الشاي من فنجانه. بحثتُ عن موضوع لإلهائه. "كيف يسير المزاد؟"

"يعرج كبغل خائر القوى."

"لكن جدك تُوُفي منذ أسابيع."

"أجل، ولا يظهر أنه سينتهي قريبا. عندما لا أكون في الملجأ، فإن جُلَّ وقتي أقضيه في منزله، فأساعد أمي وشقيقاتي في البحث بين أغراضه كالنبَّاشين في الوحل، وأجتمع بباعة المزاد وأحزم الأغراض لمركز إكستر التجاري. سوف تُثمَّن المكتبة غدا. بها آلاف الكتب – أكثر مما يسع المرء قراءته في عشر حيوات. إنه مهرجان حقيقي." ثم تثاءب بعمق.

"ربَّاه،" كان ذلك كل ما وسعني قوله. "أليس لديك عمَّات أو أعمام لمساعدتكم؟"

"جميعهم ماتوا، لذا تقع المسئولية على أمي."

مسَّدتُ العلبة الصغيرة المورَنَشة والمخفيَّة في جيب تنورتي. هل هو وقت مناسب الآن؟ قررتُ أنه كذلك.

"هذه هدية مني،" قلتُ وأنا أقدمها له، شاعرة بدقات قلبي تتسارع مرة أخرى. أخذها، بنظرة أطفال فضولية، وتلامست أصابعنا. راقبته يفتح غطاء العلبة ويحل الرزمة الحريرية داخلها.

"إنه دبوس حداد،" قلتها والدبوس يسقط في راحة يده. كان قد وصل ذلك الصباح، وتماما كما تمنيت: بيضاويا مطليا بالمينا، يزينه نقش لشاب يعتمر قبعة مثلثة ويضع إكليل زهور على قاعدة رخامية، كُتبت فوقها كلمات صغيرة بحجم رأس دبوس تقول: صداقة

منقوشة في الرخام، آلام مذريَّة في التراب، مع عكاز برأس ذهبية يميل إليها، إذ لم يخطُ الراحل خطوة بدونه، فبات مشهورا به.

راقبتُ وجهه وهو يتأمل الدبوس. كان جامدا. ظل ينظر إليه طويلا، حتى ظننته شرد بأفكاره، وأوشكتُ على سؤاله إن كان يشعر بتوعك عندما نظر لي فجأة، وعيناه تلمعان بالدموع. كان عاجزا تماما عن الكلام، وأومأ بشكره، فوجدتُ الدموع تصعد إلى عيني أيضا. حينئذ شعرتُ وكأن قلبي انفصل تماما عن جسدي.

ثم تمالكتُ نفسي. "أعرف أن الدبابيس هي بالأحرى أغراض نسائية، لذا لا تشعر أنك ملزم بارتدائها. إنها أقرب إلى تذكار. أملك واحدا أعتز به كثيرا، وأخرجه كل حين وآخر لتأمله."

"العكاز. عكازه." كان يبتسم ابتسامة حقيقية الآن، امتدت حتى عينيه، وأدركتُ أنه لم يبتسم منذ أسابيع.

"إنه مطلي بالذهب. كان الإغراء كبيرا."

دسَّ العلبة في جيب معطفه الأخضر. صببتُ المزيد من الشاي وقلبتُ فيه السكر، ومع الأصوات التي تتسلل إلينا من شارع ديفونشاير شعرتُ برضا كامل.

ثم استأنفتُ: "توجد مساحة صغيرة في الردهة ظللتُ سنوات أنوي شغلها بلوحة. أظنني مازلتُ أرغب في شراء إحدى لوحات جدك، في حال لم تبعها كلها."

قال: "أبدا. أي نوع تفضلين؟ منظر طبيعي؟ لوحة لهوجرت؟ حددي المشهد الذي تريدين، وأنا واثق من وجوده عند جدي."

ابتسمت. "اجعلها مفاجأة. حدد لوحتك، والسعر الذي تريد."

"حسن جدا. أتوقع أن تدفعني أمي للمزايدة أمام ماي فير كلها، لكني سأفوز بجائزتكِ، يا سيدة كالارد."

"ماذا سيحدث لمنزله؟"

"لقد أوصى لي به. أفكر في تحويله إلى كلية طب، فيُتاح للأطباء أن يدرسوا فيه."

"أعتقد أنها فكرة رائعة، وهو بالضبط ما كان سيريده."

"أجل. أتصور أنه كان سيميل إلى فكرة تحويله إلى مدرسة."

"ولكن ألا تحب السكنى فيه، وتترك إيجارك في شارع بيدفورد؟"

فكَّر في السؤال. "إن منزله ضخم. سيُهدر على رجل بلا عائلة مثلي."

وضعتُ فنجاني برفق في صحنه. شعرتُ بصعوبة في البلع. "هل هذا شيء تريده؟"

تنهد. "ربما. بيد أنَّ هناك شيئا أريده أكثر."

لم أحرك ساكنا. "وما هذا الشيء؟" خرج السؤال همسا.

حدَّق في أرضية المدفأة النظيفة، وهرم الخشب الجديد الذي يعلوها، وكانت عيناه مُستغرقتين في التفكير. "لا أطمع في شيء أكثر من المشي بلا هدف، في الهواء الطلق، وفي يدي فطيرة ساخنة، وأبتعد عن باعة المزاد، وأمي وشقيقاتي، وغرف الاستقبال وشارع جريت أورموند، والأطفال المرضى والمحتضرين، ليوم واحد فقط. أريد أن أرى أشجارا وزهورا ولا عربات، أو شخص واحد يوقفني ليقدم تعازيه، أو يسألني عن مرض أصاب قريب زوجة عمه، أو يخبرني عن

ابنة أخته العزباء، والتي صودف أنها تزور لندن، وهل أبحث عن زوجة؟ لأن لديَّ أملاكا كثيرة، ومهنة وعائلة مرموقتين، ورجل أعزب بكل هذه المواصفات لهو أندر من الطاووس الأبيض."

صمتُّ تماما. ثم قلت: "قرأتُ من قبل أن حدائق رانيلا الترفيهية بها طواويس بيضاء."

حدَّق في وجهي، ثم انفجر في الضحك: ضحكة سعيدة عالية ورنانة بعثت من البهجة ما لم أملك معها سوى أن أضحك أيضا، مع أني قلتُ ما قلتُ بجدية تامة. سالت الدموع على وجهينا، وبعد دقيقة أو دقيقتين تمالكنا نفسينا، وتراجع كل منا في مقعده ويده على بطنه، مع إحساس بالدوار الشديد.

"حُسم الأمر إذن." قالها وهو يمسح عينيه. "إلى هناك سأذهب. أتمنى لو تقبلين مرافقتي." تململتُ في مقعدي، ولكن قبل أن أتمكن من الغمغمة باعتذاري، استطرد قائلا: "لكنني لن أطلب منكِ ذلك."

"أنا آسفة، يا دكتور ميد." قلتها بصدق.

كان يتأملني بتعبير من رقته حتى اضطررتُ أن أشيح بعيني. ما أراده كان أبسط شيء في العالم: أن نسير معا، ذراعا بذراع. كانت رغبة عادية جدا، لكنني لم أستطع تلبيتها له. لو كنتُ أستطيع، لطلبتُ منه الانتظار ريثما أركض إلى الطابق العلوي لأحضر قبعتي، وأقابله عند باب الشارع، فأضع قفازاتي وأسأله هل نذهب بعربته أم عربتي، دون التفكير في الأمر، بل والتشوق إليه أيضا. كان الخروج من المنزل بالنسبة لمعظم الناس، هو بالبساطة التي يكتبون بها خطابا أو يتناولون وجبة.

أخبرته: "لا بد أنك تملك أشخاصا كثرا يذهب معك."

فقال: "لا أحد منهم أحب السير معه في صحبة. ولا يمكن للرجل أن يزور حديقة ترفيهية لوحده دون أن يجذب انتباها من النوع المذموم."

قلتُ مُحذرة: "أجل، عليك أن تحترس من اللصوص والمحتالين."

ضحك مرة أخرى، وعرفتُ فورا ما كان يقصده، وتضرجتُ جرَّاء سذاجتي.

"يمكن لإليزا أن تذهب معك،" أعلنتُ فجأة. قلتُ الجملة قبل حتى أن أفكر فيها، وعندما خرجت الكلمات من شفتي كانت مفاجأة لكلينا.

قال: "إليزا؟ إليزا التي تعمل عندك؟"

"نعم. بعد ظهر اليوم. يمكنني الاستغناء عنها لساعة أو ساعتين، إن كان هذا ما تريد فعله."

فكر في الأمر، ووضع صحن فنجانه برويَّة على الطاولة. "سيكون هذا رائعا. هل أنتِ متأكدة؟"

"متأكدة تماما. إنها فتاة لندنية وبارعة جدا. ستكون بأمان معها. دعني أحضرها."

وجدتُ اثنتيهما في غرفة الطعام، تتظاهران باحتساء الشاي بينما جورجيت تقرأ جهرا من مجلة أطفال قديمة مفتوحة بينهما على الطاولة، وأنصتُّ في المدخل وهي تقرأ بصوتها المتأتئ: "دنت منها امرأة مرَّت للتو، وسألتها ابنة من تكون. "أنا،" أج-أج-أجابت هي،

"الآنسة بيدي جونسون، وقد أضعتُ طريقي." فقالت المرأة: "أوه. أنتِ ابنة السيد جونسون، أليس كذلك؟ إن زوجي يبحث عنكِ، ليحملكِ–"

"إليزا؟" رفعا أنظارهما نحوي، مجفلتين. كانت إليزا مُندمجة في بيدي جونسون مثلها مثل الطفلة. وكانت القصة إحدى قصص جورجيت المفضلة، عن فتاة صغيرة تتوه في شوارع لندن.

"هلا تفضلتِ إلى خلوة الضيوف قليلا؟ إن الدكتور ميد هنا."

امتقع وجهها. نهضت ببطء، وأعادت الكرسي إلى مكانه وأراحت يدا مُطمئنة على كتف جورجيت.

سألتُ في قلق: "هل أنتِ متوعكة؟"

هزَّت رأسها نفيا، ونزلت جورجيت عن مقعدها أيضا، وكأنها ستأتي معها. قررتُ ألا أعترض وسرتُ أمامهما إلى الطابق العلوي.

"يريد الدكتور ميد شخصا يرافقه في نزهة عصر اليوم، وأعتقد أنكِ الشخص المناسب لذلك،" أخبرتها، فلانت حالا ملامح وجهها التي كانت قد تغضنت من القلق.

"أنا؟"

"نعم."

"أخبرتني السيدة كالارد عن الطاووس الأبيض الأسطوري في الحدائق الترفيهية بتشيلسي، وأخشى أن الفضول يقتلني لمشاهدتها."

قالت إليزا: "أوه".

وقالت جورجيت: "هل يمكنني المجيء؟"

التفتنا ثلاثتنا إليها في دهشة، وقد نسينا تماما أنها موجودة، لصق مربيتها. وكان وجهها يحمل تصميما.

أجاب: "سيسرني كثيرا أن أحظى برفقة الآنسة كالارد الصغيرة أيضا. إن أذنت والدتها بذلك؟"

"كلا بالطبع،" قلتها بتلقائية. فرمقتني جورجيت بنظرة زعزعتني. فيها كراهية عنيفة، وفيها خوف وإذعان – مزيج ألان عريكتي، وجعلني أتخاذل. وقلتُ: "إنها لا تخرج إلا للكنيسة. لم يسبق لها قط أن ذهبت إلى شارع دريك، ناهيك عن تشيلسي." تخيَّلتُ كتاب خرائطي على رفِّه في الصالون. وبصعوبة تذكرتُ أين تقع تشيلسي، في الريف الغربي للمدينة، على بعد نصف ساعة ربما أو أكثر بالعربة. كان ذهابها أمرا غير وارد. وقلت: "إنها بعيدة جدا".

"أرجوكِ دعيني أذهب، يا ماما!"

"كلا، ولن أسمع المزيد عن هذا الأمر."

فانفجرت في بكاء غزير لم يملك معه ثلاثتنا إلا مشاهدته في ارتياع. نزلت إليزا على ركبتيها في الحال لتهدئ الصغيرة، وتمسح وجهها المبتل بالدموع.

"لا أريد أن أُسجن هنا إلى الأبد،" قالتها وهي تبكي، عبر أنفاس سريعة. "أريد أن أخرج!"

انعقد لساني. كان جديرا بي أن أقترب منها وأخفف عنها، بيد أن كل ما استطعته هو الوقوف بفم فاغر أمام إليزا التي هدَّأتها وغمغمت لها، بينما تضمها وتربِّت على وجهها بمحرمة.

"أرجوكِ!" صرخت جورجيت. "أريد أن أذهب معكِ."

لم أسألها من قبل إن أرادت الخروج. كانت في السادسة من عمرها – وخلال ست سنوات أخرى ستصبح شابَّة. كنت أعدُّها لحياة

مثل حياتي، حيث لا يمكن أن يصيبها مكروه. ومع ذلك، فقد لعبت في الفناء، واسترقت الأنظار من خلف ستار العربة، وأدامت الجلوس أمام النافذة لتتطلع إلى الشارع. هل كان صوابا أن أحبسها كعصفورة مغرِّدة، تشدو لي وحدي؟

"أرجوكِ، يا ماما." كان بكاؤها قد أصبح محموما تتخلله الشهقات من مكانها فوق حجر إليزا على السجاد.

كان الجميع ينظرون نحوي، بترقب، وبعد وقت طويل جدا، أومأتُ موافقة: حركة خفية صغيرة، لكن ثلاثتهم رأوها، فتبدل جو الغرفة في الحال. وركضت جورجيت نحوي وحضنت تنورتي، فمنحتها تربيتة قصيرة على رأسها.

ثم أخبرتهما: "يجب أن تعتنيا بها جيدا. إياكما وأن تغفل أعينكما عنها، أو تفلتا يدها. وعليكما أن تعيداها إلى المنزل في الرابعة. هل تفهمان؟"

أومأ كلاهما إيجابا، وتبادلا نظرة مُنتصرة.

"عليكما أن تسيرا على جانبيها طوال الوقت، ولا تنساقا إلى الحديث مع أي شخص. الطريق إلى تشيلسي - هل هو آمن تماما؟"

"آمن جدا،" قالها الدكتور ميد. "سآمر الحوذي أن يضعنا عند البوابة، ويعود إلينا في الثالثة."

لم أحتمل الرقة التي نظر بها إليَّ، لأنها أكدت شكي القديم: أنه رآني قاسية في حبس جورجيت، وأن الإذن لها في الخروج هو الصواب.

وها قد اقترب مني، وحمل يدي في يده الدافئة. "ستكون

بأمان. كلمة شرف من ذهب." حرتُ في البداية في معنى ما قاله، ثم تذكرتُ دبوس الحداد: صداقة من ذهب، وآلام من غبار.

***

وما إن أدرت المفتاح في القفل خلفهم، حتى تحولت معدتي إلى كتلة من الثعابين المتلوِّية. انتقلتُ من الدهليز المظلم إلى نافذة غرفة الطعام لأنظر إلى الشارع، فوصلتُ بنفس اللحظة التي انطلقت فيها عربة الدكتور ميد مُغادرة. لمعت أجساد الخيول، وبدأت العجلات تدور، وفي ثوان غابوا عن الأنظار. وقفتُ أمام النافذة لأطول وقت محاولة تنظيم أنفاسي. كان يوما آذاريا بامتياز: مشرقا وصحوا، مصحوبا برياح رقيقة تحرك حواف الملابس وتشد القبعات. كدتُ أتذوق طراوتها، وشعرتُ بضوء الشمس يغمر عيني. فتحتُ النافذة قليلا، وفجأة صار كل شيء أوضح وأقرب. لم يعد ديفونشاير مجرد شارع، بل وجدتني فجأة أغرق في خضمِّه.

مرَّت بائعة فراولة جوالة، فتوقفت أمام المنزل وعرضت سلتها. "أتحبين شراء دستة، يا سيدتي؟"

كدتُ أموت رعبا، وأنزلت زجاج النافذة بعنف. لقد ارتكبتُ خطأ فادحا.

استدعيتُ آغنس، وسمعتُ قدميها على الدَّرج، ثم ظهر وجهها المُستدير في المدخل. بدأ حلقي يضيق، وصدري يختنق، وساعدتني على الجلوس على كرسي. سألتها: "هل نرسل أحدا خلفهم؟ ربما لم يفت الأوان بعد."

فقالت: "لا بد أنهم تجاوزوا سانت جايلز الآن، يا سيدتي."

"إن جورجيت لم يسبق لها أن... لم يسبق لها أن..."

"أعرف، يا سيدتي، لكنها ستكون في أمان مع الطبيب. عجبا، لو أن مكروها أصابها، فمن أفضل منه رفيقا؟ ومربيتها أيضا معها. سوف يعتنيان بها جيدا، تعرفين هذا، وإلا لما وافقتِ على ذهابها، أليس كذلك؟ دعيني أحضر لكِ شيئا يهدأ من روعك."

وضعتُ يدي على ركبتي وحاولتُ التنفس بعمق. وعندما شعرت بها تدفع في يدي كأسا، شربتُ بنهم. شعرتُ بلذعة في حلقي ونار في أحشائي.

"حاولي ألا تقلقي، يا سيدتي. ما فعلته شيء رائع، سماحكِ لجورجيت أن تذهب وترتاض خارج المنزل. إنها محظوظة، إنها كذلك، تلك الصغيرة."

"حقا؟"

"طبعا. ستعود مليئة بقصص عن المكان الذي راحته وكل ما شاهدت."

"ستفعل؟"

"بلا شك، يا سيدتي. وسوف تنام بعمق الليلة، تأكدي من ذلك."

"إنها لم تفارقني طوال حياتها. وقد أرادت الذهاب، يا آغنس. لو سمعتها، لحسبتني سجّانتها!"

"هاكِ، خذي رشفة أخرى. أحسنتِ. لماذا لا تذهبي وترتاحي، وسوف أجعل ماريا تصعد لكِ بقدح من الشوكولاتة. لقد فرشتُ سريركِ بأغطية جديدة وبيضاء كالثلج."

"هل تظنين السيد كالارد كان سيريد لها أن تعيش هكذا؟"

حدقتُ بنظرة جوفاء في الحائط. "هل تظنين أنه كان سيريد لها حياة عادية؟"

لم تجب فورا. "إنكِ تُحسنين عملا، يا سيدتي. إنكِ تبذلين أفضل ما لديكِ."

أما أفضل ما لديَّ فلم يكن حسنا.

في الصالون، استقر كتاب خرائطي مفتوحا فوق الطاولة. وكنتُ قد طلبتُ من حوذي الدكتور ميد أن يريني المسار الذي سيتبعه بالضبط: جنوبا إلى هاي هولبورن، ثم عبر سانت جايلز وإلى شارع أوكسفورد، زحفا نحو الغرب وحتى انحسار المدينة عن الحقول. انكفأتُ فوق الكتاب وتعقبت المسار بإصبعي. توجد شوارع وحواري صغيرة تحيد عن المسار، وكأنها عدد ضخم من الأفكار. ما يُدري الدكتور ميد حتى في يوم مشرق كاليوم، أي شر خبيث قد يتربص بهم: يراقبهم، ملتصقا بجدار، أو يتبعهم من بعيد. شعرتُ بحلقي يضيق مرة أخرى، فأسرعتُ بتقليب صفحات الكتاب عشوائيا، مُحاولة إلهاء نفسي في خريطة لشرق مقاطعة سَري.

نظرتُ في الساعة: مرَّ على رحيلهم عشرون دقيقة. أخبرني الدكتور ميد أنه يتوقع وصولهم إلى هناك في الواحدة والنصف، وأنهم في تمام الثالثة سيعودون إلى العربة وينطلقون من نفس الطريق. وبالتالي: كانت أمامي ساعتان ونصف الساعة من الانتظار الذي يحتاج لملأه. لم أكن قد نظفتُ صورتي أبي وأمي منذ شهرين أو ثلاثة، لذا طلبتُ إحضار خليط من الزاج والبورق

والمـاء، وارتديـت مئـزرا وقفازيـن وغطيـت طاولـة خلـوة الضيـوف بمـلاءة قديمـة. أنزلـتُ الصورتيـن مـن إزارهمـا ووضعتهمـا علـى الطاولـة، جنبـا إلـى جنـب، وتحدثـتُ إليهمـا فيمـا شـرعتُ أفرشهما خفيفـا بالخليط: أبي أولا، ثـم أمـي، وأعجبنـي كيـف صـوَّر الرسَّـام خفـة روحهـا، والطريقـة الظريفـة التـي رفعت بهـا زاويـة فمهـا. ربما كان مغرمـا بهـا، لأنـه لـم يصـوِّر روح أبـي بنفس الطـريقـة. ولكن ثمة أشياء لا يعرفهـا أحـد سـواي وتعجـز أي لوحـة عـن تصويرهـا: كيـف فاحت منه رائحة تبغ الغليون، ودندن بأغاني البحارة القديمة أثناء صعوده الـدَّرج، ماسـحا الدرابزيـن بيـده الكبيـرة. كانـت مشـاهدة المنـزل يتـم إخـلاؤه تعذيبـا؛ وقفـتُ علـى أبواب الغرف وهـم يضعون الأغطيـة الحاميـة مـن التـراب فـوق التماثيـل والطـاولات، ورجـال غربـاء يمشـطون الغـرف لتثميـن بيتنـا وحياتنـا، تقودهـم الخالـة كاسـاندرا. لكـن أسـوأ مـا فـي الأمـر كان نظـرة أولئك الرجـال لـي، وكأننـي مجنونـة، لأننـي كنـتُ حينهـا قـد فقـدتُ القـدرة علـى الكلام، وهمـتُ بيـن الغـرف كالظـل.

أخبرتنـي أمبروسـيا بعـد سـنوات، عـن شـائعة كانـت قـد سـمعتها فـي القريـة، تقـول أننـي أيضـا مـتُّ، وأن البنـت ذات الوجـه الأبيض الشـاحب والعينيـن المضطربتين كانـت شـبحا. لقد حسـدتُ شـقيقتي، لا علـى عربتهـا الأنيقـة، أو منزلهـا، أو حتـى علـى ثقتهـا والسـهولة التـي تنقلـت بهـا فـي العالـم. كلا، بل كل مـا حسـدتها عليـه هـو رؤيتهـا ليـوم الرابع عشر من حزيران يوما عاديا في التقويم، قد يشوبه حزن عابر على وفاة والدينا، إن تذكرت من أساسه. قد تطرق دلالة اليوم رأسها

وتغادره بنفس السرعة، لأنها لا تملك عنه ذكرى تتلكأ، أو تُدنِّس، أو تسمم. ذكرى تغير مجرى حياتها.

ما إن صار أبي وأمي نظيفين، حتى فركتهما برماد خشب، وأحضرت آغنس طبقا صغيرا فيه زيت لوز وكتان، استخدمتُ ريشة في دهنهما فوق كل الأجزاء لتلمع. وكنتُ أثناء عملي، أختلس النظر من النافذة إلى الشارع بالأسفل، فلا ألاحظ شيئا غريبا، عدا رجل وقف لخمس أو عشر دقائق أمام سور الرصيف المقابل، يدخن تبغا. كانت له بشرة باهتة، وشعر وحاجبين داكنين جدا، ويرتدي معطفا وقبعة أسودين، لكن ما جعله غريبا هو المشعل المنطفئ في يده. كان واضحا أنه حامل مشعل ينتظر أحدا، أو ينتظر حلول الظلام، وإن مازال الوقت مبكرا. كان بعد كل نفس يسحبه من غليونه، يحبس الدخان في فمه طويلا حتى لأكاد أظنه ابتلعه، ثم أجده وقد خرج من شفتيه في سحابات متقطعة. ولا بد أنه بعد نفسين أو ثلاثة، شعر بمن يراقبه، فرفع عينيه، ووجدني في النافذة. لم أتحرك، لكنه فعل، فسحب الغليون من فمه، وأدنى قبعته وابتعد متكاسلا في خطوات بطيئة. لم أستطع تخيل عمل أسوأ من عمله، الزحف في الظلام، دون علم بما قد يستقبله أو يستدبره.

وحين أعدتُ أبي وأمي إلى مكانيهما، كانت ساعة ونصف الساعة قد مرت. نحَّيتُ الخرقة والمئزر والقفازين، وأنا أشعر فجأة بالإرهاق الشديد. أخبرتُ آغنس أنني لن أحتسي الشاي في ذلك اليوم، لأن معدتي لن تتحمله. جلستُ في خلوة الضيوف، أتأمل الصورتين المُلمعتين حديثا، وانتظرت. كان البراندي قد هدَّأني.

ونيـران المدفـأة قـد جعلـت الهـواء سـاكنا ودافئـا، فشـعرتُ بعينـيَّ تُغمضـان، وتركـتُ النـوم يسـحبني.

***

قلق فـي المـكان. شـعرتُ بالهـواء يتحـرك، وفتحـتُ عينـيَّ على عتمـة؛ لـم يكن الليل قد حل بعد، لكن السـتائر كانت قد أُسـدلت حتى منتصفهـا أمـام النوافذ.

كان ثلاثة أشخاص ينحنون فوقي، وعلى وجوههم أقنعة.

عـدتُ إلـى وعيـي ببطء ثـم دفعـة واحـدة، وكأن مسـدسـا أطلق رصاصتـه فـي صـدري. غمرنـي الرعب، فسمَّرني إلـى مقعـدي وأمـال الغرفـة مـن حولـي، وأدار رأسـي فـي دوامـات. فتحـتُ عينـيَّ مـرة أخرى ورأيـتُ أننـي لا أحلـم؛ مـا زالـوا هنـاك، ينظـرون، يترقبـون، يبتسـمون مـن خلـف تنكرهـم المخيـف، علـى هيئـة مناقيـر غربان. ثلاثـة رجال، متأهبـون لقتلـي. كان شـخص يصـرخ، وحاولـتُ النهوض والغرفـة تتقافـز مـن حولـي مثـل كـرة. لقـد جـاءوا مـرة أخـرى مـن أجلـي. لقـد عادوا. إن الأمر يحدث بالفعل. فقدتُ الاتصـال بأطرافي، ولم أعرف إن كنـتُ أجلـس أم أقـف أم أسـقط أم أنهـض، ولكنهـم فجـأة كانـوا يمسـكون بـي، وكنـتُ أقاومهـم، أخدش وأصـرخ وأحتضـر. سـينطلق صـوت الرصاصـة فـي أيـة لحظـة؛ علمـتُ أنهـا فـي الطريـق، وكان كل خط في جسـدي مُسـتعدا لها. كنتُ مُتسـمرة في مقعد عربة، مُتخشـبة ومبتلة ببولي، وعلى جانبيَّ رقد أبي وأمي والحياة تنزف منهما، كثيفة وحمراء وتلطخ كل شـيء، تتسـرب من ملابسـهما عبر الثقبين اللذين

اخترقا جسديهما: أمي في رأسها وأبي في صدره. كان وجهي دافئا بدمائهما؛ التي غمرت عيني وفمي وكان عليَّ ابتلاعها. الرجال: كانوا ثلاثة. صعد أحدهم إلى العربة، وملأها بضخامته القاتمة، ففتَّش جسدي أبي وأمي، ونزع الخواتم والقلائد، وحتى دبوس شعر أمي، الذي شعرتُ به يترامى ويلمس كتفي. أخذ الحذاء ذي الإبزيم من قدمي أبي المتراخيتين، والنعل الرقيق من أمي، والجزدان من ثوبها، مُزمجرا ومُطلقا سبابا من خلف قناعه الأسود وهو يقذف بالأشياء من الباب لزميليه. وفي تلك الأثناء، ظل أبي وأمي ينزفان وينزفان، وصنعت دمائهما بركة أسفل المقعد، سالت من تحت أقدامنا. كانت أعينهما مفتوحة وخالية من الحياة.

مازال صوت الرصاصات يدوي في أذني، أعلى من أي شيء سمعته من قبل، مُعبِّئا رأسي كله بدوي يصم الآذان. كان طفل يبكي من بعيد. لكن هذا لم يكن جزءا من الذكرى؛ فأنا لم أبكِ، وأمبروسيا كانت في المنزل لإصابتها بالزكام. من الذي يبكي إذن؟ إنهم لم يطلقوا عليَّ الرصاص بعد، وربما لن يفعلوا، لو أمكنني فقط -

"سيدة كالاردا"

كانوا قد أمسكوا بي، وقاومتُ بكل قوتي. فركلتُ وعضضتُ ولكمتُ ومزقتُ، ثم وجدتني على الأرض، وأحدهم يُلصق خدي بالبساط. لم أستطع رؤية شيء، ثم حُرِّرت ذراعاي، وفي لحظة كنت أزحف وأمد يدي، وأجد محراك النار أمام سياج المدفأة، فقبضتُ عليه بقوة في كفي. ثم رحتُ ألوح وأطعن به، وأنا أنادي على آغنس وماريا بأعلى صوتي.

"ألكسندرا، لا!"

ارتطم محراك النار بقبضة قوية، وانتُزع من يدي. تشبثتُ وجذبتُ، لكن الرجل كان أقوى. كان كل ما رأيته في هلعي المريض الأعمى هو القناع الأسود الفظيع، وقبعة رجل ومعطف أخضر. ثم ألقي محراك النار على الأرض، وقُيِّدت ذراعاي إلى جانبيَّ، وأدركتُ أن شخصين منهم كانا يرتديان تنورة. تكيَّفت عيناي مع الظلام، وأمكنني رؤية أطولهما تلف ذراعيها حول بنت كانت تبكي.

"توجد طفلة بالداخل،" قالها أحد الرجال الثلاثة قبل ثلاثين عاما على ذلك الطريق في ديربيشاير، والذي تلوَّى كنهر عبر الهضاب الخضراء والوديان. والآن توجد طفلة هنا، في غرفة جلوسي، وقد رُفع القناع من على وجهها، وكانت جورجيت. والمرأة التي تضمها كانت إليزا، مربيتها، والرجل الذي يمسك بي كان الدكتور ميد صديقي. نظرتُ إلى كل واحد منهم في ارتباك، في رعب. هل بُدِّلوا أم بُدِّلتُ أنا؟ هل كنت طفلة في العاشرة، أم امرأة في الأربعين؟ أظلمت وجوههم إذ خبا الضوء، وعادت الغرفة تلف من حولي، وشعرتُ بنفسي أهوي، أهوي، أهوي.

***

استيقظتُ في غرفة نومي، في اللحظة التي كان الدكتور ميد يضعني في الفراش. ثم خلع نعليَّ، موليا المهمة عناية واهتماما كبيرين. لم يدرك أنني استيقظت وأراقبه، وعندما رآني وجدتُ وجهه يغمره من الحزن ما شطرني نصفين. ورحتُ أبكي: بكاءً مدوِّيا

وموجعا وهائلا جاء من مكان في أعمق أعماقي - ذلك الصدع، ذلك الشق الذي أخفي حزنا لم أتمكن قط من كشفه لأنه من يدري أين ينتهي وأبدأ أنا؟

"سيدة كالارد،" أتى صوته الرقيق. "هاكِ." مرَّر شيئا ما تحت أنفي وأخبرني أن أسحبه، فهبَّت ريح جليدية تخللت حواسي، وصفَّت عقلي وأدمعت عيني. كان يجلس على طرف الفراش ويده الدافئة على جبيني، وشيئا فشيئا توقف صوت الاختناق المريع الذي كنتُ أصدره. مسح خدي وأنفي بمحرمة ثم وضعها في جيبه. وعندما انتهيت، لم أستطع النظر إليه. كان يجلس قريبا جدا؛ كان حضوره مُكتسحا، ومُفثيا. أردته خارج غرفتي، وخارج منزلي.

"ارحل،" هكذا أخبرته.

تصلَّب جسده وأحدث السرير صريرا من تحته. أدرتُ وجهي وحدَّقت في الحائط على يساري، إلى صورة حلَّابتين تقفان على جانب الطريق.

"سيدة كالارد،" تحدث بصوت خافت، مليء بالعاطفة، "إنني في غاية الضيق من-"

"ارحل الآن،" همستُ، وأنا أحدق بشدة في دلاء الحلَّابتين، وتعابير وجهيهما الحالمة. "الآن."

ظل جالسا لحظة أو لحظتين، ثم وقف مرتجفا ويداه تتدليان إلى جانبيه. وقال: "سوف أعود بالدواء."

"إنك لرجل قاسٍ." التفتُّ لأنظر مباشرة إليه. كان وجهه في حال أفظع مما رأيتها عليه بعد موت جده. كان شعره مُشعَّثا، وياقته

ممزقة، وكأنه خرج من عراك في حانة شعبية. أدركتُ بفزع أنني لا بد فعلتُ ذلك. لم أر أثرا لمعطفه الأخضر، ولا بد أنه ألقاه ليحملني إلى الطابق العلوي. احمرَّ وجهي من أثر الخزي والاشمئزاز، وانفرجت شفتاه بلا صوت.

قال متلعثما: "فكرنا في مفاجئتك. اشترينا أقنعة من الحديقة؛ كانت فكرتي."

"إنك تعرف، أليس كذلك، أن والديَّ قُتلا أمامي على يد قطاع طرق؟ كانوا ثلاثة، في الواقع، يرتدون أقنعة. نهبوا جثتيهما ولم تبردا بعد. كنت أجلس بينهما."

انهار وجهه، وخطَّ الحزن والندم كل ملمح فيه. وقال بصوت أجش: "لم أعرف. لم يخبرني دانيال."

أجبتُ بمرارة: "حقا. كم هو مؤسف. لو أنه فعل، لكنا قد تجنبنا هذه التجربة كلها."

"لقد أخبرني أنهما ماتا في حادث عربة."

كان شعري قد أفلت من دبابيسه. كأن ما تعرضتُ له من إذلال لم يكن كافيا، فها أنا الآن مستلقية في الفراش، وشعري قد تناثر حول كتفي، وثوبي انحسر عن جسدي، في وجود رجل بغرفتي. كنتُ قد أخبرته منذ ساعات فقط، أن صداقتنا من ذهب، وآلامنا من غبار. حاولتُ إبهاجه عندما تركته يخرج مع خادمتي وابنتي. وها أنا الآن، محطمة كأنقاض سفينة، خاوية وجوفاء وغارقة في العار. اجتاحني غضب بارد، وأمرته مرة أخرى بالرحيل. حاول أن يحتج مرة أخرى، لكنني التزمتُ الصمت، وأخيرا غادر بانحناءة

مُذعنة. سمعتُ الباب يغلق برفق خلفه، وتكسَّر ألم الماضي برقة عند قدمي، ودعاني إلى الاغتسال في مياهه المغرية، وعدتُ للغرق فيه، وتركته يسحبني.

الفصل الرابع عشر



حاول الدكتور ميد زيارتي خمس أو ست مرات خلال الأيام القليلة التالية، لكنني رفضتُ استقباله. لزمتُ غرفة نومي، مُتنقلة في مثلث بائس من الفراش إلى كرسي النافذة وأحيانا الأرض، فأقلّب بين محتويات صندوقي الأبنوسي، أو أقرأ الخطابات القديمة، أو أنام. كنتُ أحيانا أحملق في السماء، ولا أتحرك حتى تغرب الشمس وتُضاء نوافذ المنازل المقابلة، التي تنقّلت ظلال ساكنيها من ورائها بلا احتراز. كنتُ أتناول الطعام في السرير، وأنهيتُ زجاجة براندي أعادت آغنس ملأها خفية عندما كانت ستائر فراشي مُسدلة. وفي الليل، كنتُ أسمع رجالا على الدَّرج. وأراهم عند النافذة بأقنعة سوداء ذات مناقير ترتطم بالزجاج أثناء تلصصهم. وذات مرة استيقظتُ ليلا موقنة بوجود شخص تحت سريري، فرقدتُ في الظلام، أبكي مثل طفلة، يعجزني خوفي عن التحقق من الفراغ المظلم أدناي. وعندما لم أجد هناك سوى كتل الغبار التي علقت بأصابعي، احترتُ هل أضحك أم أبكي أكثر. تبددت ثلاثون عاما في غضون أيام، فأعادتني قذفا إلى ذلك الصباح العاصف عندما انتهت حياتي بثلاث رصاصات.

وها أنا عالقة فيه الآن كذبابة في غراء. في كل مرة أخفض بصري إلى قميص نومي، كنتُ أتوقع فستانا حريرا لونه وردي من أسفله يبرز زوجا حذاء أسود صغير برقبة. وكان الفستان مخضّلا بالدم، وكأن عربة وطئت بعجلاتها بركة دماء كبيرة أثناء وقوفي على جانب الطريق. وخلال نومي المتقطع سمعتُ طلقات النار وصهيل الخيول، وشعرتُ بالرياح تدخل مصفّرة من الثغرات.

في اليوم الرابع نمت حتى الظهر. أصبحت غرفتي آسنة، ففتحتُ النافذة على مصراعيها ليدخل الهواء. كنا في أحد الأيام المكتومة والمثقلة بمطر محمَّل في الهواء مع غياب النسائم. أحضرت لي آغنس آنية فطور، وطلبتُ منها أن ترسل حوض استحمام وماء حتى أستحم. تمهّلتُ في تصبين شعري وجلدي، وجلست في الحوض حتى أصبح الماء باردا وصرتُ أرتعش. نظرتُ إلى ثوب نومي على السرير. وشعرتُ بكآبة لفكرة العودة إلى ارتدائه.

كنا الآن في آخر النهار، وتناهت إلى أنفي رائحة الطعام من المطبخ. وجعلني هذا أقرر: أنني مُستعدة لترك الجو الخانق لغرفة نومي والجلوس مُستقيمة الظهر أمام مائدة، بدلا من تناول الطعام في الفراش مُتهدّلة كشخص مريض. بدّلتُ ملابسي ونزلت، مُتجاوزة غرفة الطعام لأتحقق سريعا من الباب الرئيسي قبل أن آكل. كانت الشموع مُضاءة على منضدة الردهة، وكان الباب موصدا بالفعل. كل شيء كان في مكانه، إلا أن ثمة اختلافا ما. رفعتُ عينيَّ فإذا بي أنظر إلى زوج من الأعين الواسعة. وعلى الحائط فوق منضدة الردهة، كانت لوحة كبيرة بإطار مذهب لامرأة في ثوب أحمر تداعب كلبا. اقتربتُ منها في بطء شديد، وأنا أحاول تذكر كيف جاءت إلى هنا،

ولا أجد جوابا. كان تعبير وجهها حيويا ومرحا، وعند مرفقها الأيمن رقعة ملفوفة، وكأنها قوطعت في تلك اللحظة أثناء قراءة خطاب ما. استقر عند عنقها صليب كبير، يشبه في فخامته صلبان البابوات، وكانت ترتدي قلنسوة منزلية بيضاء. ثم لاحظتُ شيئًا آخر، ظننته في البداية جزءا من اللوحة: رسالة مدسوسة في الإطار، مغروزة بين القنَّب والخشب. استخرجتها وفتحتها.

عزيزتي السيدة كالارد،

تحدثتِ عن رغبتكِ في تزيين دهليز منزلكِ بلوحة أختارها من مجموعة جدي. وهذه اللوحة للراحلة ماري إدواردز بريشة ويليام هوجرت، هي اللوحة الأكثر قربا لقلبي، وأثق في أنها ستجد مُستقرَّها معكِ. شيء في أسلوبها يذكرني بكِ. آمل بصدق أن توافقي سريعا على زيارتي. أرغب بشدة في الإعرابِ عن عميق أسفي وجها لوجه، لأن رسالة - لا بل لوحة - لن تفي بالغرض.

المخلص دائما

إليوت ميد

منحني لوحة لهوجرت إذن. إن الاستغناء عن عمل بهذه القيمة من تركة جده ليس بالأمر الهين. أتخيل أن والدته نفسها قد أبدت بلا شك مقاومة هائلة، لا يضاهيها ربما سوى مقاومة بائع المزاد. ومع ذلك، فها هي هنا. عاينتُ صاحبتها، التي شبهها الدكتور ميد بي، إلا أنني لم أجد وجه شبه بيننا. حتى أنني لا أحب الكلاب.

وعلى مائدة الطعام، رفعت إليزا وجورجيت أعينهما في ذعر عندما دخلتُ الغرفة. كانتا مُنكفئتين على طبقيهما، مع سكين

في يد وشوكة في الأخرى، ومُستغرقتين في الحديث. كانت جورجيت تتحدث بصوت خافت، وعلى وجهها ابتسامة صغيرة وطبيعية، اختفت عندما دخلت. اتخذتُ مجلسي المعتاد وانتظرت دندنة آغنس العشوائية في الردهة، وأنا أعلم أنها تحمل آنية عشائي إلى الطابق العلوي. وعندما سمعتُ الدندنة ناديتها. ساد صمت قصير، تبعه: "سيدتي، هل هذه أنتِ؟" ظهرت آنية فضية عند الباب، عليها زبدية حساء وقطعة صغيرة من الخبز والجبن – طعام خدم، ظللتُ أتناوله لأيام، ولا يُقارن بطبق الكبد والبصل الكبير الذي كانت تنعم به جورجيت وإليزا.

صاحت: "سيدتي! لقد تحسَّنتِ. يسرني جدا أن أرى ذلك. دعيني أضع الأطباق لكِ." وشرعت ترتب مكاني بفوطة المائدة والزبدية.

"لستُ مريضة، يا آغنس؛ ولا أنا أريد أن آكل كالمرضى بعد الآن. سأتناول بعض الكبد، إن تفضَّلتِ بجلب طبق صيني."

أسرعت برفع ما كانت قد وضعته، بحمرة خجل انتشرت على عنقها. "حالا، يا سيدتي. تسرني رؤية شهيتكِ وقد عادت." ثم خرجت مُسرعة من الغرفة وزبدية الحساء تصلصل فوق الآنية، وجلس ثلاثتنا في صمت مزعج إلى أن عادت بأدوات المائدة، ورتبتها أمامي في مهرجان صغير. جلستُ مُتصلِّبة حتى وضعت آخر ملعقة، وأغلقت الباب برفق مبالغ خلفها كما قد يفعل شخص يغادر غرفة مريض.

سألتْ إليزا بلطف، وفي عينيها جدِّية: "هل أنتِ أفضل، يا سيدتي؟"

لم أقل شيئا، وشرعتُ بوضع الملفوف في طبقي. لم أكن قد نظرت إلى جورجيت بعد، خوفا من رؤية انعكاسي في عينيها. كانت قد طرقت باب غرفتي بحذر شديد مرة أو مرتين خلال الأيام القليلة الماضية، بتشجيع من إليزا ولا شك، لكنني لم أسمح لها بالدخول.

عادت إليزا للتحدث: "سيدتي. اغفري لي حديثي في غير أوانه، لكنني أعتذر بصدق عن ذلك اليوم. لم نكن نعلم أنه سيبعث كل هذا الضيق."

نظرتُ إليها بحدة. "ماذا قال لكِ الدكتور ميد؟"

ظهر عبوس بسيط عند حاجبيها. "أنكِ فقط حسبتنا لصوصا، وكان هذا ما جعلكِ..." ازدردت لعابها. "كان طيشا منا. لم نكن نعلم أننا سنخيفكِ لهذه الدرجة."

وجَّهتُ لها نظرة ثاقبة، وتساءلتُ إن كان إليوت ميد قد أخبرها بالحقيقة. ومن زاوية عيني رأيتُ وجه جورجيت الشاحب ونظرتها الداكنة المُتسعة.

قلتُ لإليزا: "إنَّ هذا الملفوف تنقصه الكريمة. هلا أعدته إلى المطبخ؟"

لم أتحمَّل ضغط شفقتها المُذلَّة. كان أسوأ حتى من الخوف الذي رأيته عندما أزالت قناعها. شعرتُ بأنني قاب قوسين أو أدنى من الانهيار مرة أخرى. نهضت إليزا وانصرفت بطبق الملفوف، مُغلقة الباب خلفها.

أهلتُ الطعام في طبقي، رغم شهيتي التي فقدتها تماما، وقلت: "أخبريني، يا جورجيت، كيف وجدتِ الحديقة الترفيهية؟"

أبقت عينيها على مفرش المائدة، وهي تجلس أمامي في فستانها الأبيض الناصع، قد تدلى شعرها في ضفيرة على كتف واحد، تخلله شريط وردي.

"ألم تكن مُرفِّهة؟" حاولتُ دفعها للكلام. تجمَّد فكها، واختلست نظرة إلى الباب. رميتُ شوكتي على المائدة.

"لا تبحثي عن مربيتكِ؛ وأجيبيني."

قالت بصوت بائس: "بلى، يا ماما."

"ما الذي أعجبكِ فيها تحديدا؟"

حدَّقتْ في حجرها. "أعجبني الخروج من المنزل. يوجد الكثير من الناس في الخارج."

"وهل كانوا يرتدون أقنعة؟"

همست: "كلا."

"وماذا رأيتِ أيضا؟"

وإذ أثار خوفها الاستجواب المباشر المقصور عادة على الدروس، فركت جورجيت بقعة على مفرش المائدة. وقالت: "أشياء كثيرة. رأيت كلبا طريفا، يشبه كلب الخالة أمبروسيا. وكانت هناك أوركا... أوركست..."

"أوركسترا؟"

"أجل، تعزف الموسيقى، كما في الكنيسة. وكان الناس يأكلون وهم واقفون."

وكان ذلك حين لاحظتُها: الفجوة في أسنانها الأمامية. كان لسانها الوردي يبرز منها مثل قصبة، مُضفيا على كلامها لثغة. مرقت

شظية رعب باردة من رأسي حتى أخمص قدمي وأنا أتذكر محراك النار، وسحبه، وضربه... أين؟

"متى فقدتِ سنَّكِ؟" تكلمتُ بخشونة، وتبدَّل استيعابها رعبا. وفي تلك اللحظة عادت إليزا، وغمرت الراحة ملامح جورجيت بصورة... أصبحت تخاف مني، وستظل تفعل.

"لقد فقدت جورجيت سنًّا." قلتها في صوت حاولتُ أن يبدو هادئا: "متى حدث ذلك؟"

"آه، بالأمس فحسب، يا سيدتي. بدأ يتخلخل منذ الاثنين، أليس كذلك؟ وليلة أمس انتثر لوحده." كانت مُبتهجة ومسرورة، كمن أراحها التحدث عن أمر مختلف، وأقبلت تقف خلف جورجيت وتمسك بكتفيها. "لقد احتفظنا به - أليس كذلك؟ - لنريه لكِ. فكرنا في أنكِ ستحبين رؤيته، بما أنه أول سن يقع."

لم أضربها في وجهها بمحراك النار إذن.

"كانت جورجيت تحكي لي عن الحديقة،" قلتها بجفاف. "أخبريني، هل كل من هناك يرتدون أقنعة؟"

قالت إليزا: "كلا."

"إنني أجد الأقنعة خطيرة. فهي تخفي من وراءها. والتخفي خداع كبير، ألا توافقينني؟ لماذا قد يخفي إنسان حقيقته، إلا لو أنه يضمر سوءا؟" مضغتُ ملعقة كبد، فوجدتُ جزءا غضروفيا وأزلته بأصابعي. "لا أعرف لماذا يرتدونها في الحفلات الراقصة وما شابه. لا شك أن المرء يفضل معرفة من يخاطبه."

قالت إليزا: "لم أذهب إلى حفلة راقصة من قبل."

بوسعي تخيل الحفلات المُتعارف عليها في طبقتها: شبيهة بالخدم في إطلاق العنان لأنفسهم، وسكب الجعة على الأرض، والكمنجات المجنونة، والفتيات تظهرن تنوراتهن الداخلية فيما ترقصن حافيات. أخذت إليزا تنقب في جيب تنورتها، وأخرجت شيئا يشبه عملة معدنية. كانت برونزية، منقوشة بشمس ملتهبة وعام ١٧٥٤، ومررته لي عبر المائدة.

سألتُ: "ما هذا؟"

فقالت: "تذكرة. لقد اشترى لنا الدكتور ميد حق دخول لمدة عام، في حال أردنا الذهاب مرة أخرى."

نظرتُ إلى جورجيت. "ولديكِ واحدة مثلها؟"

أومأت إيجابا.

"حسنا،" قلتها وأنا ألتقطُ شوكتي، وأسمع بثانية أو اثنتين من الصمت، "يمكنكما نسيان هذه الفكرة من الآن."

بعد العشاء ذهبتُ لأجلس إلى طاولة مكتبي، وانقضت ساعة ولم أكتب سوى "عزيزي الدكتور ميد" أعلى الصفحة. وضعتُ الريشة، ثم أمسكتها مرة أخرى، ونغزت معصمي بطرفها. ذهبتُ لأحضر خريطتي، ووجدتُ عليها شارع بيدفورد، وحدَّقتُ فيه حتى بدأت السماء تظلم. لم يسبق لي أن ذهبتُ إلى منزله، ولا حتى رأيته. لم يسبق لي أن جلستُ على أحد كراسيه، أو شربتُ من فنجانه، أو سمعتُ ساعته تدق. لم أعرف تخطيط غرفه، أو كيف تنقَّل بينها. أردته أن يطرق الباب حتى يمكنني ردُّه مرة أخرى.

سمعتُ جرَّ أقدام عند باب الصالون.

"سيدتي؟"

كان صوت إليزا. أذنتُ لها بالدخول، ومعها دخلت جورجيت في ثوب نومها، وضفيرتها الجميلة تنسدل فوق ظهرها. ابتسمت مُظهرة الفجوة في أسنانها، ومدَّت كفها نحوي. وفيها كان السن المفقود، صغيرا وأبيض، مثل كسرة خزف. أخذته منها وشكرتها، ووضعته أمامي على المكتب.

قالت إليزا: "جورجيت، امنحي والدتكِ قبلة قبل النوم."

قدَّمتُ لها خدي وتمنيتُ لها ليلة سعيدة، وانصرفت كلتاهما، مُغلقتين الباب من خلفهما. أضأتُ شمعة ورفعتُ ريشتي.

عزيزي الدكتور ميد،

أشكرك على اللوحة، وإن كنتُ لا أستطيع قبولها. لم أعتد هذه اللفتات الفخمة؛ فمجموع ما قدمه لي دانيال دليلا على عاطفته طوال الأعوام التي أمضيناها معا، كان قلبا مصنوعا من عظم الحوت، لم يعطني إلا نصفه. سأكون منافقة إن ذروتُ صداقتنا، لكني سأكون ممتنة إن سمحت لي بمداواة جروحي لأسبوع آخر أو نحوه. ثم يمكنك أن تأتي مُطمئنا.

صديقتك دائما

ألكسندرا كالارد

تركتُ الرسالة على منضدة الردهة لبريد الصباح، وصعدتُ بالشمعة إلى فراشي.

***

كانت الرياح هي ما أيقظتني، مُزعزعة إطار النافذة. تقلَّبتُ وحاولتُ تجاهل الصوت، لكنه تواصل، وفي لحظة ما أدركتُ أنه يأتي من داخل المنزل. قمتُ في ذعر، عاقدة حاجبيَّ في الظلام. صرَّت ألواح الأرضية في الطابق أعلاي، وفتحتُ ستار نافذتي لأنظر في الفناء الذي أضاءه القمر بنور خافت. كان خاليا. ولا بد أني غادرتُ غرفتي في نفس توقيت آغنس، لأنني وجدتها تهبط الدَّرج في ثوب نومها حاملة شمعة، وعيناها واسعتان من وراء اللهب. عاد الصوت مرة أخرى، وأدركنا في نفس اللحظة أنه كان مطرقة الباب.

سألتُ: "من بحق السماء قد يطرق بابنا في مثل هذا الوقت؟"

أيًا كان هو فقد واصل الدق دون استسلام. تنازعني الفضول والخوف، ووقفتُ متلكئة لبرهة أعلى الدَّرج وآغنس تهبطه، مُرتبة شالها حول كتفيها. أصبح الصوت أكثر إلحاحا، وسمعتُ آغنس تتمتم أنه لا بد ثري مخمور أخطأ المنزل بعد عودته من ملهاه. وقررتُ أن شخصا أراد نهبنا أو قتلنا لن يعلن عن مجيئه من الباب الرئيسي، وغلبتني الإثارة، فتبعتها، مُتخلفة عنها في الدهليز المظلم لأتركها تجيب الباب، وأنا أفكر في أقرب شيء يمكنني الإمساك به إن تعرَّضنا للهجوم: حاملات الشموع النحاسية على منضدة الردهة؟ وكان هناك خنجر محفوظ في أحد الأدراج بمكتب دانيال. ولكن أين المفتاح؟ ثم غلبتني المفاجأة عندما وجدتُ أنني لا أحتاجه، لأن الواقف على عتبة الباب في ضوء القمر لم يكن جارا مخمورا، ولا حتى حارس ليلي يحمل أخبارا عن جريمة، بل كان الدكتور ميد.

كان مُشعثا تماما، وفي عينيه نظرة مضطربة لرجل مجنون، وتجاوزنا مُقتحما المنزل.

"دكتور ميد! ما معنى هذا؟"

"وصلني خطابك،" كان كل ما صرخ به من فوق كتفه قبل أن يقطع الردهة مهرولا، ويصعد الدَّرج كل سلمتين.

أطلقت آغنس صيحة اندهاش، وهي تغلق الباب خلفها، وحدَّقت إحدانا بالأخرى في رعب أبكم. ثم همستْ هي في الظلام: "ماذا كتبتِ في خطابكِ، يا سيدتي؟ هل الصغيرة متوعكة؟"

"أي خطاب؟"

"ذاك الذي تركته على المنضدة هذا المساء."

شعرتُ بجبيني يتغضن في ارتباك. "كل ما قلته أنني لا يمكنني قبول اللوحة. ولكن كيف قرأها؟ ولماذا قد يأتي فجأة؟"

"لقد أرسلته، يا سيدتي؛ مرَّ صبي البريد وأنا أشدُّ الستائر."

ماذا كان يحدث؟ نظرت إلينا السيدة القرمزية من عليائها على الحائط بعينيها الهادئتين. ثمة خطب ما. غمرني الخوف بالكامل. وأزلجتُ الباب الرئيسي بأصابع متخطبة، ثم تلمَّستُ طريقي عبر الظلمة المخملية إلى السلم. تسلل ضوء القمر من الشراعة التي تعلو الباب، فأظهر الدرجات القليلة الأولى، ومع آغنس وضوء شمعتها خلفي، صعدتُ إلى فوق، وأنا أشعر كأن الدرجات قد صُنعت من رمل، حتى وصلتُ إلى أول بسطة.

"دكتور ميد؟" وبعد فينة سمعتُ قدميه تدقان الدَّرج، وظهر في الطابق الأول.

"ألكسندرا."

نُطقه باسمي الأول أرسل برودة في أوصالي. كان يأخذني من ذراعي الآن، ويصعد بي إلى غرفة نومي -لا، بل إلى غرفة نوم جورجيت- وشعرتُ مرة أخرى وكأني في حلم غريب، حلم غير مفهوم وربما لن يُفهم أبدا. ثم رأيت.

كانت الستائر في غرفة جورجيت مفتوحة، وتدفق ضوء القمر إلى الداخل، مُهيلا وهجه الفضي على السريرين، اللذين كانا خاليين، ومُرتَّبين بعناية، والوسائد مُمسَّدة ومُنتفشة. لقد نُفِّذ الأمر بروية؛ لم يكن الاستعجال في الخطة. وقفتُ مذهولة في المدخل، والأرض تميد بي قليلا. حاولتُ أن أفهم ما أراه، لأنه في الوقت الذي عملت فيه عيناي، توقف عقلي.

اختفى الدكتور ميد مرة أخرى، مُنطلقا في أرجاء المنزل ككلب بوليسي، فنظر في كل غرفة، وفتش الصالون، والمكتب، والمطبخ. سمعته يصفق الأبواب ويدقُّ الدَّرج بقدميه، وشعرت بتآكل صغير داخل دماغي، دودة تنخر تفاحة.

ثم عاد، منقطع الأنفاس، ووقف إلى جانبي، فلم أستطع رؤية وجهه. لم أستطع رؤية شيء؛ كنا في ظلام شبه تام، وإن ظلت شمعة آغنس مشتعلة، ترتعش في الظل.

قال: "إنها إليزا."

"أين هي؟"

بدا قلقه مبالغا حول خادمة هربت أثناء الليل. ليتني فقط أرى وجهه!

سألتُ بغباء: "أين جورجيت؟"

وحينئذ اقترب مني، وأخذ يدي بين يديه. عندها فقط استوعبتُ الرعب في عينيه. "جورجيت،" قالها وفي صوته توسل. "هل هي ابنتك؟"

لم يسبق لي أن شعرتُ بمثل الصدمة التي شعرت بها. ثم: بارقة من التجلّي، كأول فلقة من ضوء الفجر.

ألح: "أجيبيني! هل هي ابنتك؟"

سحبتُ يديَّ من يديه. "ما معنى هذا؟ أين هي؟ لا بدَّ أنها بالمنزل في مكان ما."

"ألكسندرا، عليكِ أن تجيبيني! هل جورجيت—؟"

صرختُ: "لماذا تسألني هذا السؤال؟" دوّت في أذني أجراس بعيدة، أجراس مُحذِّرة. وبدأ رعب بطيء يغمرني.

"لقد تركت إليزا طفلة في ملجأ فاوندلينج قبل ستة أعوام. وكانت العلامة التي تركتها هي نصف قلب، مصنوع من عظم الحوت."

بدأتُ أرتجف.

هذا مستحيل.

ودون تفكير، دفعتُ باب غرفتي، التي أضاءها ضوء القمر، وأخرجتُ الصندوق الأبنوسي الصغير. كنتُ أعرف ماذا سيكون مفقودا، مثلما عرفت شخص اللوحات في الغرفة، لأنهم شهدوا حدوثه. ربما عرفتُ بالفعل منذ رأيت السريرين الخاليين -لا، بل قبل ذلك- منذ بدأ الدكتور ميد يدق الباب. وربما قبل ذلك أيضا؛ جزء صغير مني عرف أن هذا اليوم سيأتي، ومع ذلك لم أكن مستعدة له.

العينـان الداكنتـان الواسـعتان، اللمعـة الحمراء في الشـعر الكستنائي، النمش. القهقهـة خلف الأبواب كالعشـاق والرقص كالشـقيقات. الليلة التـي بحثـت فيهـا عن صـورة دانيال بشـمعتها المُسـترقة. امتقاع وجهها كلما دخلتُ الغرفة. وإشـراقة وجهها كلما أشرق وجه جورجيت. إليزا. بيس. إليزابيث. نمـا الإدراك وفاض كالحبـر فـي المـاء، كالدم. كنـت المـاء؛ وكانت هـي الدم.

بحثـتُ فـي الصنـدوق بأصابـع هوجـاء عـن نصفـي القلـب المصنـوع من عظم أبيض والمنقوش بالأحرف الأولى لاسمي عاشقين، وعـن الشـارة المعدنيـة الصغيـرة في سلسلة، وتحمل رقـم ٦٢٧، لكنهم اختفـوا جميعـا بالطبع.

"امنحي والدتكِ قبلة قبل النوم،" هكذا قالت إليزا لجورجيت. كانت أمُّها هنا طوال الوقت. وها هـي العاهرة قد أخذتها.

الجزء الثالث



بيس

الفصل الخامس عشر



"**أنتما** على ما يرام، يا فتيات، طالما لزمتما جانبي. سوف أضيء مشعلي حالما نصل جنوب هولبورن. وحينها سنتخلل شوارع متشابكة بسرعة كبيرة حدَّ إصابتكما بالدوار، ما قولكما؟"

تشبثنا كظلَّين بلايل، حامل المشعل الذي تعرفتُ عليه عندما كنتُ في بلومزبري، والذي قادنا عبر الشوارع المظلمة. كنتُ أضع ذراعا حول كتفي جورجيت الصغيرتين. وفي الأخرى، حملتُ الجِوال القماش الذي كنتُ قد جئتُ به، مُعبَّأ الآن بمتاع مختلف، من ملابس داخلية، وفستان إضافي، وجوارب وأحذية، وأغراض أخذتها من حجرة المؤونة - خبز، وفطيرة لحم باردة، وزجاجة بيرة وتفاحتان وخبز زنجبيل ملفوفا في ورق.

كانت الليلة باردة، والشوارع خالية. لا أحد يغادر منزله بعد حلول الظلام، الذي فيه تخرج كائنات لندن الليلية من جحورها ويلوح الخطر داخل كل زقاق، حتى هنا في هذه الشوارع الواسعة الفاخرة اقشعرَّ جلدي من الخوف. خاصة هنا - كان بضعة من يسيرون فرادى في الأغلب خدما يحضرون التبغ لأسيادهم، أو رجالا عائدين من

ملاهيهم، إلا أن شيئا في الصمت أثار اضطرابي حتى تقتُ إلى الأبواب المفتوحة المضيئة والشوارع الصاخبة للودجيت هيل. قريبا نصله؛ كان لايل يأخذنا إليه، ومع كل خطوة زدنا منه اقترابا، وعن شارع ديفونشاير بُعدا. خلت الأصوات في المكان سوى من وقع أقدامنا على الطريق، وأنفاسنا في حناجرنا. راقبتنا النوافذ المظلمة، وزجاجها الداكن مثل عينين مجوفتين.

سأل لايل، بصوت تصادى في الطريق: "أتظنينها كشفت أمركِ بعد؟"

أسكتُّه. ثم قلتُ بفحيح: "ليس هنا".

كنتُ قد تعرَّفت عليه منذ بضعة أسابيع فقط، ولكن ها نحن ذا نضع ثقتنا وحريتنا بين يديه. التقيتُ لايل ذات ليلة من بعد مجيئي إلى منزل السيدة كالارد، عندما خنقني الإحساس بالغربة وأنا على فراشي وشعرتُ بأنني أُدفن حيَّة. فأخذتُ المفتاح من الجرَّة في ملحق المطبخ وخرجتُ أقف على سلم القبو، لمجرد أن أشعر بالبرد يلمس ذراعي وهواء الليل يحرك شعري. وأثناء جلوسي أعلى السلم، أتأمل الطريق الخالي، نادى صوت، "أتحتاجين إلى ضوء؟"، وظهر لايل مُلوحا بمشعله المُطفأ كسيف. فقفزت، ووضعتُ يدا على فمي، عالمة أن صرختي سوف توقظ المنزل، والمنازل المجاورة.

قلتُ بفحيح: "كلا. وانصرف هيا."

تجاهلني. "دخَّان؟" وعرض عليَّ غليونه، فهززتُ رأسي وأنا أرتجف. أردتُ العودة إلى الداخل لكني علمتُ أني عندما أفعل سينغلق التابوت عليَّ ليوم آخر. كان أسمرا – أجنبي المظهر، ببشرة

صفـراء وملامـح غليظـة، لكنـه تكلـم بمثل لهجتـي. كان يرتـدي طاقيـة سـوداء، يشـدها علـى وجهـه، ومعطفـا أسـود نحيلا ناسـب مقاسـه. كان كل شـيء فيـه مشـوبا بالظـل، وكأن الليـل هـو مـن خلقـه، وإن شـاء ذاب فيـه مـرة أخرى.

اسـتند بتكاسـل علـى السـور، وتأملنـي مـن خلـف غليونـه. "لا أظنـكِ مومسـا تنتظـر ثريًـا، بالنظـر إلـى ثـوب نومـكِ الـذي يبـرز مـن عباءتـك." أحكمتُ إغلاقهـا حـول جسـدي بوجـه احمرَّ غضبـا، فأرجـع رأسـه للخلـف وضحـك بصـوت أعلـى ممـا ينبغـي. "ناهيـكِ أننـا بعيـدون جـدا عـن شـارع المومسـات. وهـذا عظيـم،" ثـم أومـأ برأسـه إلـى المنـزل، "لكنـكِ لا تبديـن صاحبـة مصنـع أيضـا."

"لستُ لصة."

اسـتطرد قائـلا: "تخمينـي إذن، لأننـا فـي الظـلام كمـا تريـن، ولا يمكننـي تكويـن انطبـاع بصـورة ملائمـة، هـو أنـكِ عاملـة نظافـة، وتنتظريـن أحدهـم."

"أنـا مربيـة أطفـال،" قلتهـا بحـدة. "لكنـك رجـل ثرثـار، وأريدك أن تغرب عن هنـا."

"من تنتظرين إذن؟ حبيبك، أليس كذلك؟"

"كلا."



"زوجكِ، إذن؟"

"لو كنتُ متزوجة لما وجدتني هنـا، ألا توافقنـي؟"

"إنها ليلة سعدي إذن."

وختـم هـذا بغمـزة، ثـم مضـى مبتعـدا دون أن ينظـر خلفـه. رأيته

مرة أخرى بعد عدة ليال، ينتظرني على الجهة المقابلة من الشارع، وهو يتكئ على سور الرصيف، وابتسمتُ رغما عني. كان اسمه لايل كوزاك. وكان لا يوقد مشعله قط أثناء حديثنا، تجنبا للأعين التي تنشده. أصبح حامل مشعل –أو لقّان القمر كما يطلق على نفسه، لأن العمل يشحُّ في الليالي الصافية– منذ أن كان في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره. وهو الآن في الثالثة والعشرين، ويجلب إلى بيته دخلا يوازي دخل أبيه، الخياط. جاء لايل مع أبيه وأمه إلى لندن منذ عشرين عاما من بلغراد، وعاش في سانت جايلز معهما ومع إخوته الصبيان والبنات. كان أكبر إخوته، وعمل في الليل حتى يستطيع رعاية الصغار في النهار. أخبرني أنه لا يحتاج سوى لثلاث أو أربع ساعات من النوم، وأنه قد يغفو على حبل الغسيل، بوجود عائلة كبيرة كعائلته، وما صاحبها من فوضى وضجيج. كانوا يتحدثون الصربية في المنزل، وتعلم هو الإنجليزية في الشوارع، مُقلدا اللهجة ومُضفيا عليها نكهته. وكانت الكوكنية أكثر لهجة أعجبته، فجمع الكلمات والعبارات كالمُكتنزين. وكان يحمل مسدسين، كلاهما رخيص، وقد ينفجر إن أطلقه، لكنه لم يضطر إلى ذلك قط، حيث كان يكفيه أن يسحب واحدا لينكص المجرمون على أعقابهم ("وإذا لم يصلحا لإطلاق النار، فهما كافيان للتهويش،" هكذا أضاف بسلاسة). عرفتُ كل هذا في لقاءاتنا تحت ضوء القمر. كنا نجلس في أغلب الأوقات على سلم منزل رقم تسعة، الذي أخبرتني ماريا أن سكانه كانوا في أوروبا. تشاركنا تدخين غليونه، وكنتُ أحيانا أحضر لنا شيئا نتناوله: زجاجة بيرة من مؤخرة حجرة المؤونة والتي كنتُ بعدها أملأها بالماء حتى لا تلاحظ ماريا شيئا، أو كعكة من الفطور كنتُ أقسمها نصفين.

حكيتُ له عن ألكسندرا كالارد، وكيف تمسد صور والديها الميتين لكنها لا تستطيع لمس ابنتها. حكيتُ له عن جورجيت، كيف تحب الحيوانات وقراءة القصص وأكل البرتقال بالكريمة. حكيتُ له عن مجيء نيد إلى الفناء الخلفي وطلبه للنقود، الأمر الذي كاد يكلفني عملي. ذات ليلة قررنا السير حول الميدان، بعد أن لمحنا ضوءا في أحد المنازل، وحينها أخبرته بخطتي للهرب بابنتي وإعادتها للمنزل. نعتني بالجنون. وعندما عرض مساعدته، وافقت.

ثم هاجمتنا السيدة كالارد. تحولت الفراشة إلى حيوان مفترس. كانت في عينيها نفس نظرة بقر سميثفيلد عندما يُساق إلى السلخانة؛ حتى أني رأيت بياض عينيها. كانت امرأة خطرة بلا شك. أي أمٍّ تلك التي تأخذ محراك نار لتضرب به طفلتها؟ لم تكن مأمونة، ولا نحن كنا آمنين في ذلك السجن العالي، تلك الزنزانة التي تعلو الأرض وبداخلها تنينها النائم. من يدري متى يستيقظ مرة أخرى؟ كانت جورجيت، جورجيت المرتعبة الواجفة –وكان هذا هو الاسم الذي خاطبتها به لشهر واعتدته الآن، وإن كانت ستبقى دائما جين بالنسبة لي– قد خرجت تاركة الأم التي ألفتها وعادت لتجد وحشا. قتلت المسكينة نفسها بكاءً، وناحت بين ذراعي حتى نامت، وجسدها الصغير الرطب المُرتجف يتشبث بجسدي. وفي الصباح، عرفتُ أن علينا أن نرحل؛ أكمل العقرب دورة كاملة، وحانت ساعة الصفر.

كانت المشكلة أني وجدتُ الحياة في شارع ديفونشاير مريحة. أنا وجدتني مرتاحة: اكتنز جسدي مع كل الكريمة، ولمع شعري من أثر الصابون. ازدادت يداي نعومة، وذهبت عني رائحة ماء البحر.

اعتدتُ السجاد تحت قدمي، والغرف الدافئة، والمائدة العامرة. كنتُ راضية في غرفة النوم الصغيرة تلك، حيث أقمنا ولعبنا ونمنا وغنينا. كنتُ مستعدة للبقاء هناك للأبد، فأقفل الباب وأبتلع المفتاح. بيد أن ثمة أشياء لم أعرفها بعد: كيف أُخرجت جورجيت من فاوندلينج وذهبت للعيش في ذلك المنزل. كيف عرفت السيدة كالارد بوجودها، دون أن تعرفني. شخص آخر كان يعرفني، مع ذلك.

شعرتُ بتوتر بالغ من أن تتعرَّفني وأنا أخطو إلى داخل بيتها. إلى الخُلوة كما سمَّتها. وهو وصف جدير بأن يُطلق على المنزل كله. لم أكن أعرف أن بوسع امرئ أن يعيش بهذه الطريقة، فيختار بملء إرادته أن يخلو بنفسه عن العالم، ولا يخرج أبدا. كان الطعام يأتي إلى باب المنزل، والمال من المحامي. والشاي من الصين، والبراندي من فرنسا. لم أر لها عائلة، ولا أصدقاء يزورونها بعد الظهر. ومع ذلك فقد بدت... قانعة.

إلا أنَّ جورجيت لم تكن كذلك. شعرتُ يوم قابلتها أنها تمنَّت حياة مختلفة. كانت تعرف الفرنسية، والموسيقى، وتستطيع قراءة كلمات أطول من ذراعي، لكنها لم تكن تعرف ما يعنيه دفع طارة في الشارع، أو إطعام تفاحة لحصان، أو صنع كرة ثلج. كانت خجولة في البداية، وتعيش بين كتبها، وسألتني إن كنتُ رأيتُ من قبل غابة أو نهرا أو قاربا. طفلة لندنية ولم تر قاربا! كان الشك أحيانا يشل تفكيري في قدرة هذه المخلوقة الفضَّة والناعمة على البيع معي في الشوارع، بسلة ليمون صغيرة في ذراعها. كان ذلك أشبه بأمر قد تقرأه في واحدة من قصصها. فوطَّنتُ نفسي لأكثر من مرة على

البقاء مربّيتها إلى أن تكبر، ونعيش أيامنا في نعيم وهناءة على حساب السيدة كالارد. وهكذا تستطيع جورجيت عندما نغادر، أن تحصل بلهجتها الراقية ووجهها الجميل على وظيفة وصيفة. وكان هذا أفضل ما يمكنها أن تطمح إليه وهي معي.

ولكن حينها كانت الجدران ستُطبق علينا داخل قضبان سجننا، ويزداد غضبها وبكاؤها، وتتعلّق بي بطريقة تجعلني تعيسة، لأن هذا المكان لم يختلف عن سجن، أو مارستان. كان كفيلا بإفقاد المرء عقله. حتى أني لم أعرف إن كانت السيدة كالارد نفسها مجنونة في الأصل، أم أودت بنفسها إلى الجنون. بدا يقينا أنها تشغل نفسها بخطاباتها وجرائدها. ولكن ما فائدة الورق وهناك عالم في الخارج؟ كان صديقها الوحيد هو الدكتور ميد، الذي تغاضى عن سلوكها الغريب، لكني أعتقد أنها كانت تسلّيه.

دكتور ميد المسكين – كيف خدعته. لو كانت في قلبي مساحة للندم على استخدام حيلة قذرة كهذه، لندمت. لكن المكان لم يتسع له، لأن قلبي كان ممتلئا بابنتي. ابنتي، التي حلمت بها طيلة الأعوام الستة السابقة، وأحببتها أكثر مما وسعني التخيل. ابنتي، التي صنعتها والتي كبرت في أحشائي، والتي كلما سارت إلى مكان أخذت معها روحي. شعرها الداكن الذي تموج على ظهرها، ويداها الدافئتان، وهما تجدان يدي، وتثاؤبها إن أرهقتها القراءة. قدرتها على القراءة في الأصل – كنتُ فخورة بها وكأنها تستطيع الطيران. كيف يتسع المكان لحزن أو ندم أو شفقة؟ لم أكن قد وقعتُ في الحب، حتى الآن. في كل مرة ضحكت، أو أرتني رسمة، أو قادتني إلى جحر

فأر في المطبخ - كدتُ أختنق. "أنتِ ابنتي،" أردتُ أن أقولها لها منذ أول ليلة انتقلت فيها إلى المنزل. "أنا أمُّك."

ثم وبدون ترتيب، قدَّمت الفرصة نفسها. في وقت النوم، بعد ما يزيد قليلا عن ثلاثة أسابيع من وصولي، كنا قد انتهينا من لعب الورق، وألبستها ثوب نومها. جلستُ إلى جوارها على الفراش بشمعة فيما قرأت عليَّ قصتها المفضلة، وهي حكاية خيالية من مجلة أطفال عن بنت مدللة تدعى بيدي جونسون. وكانت قد قرأتها لي مرة من قبل، لكنني كنت متعبة، وبالكاد أنصتُّ إليها وهي تسرد مغامرات بنت هربت من مربيتها وتاهت في لندن. وبعد أن أخذت برتقالة من شخص غريب، اختطفت عصابة لصوص المدللة والغبية بيدي، فأخذوها إلى الريف وحاولوا قتلها. إلا أن البطل النبيل تومي تراستي أنقذها في آخر لحظة، فانطلق بها عائدا إلى لندن وردَّها إلى عائلتها. لم تعرف جورجيت كل الكلمات واضطرت لتجاوز بعض الجمل، وعندما انتهت وضعت المجلة على غطاء السرير واستكانت قربي. كنتُ قد استغرقتُ في التفكير، فجذبت كم ثوبي.

وسألت: "هل تحبين البرتقال، يا إليزا؟ أظنني أحبه لأن بيدي جونسون أكلت واحدة."

حدقتُ في مربع السماء المظلمة الذي يظهر من النافذة، وأملتُ ألا تشعر بالدقات القوية لقلبي. وقلت: "أحبه."

تابعت في صوت ناعس: "إنني أحبه مع الكريمة. ويمكنكِ وضع فصوصه بالعرض في فمك فيبدو وكأنكِ تبتسمين. هكذا." واستخدمت أصابعها لجذب زاويتي فمها في تكشيرة مضحكة،

فابتسمتُ، وسألتُ نفسي هل حانت اللحظة، أم هناك لحظة أفضل.

"جورجيت،" قلتها، فخرجت همسا. "هل فكرتِ يوما في الهرب؟"

كان وجهانا قريبين، وأنفاسها عذبة على خدي. اتسع بؤبؤا عينيها الداكنين ولمعا بقلق. هزَّت رأسها قليلا، واستطعتُ أن أشم رائحة الصابون في شعرها الذي غسلته لها في الليلة السابقة. ثم أومأت برفق، وشدَّت ذراعي إليها مرة أخرى، لكنها تحاشت النظر في عيني.

همستُ: "أنا أيضا فكرت."

قالت بصوت خافت: "لا ترحلي أرجوكِ."

تململتُ فوق السرير الضيق، وتنشقتُ رائحة النوم الدافئة التي تفوح منها، وأحطتها بذراعي. "لو رحلتُ، فهل ترحلين معي؟ يمكننا أن نرحل معا." أنا أمُّكِ. هل يُصاغ ذلك بكلمات أخرى؟

نظرت إليَّ بتفكُّر. "مثل بيدي جونسون وتومي تراستي؟"

"مثلهما تماما." كان صوتي قد بات من الخفوت حتى بالكاد سمعته. "جورجيت، ماذا لو أخبرتكِ أنَّ..." نهضتُ من على الفراش وركعتُ على الأرض لأراها أفضل. كانت متكئة إلى قائمة السرير، والتفتت بوجهها نحوي، نظيفة وبريئة في ثوب نومها الأبيض. وقد عرفتُ أنَّ ما سأقوله مهم جدا، لأن وجهها الصغير أصبح جادا ومهموما، وكأنها فهمت بطريقة ما أن كلامي سوف يغير حياتها.

"هل أحكي لكِ قصة؟"

أومأت، فتناولتُ يدها.

وقلتُ: "كان يا ما كان، بنت تعيش في منزل كبير على أطراف لندن. في نهاية شارعها مرج فيه بقر، وفي نهايته الأخرى ميدان بسور أسود وأشجار سامقة. كان لديها كل شيء أرادته: خدم وفساتين حرير وشرائط في شعرها. ولديها سلحفاة وعصفور في قفص ذهبي. كانت تشرب شوكولاتة في الفطور وتأكل مربى برتقال كل يوم. عاشت أميرة، لكنها كانت وحيدة، ولم تغادر المنزل قط. جلست أمام النافذة وشاهدت الناس يجيئون ويذهبون في الشارع. أرادت أن تكون بينهم، وحلمت أنها يوما ما ستأتي أمّها الحقيقية وتنقذها.

"وذات يوم، أخبرتها أمها أنها ستحضر مربية. وكانت المرأة التي جاءت لتعتني بها تملك مثل شعرها الداكن، الذي لمع بحمرة في الشمس، ومثل عينيها البنيتين. تناولتا كل وجباتهما معا، ولعبتا بالدمى في غرفتها، وكانت البنت تقرأ لها، لأن المربية لم تكن تحسن القراءة. وذات ليلة، وقد التحفتا جيدا في الفراش والبنت بين النوم والصحيان، همست لها المربية: "أنا أمكِّ الحقيقية، وقد جئت لأخذكِ معي." وضعتا خطة للهرب معا، ثم في ليلة من الليالي دسّتا أمتعتهما في جوال ورحلتا. ولم ترهما سوى النجوم، وأمر القمر النجوم ألا تخبر عنهما."

وقع الصمت سريعا وعميقا. لم تتحرك، أو تتنفس، عيناها الداكنتان خائفتان، وشفتاها مزمومتان في سؤال. انتظرتُ، وراقبتُ، وأنا أقاوم الرغبة في مد يدي إليها.

"أنا أمُّكِ،" همست أخيرا. "تركتكِ في ملجأ عندما كنتِ رضيعة، وأخذتكِ السيدة كالارد إلى منزلها لتعتني بكِ. من أجلي. كنتُ سأعود عاجلا أم آجلا، أترين؟ وها أنا هنا."

رمشتْ في ارتباك مرة، مرتين. ثم بدأ عبوس صغير يظهر بين حاجبيها. وسألتْ: "هل هذا صحيح؟"

أومأتُ. أدركتُ أنها في حاجة للمزيد؛ كنتُ قد أعطيتها حكاية، وهي الآن بحاجة للحقيقة. عدتُ لاعتلاء الفراش وضممتها، فتركتني أفعل، وأراحت رأسها على صدري. كان قلبي ما يزال يدق بعنف، وهمستُ فوق صخبه.

وقلتُ: "عندما ولدتِ، دثَّرتكِ في حِرام وسرتُ رفقة أبي – جدكِ، وأدعوه إيب– من منزلنا إلى ملجأ فاوندلينج، التي نذهب إلى كنيسته. إنهم يعتنون هناك بالرضَّع، إلى أن تصبح أمهاتهم قادرات على استعادتهم. لذا عندما ولدتِ، في السابع والعشرين من كانون الأول، أخذتكِ إلى هناك، ليعتنوا بكِ. وتركتُ معكِ شيئًا عزيزا جدا، أعطانيه والدكِ: قلب أبيض، بهذا الحجم." ورسمتُه على باطن كفها. "قسمه إلى نصفين، في خط متعرِّج هكذا، وأعطاني أحد النصفين، واحتفظ لنفسه بالآخر. وفوقه نقش بمطواته الحرف ب اختصارا لاسمي، بيس. ونقشتُ أنا تحته الحرف ج، اختصارا لاسمكِ، والذي كان جين في ذلك الوقت."

كانت مثل بومة رضيعة، لا شيء يظهر منها سوى عينين. وهمستْ: "اسمكِ بيس؟"

"إنه إليزابيث. لكن بعض من يحملن اسم إليزابيث يُدعون إليزا، والبعض الآخر يُدعون بيس، وأخريات ليز، أو ليزي، أو بيث، أو بيتسي. أسماء كثيرة يمكن اشتقاقها من إليزابيث. إنما عليكِ مُخاطبتي إليزا هنا. هل تعدينني؟ أنا إليزا الآن."

أومأتْ، وعانقتها بحرارة.

سألتني، "هل أبي هو نفسه؟" وأجبتها أن نعم، كان نفسه، وكان سيحبها لو عرفها. أنصتت برصانة، ثم قالت: "ماذا حدث بعدها؟" مسَّدتُ شعرها الغامق الكثيف وأخبرتها كيف وعد الملجأ برعايتها نيابة عن أمِّها، إلى أن تصبح جاهزة لاسترجاعها.

"وها أنا هنا،" قلتها، وتهاوت الكلمات بيننا، فحطَّت على الفراش كالحجارة. "أعرف أنكِ تحبين الحكايات، لكن هذه هي الحقيقة."

أوت إلى الفراش في تلك الليلة دون تغيُّر بادٍ، وإن استغرقها التفكير، وبعد أن أغلقتُ الستائر بقليل، ورقدتُ مستيقظة في فراشي، أفكر مليًّا فيما فعلت، سمعت صوتها الخافت عبر الغرفة.

همست: "إليزا."

"ماذا؟"

وأمام دهشتي، أمرتني ألا أتحرك من مكاني، وكنتُ من الصدمة حتى لم أفعل شيئا آخر وهي تنزل من فراشها بساقين سريعتين وخفيفتين وتنطلق إلى الباب. رقدتُ في مكاني، أنصت إلى قدميها، ولم تمضِ دقيقة حتى عادت، فأغلقت الباب وهي تحمل شيئا خلف ظهرها. اقتربت مني، وكان وجهها متهللا بانتصار مشرق بريء.

همستُ لها: "إلى أين ذهبتِ؟"

"غرفة ماما".

"وأين ماما؟"

"في الصالون."

مدَّت يدها المضمومة، وبسطتُ يدي تحتها، فسقط فيها شيء - جامد وصغير وحاد. كان جسما صلبا ككسرة خزف، واستغرقتُ برهة حتى أدركتُ ماهيته. فلم أستطع سوى التحديق فيه، ثم في وجهها، ثم مرة أخرى في الشكل المتقوس الذي حملته بين سبابتي وإبهامي. كان كما تذكرته بالضبط - الباء الأنيقة، والجيم البدائية التي حفرتها بسكين تقشير في بيلينجزجيت، عندما كانت بطني كبيرة.

لم أقل شيئا، لكني شعرتُ، أخيرا، وكأني اكتملتُ من جديد.

أعادت جورجيت العلامة قبل أن تشعر السيدة كالارد باختفائها، لكن علمي بوجودها في المنزل أصابني بالأرق والتململ. كانت العلامة تناديني من غرفتها، وكأنها قطعة جُذَّت من عظمي وأُخفيت. وقد زاد وجودها في مكان مُغلق من رغبتي فيها، وقد حانت اللحظة أخيرا.

فاجأتني رؤية السيدة كالارد وهي تلج غرفة الطعام، جافَّة ومُترفعة بعد سلسلة الأحداث التي وقعت قبل بضعة أيام. كان المنزل محتبس الأنفاس مع توعك سيدته، وقد أعاد وجودها التوازن مرة أخرى، وإن كانت مُتحرِّقة بالخوف والكبرياء، وقلقة بوضوح من الصورة التي رأيناها فيها. عندما أرسلتني في مهمة تافهة إلى المطبخ، وجدتُ فيها فرصتي. فصعدتُ السلم خلسة وتوجهتُ بخفة إلى غرفة نومها، والتي كانت لحسن حظي غير موصدة. كنتُ قد دخلتها مرة من قبل، عندما أمرتني بحبس جورجيت في غرفتها، وكانت حينها مكانا مختلف تماما عن الآن، حيث ارتمت أغراضها

في فوضى، وتشعَّث سريرها وأُلقيت ملابسها الداخلية في كل مكان. استقر دورق كريستال على مزينتها وبداخله مقدار بوصة من البراندي، وتناثر ورق مكوَّر وقناني حبر على كل الأسطح. كانت حجرة سمتها الإهمال والتسيب: تحول لباب كمثرى إلى ملش، وذابت صابونة على طبق جوار حوض استحمام نحاسي. كانت السيدة كالارد التي ظهرت للعالم منتصبة القامة ومنظمة، كانت في السر قذرة.

أخبرتني جورجيت عن الصندوق الأبنوسي، ومفتاحه الذي احتفظت به على مزينتها. ولوهلة تمنيتُ لو أستطيع الجلوس أمام مرآتها وأضع لآلئها على عنقي، لكن الوقت لم يسمح. وجدتُ المفتاح في علبة مبطنة بالمخمل تفوح منها رائحة خفيفة للبسكويت الأسفنجي وذهبتُ إلى مكتبها، فأخرجتُ الصندوق الأبنوسي المزخرف بأشكال يابانية وفتحته بأنفاس متلاحقة. فتَّشتُ بين تذكاراتها، بشعور بسيط بالذنب، وبحثتُ عن شيء أبيض وسط الذهب والمينا. بيد أني وجدتُ قبله شيئًا آخر لم أكن أتوقعه: الشارة المعدنية الصغيرة، برقم ٦٢٧ مختوما عليها. اعتصرتها في يدي، فشعرت بها حقيقية وصلبة في كفي، وحينها رأيت النصف الثاني: النصف الأيسر من القلب، أبيضا ومُشعًا، كقطعة من القمر. مررتُ إصبعي فوق الشكل المحفور عليه وعرفتُ أنه حرف الدال من كتب جورجيت، تلك التي صارت لا تناسب سنها الآن، وتستقر على الرف دون أن يقربها أحد: دال دجاجة. دال دلو. دال دانيال. السيدة كالارد تملكه. لقد منحه لها. ثم لفت انتباهي شيء آخر في الصندوق: طرفا من وجه، ينظر إلى وجهي. انعقد حاجباي وأزحتُ ما حوله، ولم أصدق ما رأيت. كانت أمامي، وكأنما

استحضرته، صورة مصغرة بيضاوية لدانيال بحجم حصاة صغيرة. أخرجتها لأنظر إليها جيدا، ومع أني كنت سأميزه في أي مكان، إلا أنني أدركتُ أنني لم أعرفه حقا ألبتَّة؛ لم تكن هذه هي الصورة التي تذكرته عليها، وإن ظل تعبيره الساحر موجودا. كان أصغر سنًّا هنا، ويرتدي حُلَّة، فبدا كنقدية حديثة السكّ. لم أستطع منع ابتسامتي، وشعرتُ لأول مرة بوجوده في المنزل الذي عاش ومات فيه. تذكرتُ المدخل ذي الأضواء الساطعة جوار مقهى راسل، وكيف نظر لي عبر الشارع. لو كنتُ انعطفتُ يسارا وليس يمينا في ذلك اليوم، ومشيتُ في شارع فينتشرش الواسع ولم أنعطف يسارا في شارع غريستشرش، لما كنتُ وقفتُ هنا داخل غرفة نوم هادئة في بلومزبري، على وشك أن أصبح لصة. كانت الأعوام السبعة الماضية هي ما قادتني إلى هذه اللحظة. كل الأشياء التي احتجتها كانت في هذا المنزل، وها أنا قد وجدتها. وضعتُ نصفي القلب المصنوع من عظم الحوت في جيبي مع الشارة المعدنية وأغلقتُ الصندوق برفق، ونزلتُ السلالم لأحضر مزيدا من الكريمة للملفوف.

سأل لايل جورجيت: "لستِ خائفة من الظلام، أليس كذلك، يا فتاة؟" كنا نتحرك شرقا عبر شوارع ضيقة قرب خان غراي. كانت جورجيت، التي لم تعهد الغرباء أو السير في الخارج، قد أقفلت على نفسها مثل محارة ولم ترد. لمحتها سابقا تنظر إلى مشعل لايل المُطفأ، والذي ارتفع فوق رأسه. لم أستعن من قبل بحامل مشعل، مُلتزمة فقط بالشوارع التي أعرفها بعد حلول الظلام، إن اضطررتُ للخروج ليلا من الأساس. لا بدَّ أنَّ حراس الليل -أو الحمقى، كما يسميهم لايل- يتجولون الآن بهراواتهم وقناديلهم، مُعلنين الساعة

وحالة الطقس، في خطى متثاقلة جيئة وذهابا مثل قطط متخمة، قبل الخلود إلى مقصوراتهم للعبة ورق ورشفة براندي. كان لايل يتجنب الطرق العامة ويتخذ الشوارع والممرات ويحيا كما فعل دائما في الظلام؛ فكانت قدماه هما عينيه وأذنيه.

كان قد سألني في إحدى لقاءاتنا تحت ضوء القمر: "من الرجل، إذن؟"

أخذتُ حينها رشفة جعة وناولته الزجاجة. "زوج السيدة، لكنه ميت الآن."

أطلق صفيرا خافتا طويلا. "وكيف التقيته؟"

"مقهى راسل، قريبا من مركز التجارة. هل تعرفه؟"

"ليس في وقت النهار. ما الذي كانت مخبولة مثلك تفعله في مقهى؟ إنهم لا يسمحون بدخول النساء. آه، هل كان واحدا من تلك المقاهي؟ حيث تمسكين بالقدح للأثرياء ليظل دافئا ولذيذا؟"

عرفتُ أنه يمازحني فضربته بمرفقي. "اخرس، وإلا سأجد لمشعلك مكانا من ظلمته حتى لن يضيء مرة أخرى. كلا، بل كان في طريقه للخروج، وكنتُ أمر بالجوار."

"وهكذا فسدتِ، صحيح؟ لمجرد أن مررتِ بالجوار؟ تلك طريقة جديدة."

"لم أعرف أنه متزوج. لم أعرف عنه شيئا غير عمله. وما زلتُ لا أعرف حتى وأنا أعيش في منزله. لا توجد صورة له، ولا شيء من أغراضه في أي مكان. وكأنه لم يعش هناك قط."

"هل حاولتِ البحث عنه؟"

"كلا."

"ربما ساعدكِ، لو كنتِ أخبرته."

"أظن كلانا يعلم أنه لم يكن ليفعل."

كانت تلك الليلة باردة، وظننته سيعود إلى عمله، لكنه قال: "هل تعلمين ماذا كنتُ سأصبح، لو لم أكن لغّان قمر؟"

"ماذا؟"

"إنني أحب الزراعة، تمام. وهو ليس بالمهمة اليسيرة في الطابق الرابع، ولكنكِ ستجدين على عتبات نوافذنا إكليل جبل ومريمية وزعتر. حتى أنني جربتُ زراعة الطماطم في الصيف الماضي، لكنها لم تصبح حمراء قط. أريد حديقتي الخاصة خارج المدينة. لامبث ربما، أو تشيلسي. مكان أخضر وفسيح، حيث يمكنني زراعة محاصيل للسوق: تفاح، ملفوف، جزر، لفت. سأحب ذلك، نقلهم في عربة إلى كوفنت جاردن."

قلتُ: "لم آكل الطماطم قط. ولم أعرف من قبل أحدا يحلم بالعمل في السوق. صباحات باكرة وأشتية باردة، وخارج المنزل طوال الوقت."

"حسنا، إنني أعمل في ليالي ساكنة وأشتية باردة، أليس كذلك؟ لا فرق."

حركتُ منكبيّ في استهانة. "لن أبالي إن لم أر روبيانا مرة أخرى."

"ستفوح مني رائحة الطماطم لا الروبيان. لكنها لم تعد تفوح منكِ. تعيشين حياة رغيدة أنتِ."

لكني عرفتُ أنني لم أكن، ورغم أن رائحة بيلينجزجيت

تراجعت أمام روائح التنظيف أثناء الخدمة، وأننا هربنا من حياتينا لوقت قصير فتخيلت أني مربية وهو فلاح تاجر، إلا أنني كنتُ ما أزال بائعة روبيان، وهو حامل مشعل.

وفي المرة التي بعدها عندما جاء، أخرج يده من خلف ظهره، وفيها استقرَّت ثمرة مدوَّرة وزاهية حملت من الألوان أكثر من الشارع بأكمله، بل من كل لندن. قضمتُ منها قضمة ففاض فمي بحلاوتها الرطبة والباردة. لا أعرف كيف وجد طماطم في لندن في الشتاء، ولكن كان هذا لايل: جلب الضوء، وجلب الطماطم.

***

"توقف." وضعتُ يدا على ذراعه، وتوقفنا في شارع ضيق ارتفع جانباه بمبانٍ متلاصقة: مستودعات أو مخازن، مُغلقة في وقت الليل.

كان لايل قد أضاء مشعله حالما عبرنا طريق هولبورن، وانهال ضوءه حولنا على هيئة بركة ضحلة. خمَّنتُ من الطريق الذي سلكناه، أننا في مكان ما جنوب كليركينويل. لم تكن هذه هي المدينة التي أعرفها، لندن الليلية؛ لقد انضممتُ إلى مخلوقات الظلال، إلى المجرمين. نظرتُ في الظلام خلفنا، أحلك من القطران. هل سمعتُ خطوات أقدام؟

"لن نتوقف" قالها وجرَّنا خلفه. وصلنا إلى نهاية الزقاق المؤدي إلى شارع هادئ أوسع، ببضعة نوافذ مضيئة في الطوابق العليا، بعيدة ولكن مُطمْئنة.

همستُ: "كيف حالكِ، يا ملاكي؟"

كانت جورجيت متعبة وعيناها فاترتان. وكانت أكبر حجما من أن أحملها لكني تمنيت لو أستطيع.

أخبرتها: "قريبا نكون في المنزل. وتقابلين جدكِ، وسأضع قالب طوب دافئ في فراشك، الذي يجاور فراشي مباشرة. ثم صباح الغد نذهب ونبحث عن منزل جديد، أنا وأنتِ فقط. ما رأيكِ في هذا؟"

لم تجب. وبعد بضع دقائق، أنار مشعل لايل يافطة درام آند مانكي، فبحثتُ عن برج الكنيسة في آخر الشارع، وعرفتُ أننا على بعد بضعة شوارع من لودجيت هيل. أخبرت لايل أنه يستطيع الانصراف الآن.

فأجاب: "لستُ أقوم بعملي إن تركتك."

"مهلا!" جاء النداء من وسط الظلمة، فأرسل رجفة خوف في جسدي. "مهلا، يا أنت."

ظهر هيكل رجل نحيل. فجذبتُ يد جورجيت بقوة حتى ظننتُ أنها ستنكسر، وتأهبتُ للركض.

"أحتاج إلى مُرشد لهودج ذاهب إلى سوهو،" قالها الرجل، وحذاؤه يتصادى فوق بلاطات الطريق.

فقال لايل: "معي زبون."

"أوه، حقا؟" نظر الرجل إلينا بفضول، وقد اتضحت ملامحه أمام اللهب. كان عجوزا، بجلد مترهل وباروكة بشعة. مررنا من جانبه، وقد أبقيتُ رأسي منخفضة، فيما هبّت منه رائحة براندي حادة.

كان كمان يعزف ألحانا مرحة في الحانة التي في آخر الشارع

– وفي الداخل كان الناس يهللون ويرقصون. لم أعرف كم الساعة. فتسللنا واحدا تلو الآخر عبر ساحة بيل سافيدج وواصلنا إلى زقاق بلاك آند وايت. ابيضت النار في مشعل لايل، وتوقفنا أمام مدخل مسكننا. كان كل شيء هادئا؛ إلا من كلب نبح من بعيد، لكن المبنى بدا غارقا في النوم. أطلقتُ تنهيدة خافتة طويلة لم أكن أعرف أنني أكتمها. حملت عينا لايل نظرة انتصار، وبدا شبح ابتسامة على زاوية فمه اليمنى.

سألته: "بكم أدين لك؟"

"ما رأيكِ في قبلة؟"

خفت نار المشعل وأرسلت شررا. جذبتُ جورجيت إلى ضوءها، فوقفتْ كالتمثال، وعيناها جادتان. ملتُ عليها وقلتُ في أذنها: "جورجيت، ماذا نقول للايل عن إعادتنا إلى المنزل بسلام؟"

رمقني لايل بنظرة ذات مغزى، وخلع طاقيته وقرفص ليكون في مستوى جورجيت، لكنها لم تقل شيئا. فابتسم ونهض. "يتألم الرجل عندما تصده امرأة،" هكذا قال. "أولا أمكِ، ثم أنتِ."

أمُّكِ. لم أكن قد سمعتها من قبل، وشعرتُ أنها غريبة ورائعة.

"شكرا لك، يا لايل." تبادلنا النظرات للحظة في المدخل المظلم للزقاق. "لن تخبر مخلوقا، أليس كذلك؟"

"لستُ واشيا. أعدكِ. بيس من؟" وغمز. "حسن. سأنصرف للبحث عن سكير عجوز سيغطُّ طوال طريق العودة في هودجه. إلى اللقاء، طابت ليلتكما، يا آنسات برايت."

"طابت ليلتك، يا لايل. شكرا لك."

لم أعرف متى سأراه مرة أخرى، أو كيف سيجدني. ربما هكذا أفضل. وقفتُ على أصابع قدمي وقبلتُ خده، وتنشقتُ رائحته: تبغ غليون، وشيء حلو، يشبه أعشابا عطرية أو تربة أرض. وقبل أن يُتاح لي أن أبتعد، أمسك بخدي، وجذبني نحو وجهه. كانت شفتاه على بعد بوصات من شفتي.

"لاكو نوتس،" قالها، وذاب في الليل.

الفصل السادس عشر



كان الزقاق خاليا، وهرولنا عبره إلى الباب الرئيسي، الذي فتح بيسر على الردهة حالكة السواد. ومع أني لم أستطع رؤية شيء، إلا أنني عرفتُ غريزيا المسافة حتى أول الدَّرج، ووجدتها بقدمي. تحسَّستُ طريقنا إلى شقة رقم ثلاثة، ممسكة بيد جورجيت، ووضعتُ الجِوال على الأرض وبحثتُ بأصابعي في داخله عن المفتاح.

"إليزا" انبعثت الهمسة في الظلام.

"نعم، يا حبيبتي؟"

"أين نحن؟"

"لقد أخبرتكِ، نحن في منزلي الآن. هذا هو المكان الذي أعيش فيه."

"لماذا هو مُظلم جدا؟"

"لا توجد مصابيح زيت، نحن نستخدم الشموع هنا. ولستُ أملك واحدة. كان جديرا بنا أن نطلب جذوة من لايل، أليس كذلك؟ لستِ خائفة، صحيح؟ تتذكرين بيدي جونسون. لم تكن خائفة، صحيح، حتى عندما لاحقتها عصابة الأشرار تلك؟"

أخبرني الصمت المذعور الذي أعقب ذلك أنني أسأت اختيار الكلمات. فهمستُ: "إلا أنه لا توجد عصابات هنا. الجميع نائمون – ولهذا يعم الهدوء والظلام. لن تصدقي الضجيج الذي سيحدث في الصباح، عندما ينزل الجميع لجلب الماء ويرتطمون أحدهم بالآخر. لن تستطيعي حتى سماع أفكارك! حمدا لله..."

وجدتُ المفتاح وتحسست مكان القفل، وحبستُ أنفاسي حتى سمعتُ التكَّة المألوفة، ثم حملتُ أمتعتنا وأدخلتُ جورجيت.

كانت غرفة الجلوس شديدة البرودة. وتُركت الستارة الخفيفة مفتوحة، فغمر ضوء القمر ألواح الأرضية. كانت النار مُطفأة، وتناثرت أوعية وقدور وسخة فوق الموقد. فاحت رائحة خفيفة لسمك مقلي قلبت معدتي. اختلستُ نظرة إلى سرير إيب، فظننته بادئ الأمر خاليا. برز بالكاد من تحت الحِرام، حيث تكوَّر على جنبه مُعتمرا طاقية نومه ومُواجها الحائط، وأصدر غطيطا خافتا. قررت ألا أوقظه، وتسللت مع جورجيت إلى غرفة النوم.

"ها قد وصلنا،" همستُ، وأنا أضع الجِوال. ترنَّحت جورجيت قليلا فوق ألواح الأرضية الغائرة. كنتُ أملك أجرة شهر من السيدة كالارد أضيفها إلى مدخراتي، فجثوتُ بجوار سريري أتلمَّس علبة الدومينو أسفل المرتبة القش.

لم تكن هناك.

رفعتُ المرتبة كلها، كاشفة عن الحبال أسفلها. لا شيء فوقها أو تحتها. فعلتُ ذات الشيء مع السرير الآخر، مُصغية للقعقعة التي سيحدثها سقوط شيء خشبي على الأرض، لكني لم أجد سوى القش

والحبال والهيكل الخشبي المكشوف للسرير. نظرتُ حولي في يأس، حيث فُتح الستار هنا أيضا. وحينها رأيته، على الخزانة التي أسفل النافذة، بجوار الإبريق المثلوم الذي استخدمته في غسل وجهي. مفتوحا في مكانه، وقد أزيح غطاؤه بالكامل. وعرفتُ من مكاني على الناحية الأخرى من الغرفة أنه فارغ.

تنفَّستُ في نفثات صغيرة متسارعة. واصل إيب غطيطه في الغرفة الأخرى، وسمعتُ صرير ألواح الأرضية مع تململ جورجيت في ضيق. أخذ ذعر بارد ومثير للغثيان ينتشر من بطني، وأجبرني على الركوع فوق مرتبة السرير. كان ذهني صافيا على نحو غريب. لقد تركتُ الصندوق على حاله عندما جئت يوم أجازتي، منذ ما يزيد قليلا عن أسبوع؛ أنا متأكدة. ولكن هل فتحته؟ كنتُ في ذلك الصباح سعيدة ومشغولة الذهن، ولا أطيق صبرا على العودة إلى شارع ديفونشاير. كنتُ قد قصدتُ منزل نيد أيضا، لكنه لم يكن موجودا، فقضيتُ نصف ساعة مع زوجته كاثرين والصغار، وحملتُ الرضيع فيما قطَّعت كاثرين الخضار للحساء. كان وجهها مُرهقا وفكها مزموما وهي تخبرني أنه لم يعد إلى المنزل منذ ليلتين. قلقتُ دون هلع، قلقا ضئيلا ومحكوما، كالجوع الذي يسبق التضور. أخبرتها أنه سيعود، وأومأت هي موافقة، لأنه سيعود. لكننا كنا نعرف أن المشكلة أكبر من ذلك.

قصدتُ الغرفة الأخرى لأوقظ أبي. "إيب،" قلتها، وأنا أدفعه بقوة.

استيقظ في الحال، من وسط غطيطه، فجلس في فراشه وعبس في الظلام. "بيس، هل هذه أنتِ؟ ماذا تفعلين هنا؟"

قلت: "لقد عدتُ إلى البيت. متى جاء نيد إلى هنا؟"

"نيد؟" استغرق لحظة ليجيب، بصوت أجش ومُتبرم. "أسبوع، ربما؟ ولكن لماذا عدتِ؟ ظننتكِ-"

"هل دخل غرفتي؟"

تغضن وجه إيب في حيرة. "ربما فعل، لا أذكر بالضبط." ثم تثاءب بعمق واعتدل في جلسته. "إنه في ورطة، يا بيس."

"الغشاش القذر! ماذا تقصد؟ ما نوع تلك الورطة؟"

أصدر السرير صريرا من تحته. "إن الشرطة تلاحقه. ربما هو في زنزانة الآن، أو معلق على عمود التشهير. لا أملك سبيلا لمساعدته وفات أوان أن يساعد نفسه."

شعرتُ وكأن ألواح الأرضية تتلاشى من تحتي الواحدة تلو الأخرى. وقفت جورجيت تراقب من باب الغرفة، جامدة ويغلفها السكوت، ومحجوبة عن عيني إيب. كنتُ أعرف أنَّ عليَّ أن أخفف عنها، أن أدعوها للقاء جدها، لكنني لم أستطع حراكا.

***

لم يأتِ النوم في تلك الليلة، لكن الذنب والخوف استكانا جانبيَّ وأراحا رأسيهما على وسادتي. كان مُحالا مع اختفاء المال، أن أتظاهر بأنني لستُ في ورطة. سيكون عليَّ في الصباح، أن أخبر إيب بما فعلت: سرقتُ طفلة خططتُ للاختباء معها في واحد من مساكن العشوائيات البالية بين فليت ديتش وسانت بول. أما الآن وقد ضاعت مدخراتي، سأدفع الإيجار بالكاد. كان ذلك المال يعني أنني لن أحتاج

إلى البحث عن عمل مباشرة، أما الآن فكلانا يحتاج إلى ذلك. ولم يكن البقاء هنا في زقاق بلاك آند وايت خيارا واردا، لأنه حالما يُبلغ رجال القضاء...

ارتجفتُ. كانت غرفة النوم باردة كالثلج، وكنتُ قد ساعدتُ جورجيت على النوم في الفراش الضيق جوار فراشي. كانت قد اعتادت مراتب الريش وليس القش، والحِرام الرطب لم يُغسل منذ وقت طويل. كانت تتظاهر بالنوم، وشعرها الداكن يفترش الوسادة، ووجهها الأبيض ساكن. رقدتُ إلى جوارها في فستاني وحذائي، أراقبها بتمعُّن، وأنا أفرك ذراعيها وساقيها وأغني لها، وأتنشق رائحتها النظيفة. أمسكتُ بيديها البيضاوين بياض الزنبق واحترتُ كيف أرسلهما للعمل، تلك اليدين اللتين في حياتهما لم تلمسا سوى شرائط شعرها الحريرية وصفحات كتبها الرقيقة.

تقلّبتُ لأرقد على ظهري، وخرجت أنفاسي غمامات في ضوء القمر. كان إغلاق الستارة الخفيفة مجهودا أكبر من طاقتي، ونظرتُ إلى أسطح المنازل وتساءلتُ هل تُرى استيقظت السيدة كالارد، أم أنها لن تكتشف غيابنا حتى الصباح. لم أستطع تخيل رد فعلها كيف سيكون: أذهول ممتقع أخرس أم غضبة عنيفة، بعد أن رأيت قناعها الأنيق يسقط. لا بد أن هروبي بجورجيت سيبعث الفوضى في حياتها المنظمة. سوف تخبر الخدم أولا بلا ريب، وترسل آغنس لإحضار الغفير، والذي بدوره سيبلغ القاضي. ولكن كيف سأستطيع الهرب من عدو لا أعرفه؟ سوف يمتد البحث كبقعة حبر عبر المدينة، انطلاقا من بلومزبري ثم ينتشر شرقا، وجنوبا، وغربا، ويملأ الأزقة والمنتزهات،

فتهمس به شفاه النبيلات وتتناقله الفسَّالات وهن يجففن الملاءات. كانت تملك المال لنشر الخبر في كل شبر من المدينة، وتمشيطها أيضا. كان ذلك هو أكبر فارق بيننا. كان المال بالنسبة لها، مثل بركة ملأت منها شدقيها. أما أنا فقد كنت ظمآنة.

شعرتُ بسكون جانبي، فأدرتُ رأسي لأرى جورجيت تراقبني في الظلام. تبادلنا النظرات، لكني لم أستطع قراءة عينيها.

همستْ: "هل أنتِ حقا أمي؟"

فهمستُ بدوري: "نعم."

"هل هذا جدي؟"

فأجبتُ: "نعم. سوف تقابلينه غدا. عليكِ الآن أن تغمضي عينيكِ، وفي الصباح سأذهب لأبتاع لنا رغيفا طازجا، وحليبا يمكننا تسخينه في القدر. ستحبين بائعات الحليب. إنهن تحملن عصيا على أكتافهن، وترتدين قبعات كريمية مكشكشة."

شكت من البرد، فعدتُ أفرك وأفرك ذراعيها. أصبحنا الآن بلا شيء، بعد كل الخشب والفحم في شارع ديفونشاير. أغمضتْ عينيها، ودندنتُ لها برفق حتى تنام، مثلما كنتُ أفعل عندما توقظها الأحلام المزعجة. والتي تعيش في واحد منها الآن. من شارع ديفونشاير إلى زقاق بلاك آند وايت؛ من بلومزبري إلى فليت. كان ذلك شبيها بواحدة من قصصها. إلا أنه في القصص، يحدث بالعكس.

***

وحين بزغ الفجر على أسطح المنازل، غرقت الغرفة الأخرى

في الصمت؛ ما يعني أن إيب قد غادر إلى السوق. قررتُ من الأفضل له ألا يعلم بوجود جورجيت – وبهذا لن يضطر إلى التستُّر على شيء. وما إن يعود، حتى نكون قد رحلنا بأمتعتنا إلى مسكن جديد، وهناك يمكنني التفكير في خطة. لكن الشعور بالذنب مؤرِّقني؛ فالبيت يحتاج لعمل كثير ولا أحد ينجزه حال غيابي. كانت الأرضية والموقد يكسوهما الوسخ ودخن الفحم، وكذلك النوافذ، وكان دلو جديد من القلي يحتاج لصنعه حتى يغسل إيب ملابسه. لكني لم أملك الوقت، وكان عليه أن يُصرِّف شئونه بنفسه.

"أنا بردانة،" كررت جورجيت، وهي تتحرك جواري في الفراش. فطبعتُ قبلة على رأسها وألقيت حرامي فوقها، وأحكمته من حولها.

"آه،" قلتُ فجأة، وقد تذكرت. "كنتُ أدَّخر لكِ ملابس طوال هذا الوقت. هل تحبين رؤيتها؟"

بفضول فاتر، شاهدتني أتجه إلى الصندوق الذي في ركن الغرفة وأخرج منه أكواما من كتان وقطن وصوف. لم يستغرق إفراغه وقتا طويلا، واخترتُ أجمل القطع لأريها لها – ثوبا ذهبيا ذا كشكشة جميلة عند الخصر؛ سترة صوفية أنيقة بخرق صغير فقط أسفل الإبط.

"هل تُعجبكِ؟"

كان وجهها جامدا كالرخام. بالطبع لم تعجبها. لقد اعتادت حرير سبيتالفيلدز، وكنتُ الآن أريها أثوابا من أقمشة رخيصة، لبستها طفلة من قبل: طفلة قد ماتت على الأرجح. بدت الملابس مُثقلة بالحيوات التي سكنتها، فطويتها وأعدتها إلى مكانها. وبدت جورجيت وكأنها ستبكي.

ثـم دقَّ البـاب، والتقـت أعيننـا فـي ارتيـاع أخرس. لـم أكـن أخبرتهـا أننـا مُتخفيتـان، لكنهـا عرفـت بطريقـة مـا. عـاد الطَّرق مـن جديـد سـريعا ومُتعجـلا.

"إيـب، هـل أنـت بالداخـل؟" كان صـوت نانســي بينســون التـي تسـكن تحتنـا. حبسـتُ أنفاسـي، ولـم أجـرؤ حتـى علـى إحـداث صريـر فـوق الأرضيـة الخشـبية. "إيـب؟ خُيِّل إلـيَّ أننـي سـمعتُ وقع أقـدام علـى السـلالم ليلـة أمـس - ففكـرتُ أن ألقـي نظـرة."

كان بـاب الغرفـة الأخـرى مغلقـا، ولكـن مـاذا لـو أنهـا تملـك مفتاحـا؟ لـو أنهـا دخلـت إلـى هنـا ورأتنـا... شـعرتُ بأنفاسـها مـن خلف الحائـط، وتخيلـتُ أصابعهـا السـمينة علـى المقبض، وأردت منهـا أن تبتعـد. بعـد دقيقـة أو دقيقتيـن استسـلمت، وهبطـت بخطـى متثاقلـة درجـات السـلم التـي صـرَّت مـن تحتهـا. ذكَّرنـي هـذا الحـادث بإحضـار المـاء مـن طلمبة الزقاق؛ ولم أسـتطع المجازفة بذلك ونانسـي تشمشـم مثل كلـب صيـد. لـن نغتسـل إذن، وعليـه لا جـدوى مـن إشـعال النـار.

ارتديـتُ مـلابســي سـريعا وفتحـتُ النوافـذ علـى مصاريعهـا لطـرد الهـواء الراكـد، وقـد تذكـرتُ آغنـس عندمـا قالـت بـأن المنـزل الـذي تجـري تهويتـه هـو منـزل صحـي. وبانقباضـة فـي معدتـي، أدركتُ أن منـزل رقـم ١٣ بشـارع ديفونشـاير لا بد اسـتيقظ الآن. وآغنس تفرك يديهـا، ووجههـا الطيـب تعلوه سـذاجة من أثـر الارتبـاك. لـن تصـدق أننـي شـريرة حد سـرقة الطفلة. لم تمضِ سـوى بضعة أسـابيع على جلوسـنا إلـى طاولة المطبخ بعد زمن من خلود الجميع إلـى فرشهم، بيننـا شمعة وفـي يد كل منـا كأس شـيري.

"الصغيرة ليست ابنتها،" هكذا همست، وشفتاها تلمعان من أثر الشراب.

لم أقل شيئا، وأصغيتُ إلى الرياح تهب بصوت خافت في أرجاء الفناء بالخارج. وعندما استجمعتُ قدرتي على الكلام، حاولتُ إضفاء مزيج من الذهول وعدم التصديق. "لماذا تقولين هذا؟"

فقالت: "لم تكبر بطنها. ظلت مشدودة كغشاء طبلة. وشهيتها لم تزد أو تنقص. كما أنها..." نقَّلت عينيها الزرقاوين إلى الأركان المظلمة للغرفة، وكأن السيدة كالارد قد تكون بين ثناياها. "كانت تحيض كل شهر. وفي يوم، بعد بضعة أشهر من موت السيد، وصل إلى المنزل مهدٌ ووُضع في غرفة الأطفال. لم تكن غرفة أطفال في ذلك الوقت بالطبع؛ كانت غرفة نوم، حيث اعتاد السيد أن ينام في المرات التي عاد من الخارج في ساعة متأخرة، والتي زادت باطراد قُبيل وفاته - لو أنه عاد من الأساس." ثم توقفت وهي تدرك أنها حادت عن الموضوع الرئيسي، مُستمتعة بإصغائي. لم تكن ماريا من النوع الذي يحب النميمة، وطابت نفس آغنس بوجود من تثرثر معه. لم يكن عسيرا حملها على الكلام.

"أين كنت؟"

فقلتُ: "المهد."

"آه، أجل، المهد. فقلتُ: "لمن هذا، يا سيدتي؟" فأجابت بنبرة واضحة كالجرس: "لطفلي. إنني أنتظر طفلا." حسنا، كادت الصدمة تفقدني توازني. ظننتُ في البداية -ولا تخبري ماريا أنني قلت هذا- ظننتها أُغرمت بآخر، بعد وقت قصير من وفاة السيد. لقد

تجاوزتُ الحد في ظنوني، أعرف." ثم أخذت بلباقة رشفة أخرى من الشيري وأضفت المزيد من السرية على كلامها، فمالت نحوي حتى شممتُ رائحته في أنفاسها. "لم أتوقع أنها كانت تعني وصوله في نفس اليوم."

مثَّلتُ الدهشة على وجهي.

"ثم أرسلتنا لإنجاز بعض المهام – أنا إلى بائع مستلزمات الخياطة، رغم وجود فائض منها لدينا، وماريا لتسديد فاتورة. ثم عندما عدنا، تناهى إلى سمعينا صوت غريب. ظنناه في البداية هرًّا عالقا في مكان ما. لكنني صعدت إلى الطابق العلوي، وهناك وجدتها. رضيعة راقدة في المهد. حسنا، لا أعرف كيف تسير هذه الأمور، فأنا لم أنجب أطفالا. ولكني متأكدة كما أن اسمي آغنس فاولر أن الأطفال لا يولدون في المدة التي يستغرقها شراء أزرار. لولا أنِّي أملك عقلا، لحسبتها اشترتها من سوق فورتنام."

"ربما فعلت،" قلتها، وضحكنا. سكبتُ لنا جرعة شيري أخرى، رغم تظاهر آغنس بالمقاومة. كنتُ أزداد ولعا بها، بعينيها الزرقاوين وشعرها الأبيض وبشرتها الناعمة الرقيقة. كانت ممتلئة الجسم كوسادة، وطائشة كصاحبة ماخور. تحية صباح عابرة قد تُبقيك في غرفة واحدة لربع ساعة وقد أخذها الكلام إلى واحدة من حكاياتها، وتحية مساء قد تثير ذهولك بقدرتها على تحويل كلمتين إلى حكاية عن بحار نيوكاسل الذي حاول أن يبيعها عنزة في سبيتالفيلدز.

سألتُ: "لم تُرضع الصغيرة بنفسها إذن؟"

فأجابت آغنس: "رباه، كلا. الأثرياء لا يُرضعون أطفالهم

بأنفسهم. بل وصلت مُرضعة في وقت لاحق من تلك الليلة وبقيت عاما. بليندا، كان اسمها. شابَّة صغيرة مثلك."

سمعتُ من قبل عن المُرضعات، لكني لم أقابل أحدا استخدم مُرضعة، ولا قابلتُ حتى مُرضعة، لأن الأغنياء أرسلوا أطفالهم إلى خارج المدينة للرضاعة. تأملتُ لهب الشمعة يتراقص في الظلام وتخيلت امرأة أخرى تُرضع جورجيت، وتُهدهدها في الليل. ثم قاطعتنا السيدة كالارد، مُقتحمة المطبخ كسحابة ممطرة.

وفي اليوم التالي، سألتُ ماريا عما تعرفه عن ولادة جورجيت. فمنحتني نظرة فاحصة من خلف غبار الدقيق. ثم قالت وهي تأخذ شويكها: "لا تختلف عن أي ولادة أخرى، كما أظن."

طاب لي أن آغنس تتدخل في شئون الغير، حيث كانت شخصا ساذجا يثق بالناس. وتساءلتُ بوخزة خجل تُرى ما ظنها بي الآن.

***

"إلى أين نذهب؟" سألت جورجيت بصوت ضعيف، والساعة تدق الثامنة.

قلتُ وأنا أُلبسها سروالها الداخلي: "سوف نذهب إلى خالكِ نيد لنسترد مالنا. احملي حذائكِ، وسوف ألبسكِ إياه أسفل الدَّرج." وناولتها حذاء برقبة متينا وجيد الاستعمال ولن يؤذي قدميها.

"أين يعيش؟ أنا بردانة."

"ليس بعيدا عن هنا. والآن، أنظري إلى جمالك في ملابسكِ الجديدة؟" وكنتُ قد ألبستها فستانا قطنيا بنقشة بنيَّة، مع شال

صوفي دافئ وزوج من الجوارب الصوفية بلون رمادي. ثم رفعتُ شعرها الداكن تحت قلنسوة بيضاء، وبهذا أخفيتُ عنها كل أثر من بلومزبري، وحولتها إلى طفلة من الزقاق.

ومعا نزلنا السلالم بخطى لا تُسمع، فمررنا بباب نانسي وأصابعنا فوق شفاهنا قبل أن نندفع من مدخل الزقاق الخلفي إلى شارع فليت. وبينما نشق طريقنا باحتراس شمالا ونتفادى الشوارع العامة، أوصيتُ جورجيت أن تنظر في الأرض أثناء سيرنا، بيد أنها نظرت بانبهار إلى كل رجل وامرأة وطفل مررنا بهم. حدَّقت في كل لافتة شارع، وتفحَّصت كل كومة روث ونظرت في عيني كل بائع متجول.

لن يحب أحد أن ينتقل إلى مسكن أسوأ من الذي كان فيه، لكن هذا هو ما حدث لنيد. كان زقاق ثري فوكس يبعد نصف ميل إلى الشمال، على حدود سوق سميثفيلد للُّحوم، وكان رطبا وضيقا حتى أن الشمس لا تصله قط. واذ حبس بداخله روائح الخوف الكريهة للماشية وكان في ظهره سلخانة، فعجَّ بالجرذان والذباب، وغُسلت أرضه يوميا بالدماء. كان المرء ليدوخ إن وقف داخله، بكل مبانيه وقد مالت وهددت بالانهيار. قرفصت عصبة أطفال في ركن مظلم، حفاة رغم الطين البارد أسفلهم. وقد منحتهم وجوههم الذابلة مظهر القرود الراقصة على أنغام عازفي الأرغن المتجولين، وكانت بينهم، الأكثر نحولا ومرارة، ماري كبرى أبناء نيد وكاثرين.

"ماري برايت، ماذا تفعلين عندك؟" قلتها وأنا أقترب من حزبهم العدائي الصغير. كانوا يلعبون بمخلفات جمعوها من القمامة:

عظام سمك وشيئا يشبه جمجمة أرنب. رفعت أصغرهن حجما تنورتها وشرعت في التبول. فابتعدتُ حتى لا يطال حذائي شيء منه وأحطت جورجيت بذراعي. رمقتها ماري بملامح حقد خالص. كانت الفتاة الي سُمِّيت تيمُّنا بأمنا، في الرابعة من عمرها، لكنها بدت في الأربعين. لم تعتمر قلنسوة، وقُصَّ شعرها البني الباهت بصورة فجَّة فباتت كالصبيان. لم ترث أيًا من ملامح نيد الناعمة، ولا رأسه المثلثة؛ بل كانت كلها كاثرين – بعينيها الضيقتين وأنفها الطويل المدبب ونمشها. كان فستانها الفضفاض بلون الجدار. ربما تكون وُلدت من وسخ زقاق ثري فوكس وظلاله، ابنة سميثفيلد، التي صنعت من فضلات العظام.

"جئتُ لرؤية أبيكِ. هل تعرفين أين هو؟"

كانت عيناها كشقَّي سهم، وقد أشارت برأسها إلى المنزل في حذر تجاوز سنوات عمرها. وراقب البقية بأعين مُرتابة. دخلتُ من الباب السفلي وصعدتُ طابقين حتى غرف نيد، حانية رأسي لأتفادى غسيلا متعفنا ومارَّة بطفل ذو عامين أو ثلاثة، يجلس على إحدى الدَّرجات ويصرخ من أعماقه، وقد تحول وجهه إلى لون أرجواني حاد. وقد ظهرت تحت واحدة من عينيه كدمة سوداء عميقة. تشبثت جورجيت بتنورتي وقرعتُ باب نيد. ومن ورائه تناهى صوت زعيق، ورضيع يبكي، ثم صهٍ مُستعجلة. طرقتُ مرة أخرى وجاء صوت كاثرين: "من الطارق؟" ناديتُ عليها، ففُتح الباب على مصراعيه.

جذبتنا إلى الداخل قبل حتى أن تنظر إلينا. وقد تدلى

شعرها الخفيف من قلنسوتها، وبدا الرضيع بين ذراعيها مثل كرة غضب قرمزية. انهار نيد على كرسي الطاولة مُشمِّرا كمَّي قميصه، وكأنه يتأهب للعراك. كان وجهه هزيلا، وأسفل عينيه ظلال.

"حسبناكِ مُحضر الشرطة،" قالتها كاثرين وهي تضع يدها على خصرها. إلا أنها لم تقصد بها عداءً. بل بدت وكأنها تتماسك خشية الانهيار. "من هذه إذن؟" سألت، إذ لاحظت جورجيت، والتي رغم كل جهودي، ظل مظهرها يوحي بأنها طفلة متنكرة.

"أريد نقودي،" قلتها لنيد، وأنا أتقدم نحوه بكف ممدودة وأمسك يد جورجيت بالأخرى. "هيا، يا نيد. لقد سرقتها في غيابي، كعهدي بك جبانا، وأريد استردادها الآن. لا تقل لي أنك أنفقتها."

قالت كاثرين بصوت مرتفع: "سرقت من بيس؟ كيف أمكنك فعل هذا، يا نيد؟"

ظل نيد صامتا، وحدَّق ببغض في الطاولة. وكان الرضيع إدموند قد توقف عن البكاء لما سمع صوتي واستقر بين ذراعي كاثرين، وهو ينقل بصره مني إلى نيد ثم إليَّ مرة أخرى، ووجنتاه مبللتان بالدموع.

قالت كاثرين: "لقد باع كل شيء. الصوان، والسرير، والقدور. والمفارش. حتى نونيَّة السرير."

كانت الغرفة، كما لاحظتُ، شبه جرداء. إلا من طعام بسيط وضعوه على الرف اتقاء الجرذان، ومرتبة من القش كثيرة النتوءات في أحد الأركان، وملفوفة بالأحرمة. إلى جانب كومة صغيرة مطوية من الأثوبة الكتان على كرسي مكسور ووعاء من تشققه حتى لن يحتمل

أي حساء فيه، وكان هذا كما يبدو هو مجموع متعلقات السيد والسيدة برايت.

رفع نيد عينيه أخيرا وأشار برأسه إلى جورجيت. "أهذه ساقكِ العرجاء؟"

"لا تخاطبها بهذا. إياك حتى والنظر إليها. أنا التي تحدثك."

"وجدتها إذن، صحيح؟ دعيني أخمن، لقد أعدتها إلى هنا لتنقذيها من حياة الثروة والنعيم."

"أنت لص."

"لستُ من سرق طفلة. هل تحسبين أنكِ تقدمين لها معروفا بإخراجها من ذلك المنزل الذي رأيته؟ سوف تقضي نحبها خلال أسبوع."

دفعتها ورائي. "لو حدث هذا، فسوف يكون ذنبك،" قلتها بصوت هادر. "لقد سرقت مدخراتي! ماذا فعلت بها، يا نيد؟ لأنك لو بددت كل ذلك المبلغ في متجر الخمور، فسوف يُدهشني أنك ما زلت على قيد الحياة، يُدهشني ويُحبطني أيضا في الحقيقة."

"اغرقي في التِّيمز، يا بيس."

"كانت تلك نقودي ونقود جورجيت. أراهن أن طفلاك لم يريا فلسا واحدا منها."

"ها،" ضحكت كاثرين بسخرية. "أليست تلك الحقيقة."

وبسرعة البرق، قفز نيد من كرسيه وأرسل قبضته إلى وجهها. شق الصوت أرجاء الغرفة، وأغرقنا في الصمت. ثم حدثت عدة أمور في نفس الوقت: استأنف الرضيع صراخه، وألصقت جورجيت نفسها بتنورتي وبدأت في الصراخ بصوت عالٍ، وبسط نيد يديه على الطاولة

واتكأ على معصميه. لاحظتُ أنه يرتجف، إنما ليس غضبا ربما. كان مبللا بالعرق. غمرتني حاجة قوية للهرب؛ لم أستطع تحمل الوقوف في تلك الغرفة الصغيرة البائسة دقيقة أخرى.

"لو أنَّ ماما رأتك الآن،" قلتها، وقد عجزتُ عن قول شيء آخر. لم يتحرك نيد، ونظرتُ كيف تموج شعره كمادته فوق أذنيه، وتساءلتُ أين ذهب أخي.

ثم أخذتُ جورجيت وخرجتُ بها من الغرفة.

الفصل السابع عشر



كان المدخل إلى زقاق بلاك آند وايت ممرا لا يزيد عرضه عن قدمين، ويتفرع من لودجيت هيل بين ناصيتي مُتعهِّد تموين وصانع براميل. أفضى الممر إلى فناء بيل سافيدج، والذي كان طويلا وضيقا، تتخلله حبال الغسيل بين المباني، ثم يأتي زقاق بلاك آند وايت، في نهاية الفناء على اليمين. دخلتُ وجورجيت تتقدمني، إلى فناء بيل سافيدج في نفس اللحظة التي وصل رجل طويل أنيق بقبعة حالكة السواد إلى جهة الفناء الأخرى واختفى عند المنعطف. التحم فناء بيل سافيدج مع زقاق بلاك آند وايت وصنعا طريقا يفضي إلى شارع فليت مع أولد بيلي، إلا أنه كان مهجورا. وباختصار، لا يسلكه المرء إلا حال اضطراره.

قلتُ لنفسي أن الرجل ربما يكون مسالما - زائر، أو مُحضر، أو مفتش. لكني عرفتُ في قرارة نفسي أنه ليس كذلك. أطلقتُ سبابا في سرِّي وجذبتُ جورجيت لتتوقف. نظرتْ إليَّ كمن تسأل ما الخطب، وتردَّدتُ لوهلة، فأدبرتُ والتفتُّ مرة، وأخرى، قبل أن أطلق سُبَّة أخرى، وأقرر أخيرا مغادرة المكان كالمتسللة الجبانة التي كنتها دائما.

"هل ترقصين الجيغ؟"

كان لايل كوزاك يقف مُتكئا على جدار بيل سافيدج معقود الذراعين، وقد حجبته جزئيا ملاءة على حبل غسيل، فبدا مثالا لمن يشاهد سبقا لشرب النبيذ. كان مُختلفا تماما في النهار بدون مشعله، وإن كانت ملامحه ظلت على حالها من الغموض، وكأنه رُسم بالفحم. لمعت عيناه السوداوين، حتى من بعيد.

قلت: "تبدو أوسم في الظلام."

ابتسم ابتسامة عريضة. "إنكم يا صفوة بيلينجزجيت تعرفون كيف تتغزلون."

أشرتُ برأسي في اتجاه الممر فاعتدل على الفور، ولحق بي في تيار شارع لودجيت.

"كيف الحال، يا آنسة؟" سأل جورجيت، ونحن نسير. انتظر حتى أعارته الفتاة انتباهها ثم سحب عملة نقدية من خلف أذنه وقدَّمها لها. ابتسمتْ وأخذتها، وأدركتُ أنني لم أر ابتسامتها منذ تركنا منزلها. "هلمّي واشتري لنفسك كعكة زبيب من المخبز الذي هناك، أترينه؟ هيا." بعد تردد دام لحظة وإيماءة موافقة مني، دخلتْ بهدوء من الباب المفتوح الذي وقفنا إلى جانبه، ونظرتُ بحدة إلى لايل.

"هل رأيت ذلك الرجل منذ قليل، الذي دخل قبلي؟"

"المُتأنّق؟ رأيته. أظنه صياد لصوص بالأجرة."

أطلقتُ سُبَّة ونظرت يمين الطريق ويساره. "إن كل أمتعتي هناك! وايب – لن يعرف أنني رحلتُ مرة أخرى."

"تبًّا. إنه لم يركِ، أليس كذلك؟ أستطيع إحضار أي شيء تريدين من هناك. هل تملكين نقدية؟"

"نعم."

"كم؟"

"حوالي ستة شيلينغات".

"ارفعي صوتكِ أكثر، لا أظن العاهرة الصماء في وستمنستر قد سمعتكِ."

"اخرس! لا تتظاهر بأنك الوحيد الذي يملك ذكاءً. أنا من جاء بنا إلى هنا، ألم أفعل؟"

"بل أنا من جاء بنا إلى هنا،" قالها وهو يرسل لي غمزة أغاظتني بشدة. خرجت جورجيت من المخبز وهي تحمل كعكة بحجم رأسها. "أكلُّ هذه لكِ وحدك؟" قالها لايل ممازحا، وقد بلغت موضعنا. "لن تحتاجي للطعام حتى السبت القادم."

وفي تلك اللحظة، خرجت امرأة من الممر مع اثنين من أطفالها، وميَّزتُ أنها هيلينا كوك، أمٌّ خجولة لخمسة أطفال تعيش مع زوجها ووالدتها في منزل رقم ٨. جذبتُ عباءتي فوق رأسي وجعلتُ وجهي إلى نافذة المخبز، وتحرَّك لايل فورا ليحجبني. انتظرتُ حتى ذابوا وسط الجموع في لودجيت هيل.

"هل أنتِ جائعة؟" سأل لايل، حال اختفائهم.

"نعم، أظن ذلك."

"فلنذهب إلى مطعم اللحوم وسأبتاع لكِ ضلعا. إسمع، يا غلام." أمسك بياقة أول صبي وقعت عليه يده، ولد قذر وبليد الشكل

قد يكون في الثالثة عشر، ثم ألحقه باثنين آخرين، أحدهما واسع العينين في الثامنة تقريبا والآخر جسيم يشبه كلب قتال. ثم منح كل واحد منهم فلسا لمراقبة مخارج الزقاق الثلاثة. قائلا: "من يره أولا، يتبعه إلى مكمنه، ثم ليعد إلى هنا وينتظرنا وسيحصل على نقديته." فانطلقوا إلى مهمتهم، وكل منهم يتلهف للفوز.

وبعد ربع الساعة، كنا لايل وجورجيت وأنا جلوسا أمام طاولة في قبو ذي أجواء معتمة وداخنة لمطعم لحوم قريب من سوق فليت، وأمام كل منا زبدية حساء وقطعة خبز وقدح شاي بالحليب. كانت شهيتي قد زادت منذ إقامتي في شارع ديفونشاير، ومعها زاد محيط خصري. كان مشدّي يضغط على زناري، وراقبني لايل آكل بنهم وعلى وجهه ابتسامة متعجرفة. أما هو فقد تناول طعامه في كياسة تدعو للدهشة، قريبة من الأثرياء. فلم يضع مرفقيه على الطاولة ولا احتسى يخنته من الزبدية كما يفعل بعض الرجال، بل أخذ لقيمات صغيرة متأنّية فيما أخبرته عن سرقة نيد لمالي، وكيف أني قريبا سأصبح بلا مأوى.

"تحتاجين إلى مهرب إذن،" قالها بعد أن سكبت لنا النادلة، التي خلف الجدري آثاره على وجهها، مزيدا من الشاي من الغلاية.

أومأتُ، ومسحتُ ياقة جورجيت بشرود من حيث سكبت يخنتها. كانت مبهورة في خجل بالمطعم، الذي كان معتما وصاخبا ومشبعا بروائح اللحم المشوي المنبعثة من المطبخ، والأجساد الوسخة والجعة المُراقة. كانت أغلب المقاعد مشغولة أمام الطاولات الخشبية الطويلة، وغطت الأطباق المتسخة كل الأسطح. التصق دخان السجائر بالسقف المنخفض، وتخبّطت المرافق بعضها البعض

فيما ضحك الناس وثرثروا وتجادلوا. سبّب الضجيج طنينا في أذني، مع أنه لم يكن يفعل من قبل.

"إليكِ ما سنفعله،" قالها لايل وهو يميل نحوي. " تعمل أختي في لامبث، في مزرعة ألبان بالقرب من المستنقعات. إنها على بعد ميلين أو ثلاثة فقط من حيث نحن الآن. سأذهب للقائها وأسألها إن كان بوسعها أن تُوجِد لكِ وظيفة -عاملة في ملبنة أو ما شابه- حيث يمكن لجورجيت أيضا أن تذهب."

"لم أذهب إلى لامبث من قبل. أليست ريفا؟"

"بلى." التفت لايل إلى جورجيت، وأدرك أنها كانت تنصت. وسألها: "هل يمكنكِ حلب بقرة؟"

بدت مُهانة جدا ولم يسعنا إلا أن نضحك.

قلت: "مُوافقة. ولكن شرط أن يُسمح لها بالمجيء يا لايل. لا فائدة من حصولي على وظيفة لن تقبل بوجودها معي."

لوح بيده. "سنخبرهم أنكِ أرملة؛ سنأتي لكِ بقطعة قصدير لوضعها على إصبعك."

تنهدتُ، وفركت وجهي، وأدخلتُ شعري إلى قلنسوتي. وقلت: "من بعثك لي يا ترى؟ لابد أنني فعلتُ خيرا في حياتي السابقة."

"أو سوءا في هذه الحياة."

"أفترض أن عليّ الاختباء حتى تأتينا الأخبار من شقيقتك. سوف أذهب إلى منزل صديقتي كيزيا. هلا أتيت إلى هناك عندما يصلك شيء؟ إنها في زقاق برود، على طريق شوميكر من هاوندسدتش. هل يمكنك تذكر العنوان؟"

"زقاق شو، طريق هاوندسميكر، برود ديتش."

"لايل!"

"أعرفه، يا فتاة."

"آمل فقط ألا يجدني ذلك الرجل في هذه الأثناء."

"لا بأس عليكِ. ما هي الأوصاف التي يملكها صياد اللصوص: امرأة بشعر بني وفتاة صغيرة؟ هناك آلاف منهم في كل أرجاء لندن. والآن، "قال، وهو يتجرع ما تبقى من قدحه. "سأذهب وأرى ما وجده الصبية الثلاثة من معلومات، وأحضر أمتعتك. أين أقابلكِ؟"

فكرتُ للحظة. "طريق باترنوستر، خلف كنيسة سانت بول، عند أكشاك الكتب."

أومأ. "ألقاكِ هناك بعد عشرين دقيقة، أو نصف الساعة على الأكثر. ثم يمكنكِ الذهاب إلى منزل صديقتك. ولكن تذكري ألا تلفتي إليكِ الأنظار."

"هل انتهيت من نصائحك؟" قلتها ممازحة، وناولته مفتاحي، الذي وضعه داخل سترته.

"لا أحد يملي على بيس برايت أفعالها، ها؟ حسنا، إنني أعتني بكِ. يبدو أنكِ لم تعهدي ذلك."

***

كانت الشوارع أهدأ بعيدا عن لودجيت هيل، وطريق باترنوستر مُشجرا ومعتما في ظل كاتدرائية سانت بول. لن يشك أحد في أم وابنتها يتصفحان كتب الصلاة في الأكشاك الخشبية خارج

المطابع، بينما صناعة الورق والكلمات أبعد ما تكون عن عالمي. لم أعرف أحدا يستطيع القراءة أو الكتابة، ولا أيًا من المطابع التي ارتادها الزبائن لشراء الأناجيل ذات الحواشي المذهبة إن كانوا يملكون المال، أو المجلدات المستعملة إن لم يفعلوا. أخبرتُ جورجيت أننا سنذهب لمشاهدة الكتب، فتهللت أساريرها في الحال. وانفصل عنا لايل إلى الأزقة ومشينا ببطء في شارع ماريا إيف.

قلتُ بخفوت شديد: "جورجيت. علينا أن نبدو كمن خرج لشراء شيء، ولكن لا تتوقفي طويلا في أي مكان، ولا تنظري في عيني أحد."

"لماذا؟"

"لأننا لا نريد أن يرانا أحد."

كان الشارع وارفا، وأمام المطابع نُصب عشرون كشكا مُكدَّسين بالكتب. مشينا يدا في يد، حتى نهاية الشارع ثم عدنا، وحييت بإيماءة قصيرة بائعا أمال لي قبعته، وهززتُ رأسي لآخر عرض شراء إنجيل رخيص. جالت في المكان امرأة تبيع العمائم، وهي تُدوِّرها على يديها، وسار قسيسان في ثوبيهما بانسيابية فوق الشارع المبلط، وهما يتحدثان بخفوت.

قلتُ لجورجيت: "لماذا لا تجربين البحث عن شيء من كتبكِ هنا؟"

"كتبي أنا؟" كانت مُرتبكة.

"كلا، ليس كتبكِ أنتِ. إنها ليست هنا، ولكن القصص تُطبع بأكثر من نسخة."

قطَّبتُ في ارتباك، وفي تلك اللحظة رأيته في الكشك المجاور. كان صيَّاد اللصوص يسير بخمول في طريق باترنوستر، مُتصفحا أكشاك

الكتب ويتوقف أحيانا عندما يلفت شيء انتباهه. لم أر منه سوى ظهره، وعباءته وقبعته، وجزء صغير من جانب وجهه العريض الأملس. لم أكن قد رأيته جيدا في المرة الأولى، لكنني عرفت بحاسَّتي أنه نفس الرجل، كما يعرف الأرنب الثعلب. شعرتُ وكأنَّ جليدا غمرني، وأمسكتُ يد جورجيت لنبتعد، لكنها شدَّتني إليها ومدت يدها إلى كتاب أحمر صغير.

سألتْ: "ما هذا الكتاب؟"

حاولتُ توجيهها بعيدا، وكل انحناءة في جسدي تنذر بالخوف والقلق، لكنها صدَّتني بحنق وقالت: "إنني أنظر في هذا."

"هل أساعدكِ، يا آنسة؟" اقترب منا صاحب الكشك، وشعرتُ بأحشائي تنهار.

قلتُ بفحيح: "أعيديه إلى مكانه."

"أريده! لونه أحمر، مثل بيدي جونسون."

تمتمت: "لا أملك المال. والآن أعيديه إلى مكانه."

شعرتُ بالحضور الثقيل لصياد اللصوص يقترب، وسمعتُ حذائه يدق الأرض بأناقة.

بحثتُ بجنون حولي عن شيء ما، أي شيء، نتوارى خلفه. لو دار حولي ورأى وجهها، ثم وجهي...

"تكلمي بالفرنسية،" هسستُ باستعجال. "احكي لي قصة الحديقة، الآن، هيا!"

حدَّقت جورجيت في وجهي بعينين مُتسعتين، لكن سنها وذكاءها كانا كافيين لاستشعار الخطر الخفي. اقترب صياد اللصوص كثيرا من خلفنا، واستعجلتها بالإيماء أن تتكلم.

"لـي جارديـن إي ماجنيفيسـيك اون ايتـي،" قالـت، فأومـأت مُشجعة، ولاحظتُ أنه توقف خلفنا الآن. استدرتُ ببطء نحو الكشك، محاولة أن أبدو طبيعية، وواصلت جورجيت بتقطُّع. "لي روزيز سيبانوي سـو لي شـود سـوليي إي لي بارتيـر سـون دون إيكلا دي كولور."

"عفوا، يا آنسة؟"

أغمضتُ عينـي، وشـعرت بالأرض تميـد من تحتي. هـل أتظاهـر بأني لم أسـمعه؟ ثم شـعرت بيد على كتفي، كالكلابة، فدرتُ لأنظر في وجهه بملامح تُظهر الارتباك.

"وي؟" كانـت الكلمـة الفرنسـية الوحيـدة التـي أعرفهـا. كان يُمعن النظـر فـي وجهـي؛ عينـاه صغيرتـان، واستقرت في وجهـه الكبير كحبـات الزبيـب فـي الكعكـة. لـم يكـن يعتمـر باروكـة، وكانـت قبعتـه وملابسه غالية الثمن. بادلته التحديق، وأنا أدعو بكل ذرة من جسدي أن تظل جورجيـت صامتـة.

"هـل تتحدثيـن الإنجليزيـة؟" هكـذا سـألني، وكانـت لهجتـه كوكنيـة، إنمـا مصقولـة عنـد النهايات؛ لا أحد سـيخطئ في تمييزه عن النبـلاء، رغـم محاولاتـه فـي الظهـور كواحـد منهـم.

قطَّبـتُ وهـززتُ رأسـي، مشـيرة بإحـدى يـدي أننـي لـم أفهـم، ومُعتصـرة أصابـع جورجيـت بالأخـرى. فانتفضتْ، ونظـر إليهـا. وبعـد عمـر مـن العـذاب الخالـص، قـال: "طـاب يومـك،" وبعـد نظـرة أخيـرة طويلـة، مضـى ويـداه خلـف ظهـره.

ولـم تمضِ خمـس ثـوانٍ حتـى سـألتْ جورجيـت: "مـن كان-؟" فأسكتُّها قبل أن تكمل سؤالها، وعدتُ إلى الكشك، وأنا أضع شالي فوق

رأسي فاستقر عليه مثل قلنسوة. شعرتُ بالرجل ما يزال بعد في طريق باترنوستر، شعرتُ به مثل الورم تحت الجلد. بعد أن مرت دقيقة أو اثنتين، اختلستُ نظرة إلى الشارع ورأيته في واحد من الأكشاك الأخيرة، يحمل مجلدا من هنا ومجلدا من هناك بقفازيه السوداوين، ثم يعيدهم. وتحسُّبا لكونه مازال يراقبنا، حاولتُ أن أمثِّل أننا لم نجد شيئا يثير الاهتمام، وتحركتُ في بطء شديد عائدة من حيث أتينا. شعرتُ وكأننا ندير ظهرينا لأسد. لم يظهر لايل، لكنني قررتُ أنه لا يسعنا الانتظار أكثر.

"أحسنتِ عملا هناك،" أخبرتُ جورجيت، وأنا أسترق النظرات هنا وهناك فيما انعطفنا يمينا وليس يسارا، بعيدا عن لودجيت هيل ولايل. أدركت أنني كنت أرتجف. "نفذتِ ما قلته لكِ وتكلمتِ بطلاقة. إننا نلعب لعبة، حسنا، حيث لا ننظر إلى الناس أو نتحدث معهم، ونتحرك بأسرع ما يمكننا. إن تحدث إلينا أحد، فعلينا أن نجيب بالفرنسية، ونخبره أننا لا نعرف أية إنجليزية."

"لماذا؟"

أجبتُ: "لأن هذه هي قواعد اللعبة".

"إلى أين نذهب؟ لقد اتفقنا أن نقابل لايل عند أكشاك الكتب." أدركتُ بارتياح أنها لا تعرف شيئا عن الخطر الحقيقي الذي كنا فيه. "لا يمكننا ذلك الآن، ولكن لا تقلقي. سوف يجدنا."

***

كان الزقاق الذي تعيش فيه كيزيا خاليا عندما وصلنا.

أسرعتُ بالعبور إلى نافذتها لأطرقها، مُخفية وجهي تحت القلنسوة لأتجنب نظرات جيرانها الذين تطل منازلهم على الفناء المعتم. كنا قد اتخذنا مسلكا متشعبا عبر المدينة إمضاءً للظهيرة وحتى تحين الساعة التي تضبُّ فيها كيزيا عربتها وتجرها عائدة، شاعرة طوال الوقت وكأن هناك من يتعقبنا، أنَّ صياد اللصوص سيكون عند أي منعطف، مُتكئا بتكاسل عند أحد المداخل، ينتظر وقوعي في فخه. كان تجوالنا الممل عبر المدينة، الذي شعرتُ فيه بكل عينين وقعتا علينا، قد جعلنا مُرهقتين ومتوترتين، ثم بدأت السماء تمطر. وقرب كورنهيل، تذمرت جورجيت أنها مبتلة، وحذاؤها يؤلمها، وأنها تحتاج إلى المبولة، فرفعت لها تنورتها لتقضي حاجتها في زقاق. رفضتْ، وقد شحب وجهها من الارتياع، وأصرَّت على حاجتها للمبولة، لذا كان عليَّ أن أرفع تنورتي بنفسي لأريها كيف تفعل ذلك. وعندها لاح نوع من الامتعاض على وجهها، وكأنها اعترَّت مني، لكني تجاهلته.

ظهر وجه كيزيا أخيرا عند النافذة، وبعد لحظة فُتح الباب، وأسرعتُ بنا إلى الداخل ثم إلى غرفها.

كان ولداها يأكلان فطائر لحم على الطاولة الكبيرة، وقد تدلت أقدامهما على بعد بوصات من الأرض. قرفصت كيزيا أمام جورجيت وأمسكت بكتفيها.

"لا بد أنكِ جين! كنت أتطلع بشوق للقائك." ثمَّ ضمَّتها إلى صدرها. كانت جورجيت مُتخشِّبة كعصا مكنسة، وقد اتسعت عيناها الداكنتان في وجهها الشاحب.

"اسمي جورجيت،" قالتها مُعترضة، وضحكت كيزيا.

"القول قولك. أصبحتِ امرأة صغيرة! إنها صورة منكِ، يا بيس."
ابتعدت عنها جورجيت والتصقت بتنورتي.
قلتُ: "جورجيت، هذه صديقتي كيزيا، وولداها جوناس وموزيس. إنها تبيع الفساتين لسيدات رفيعات المقام في الإيست إند."
نظرت جورجيت حولها إلى الغرفة المهلهلة وإلى الولدين الجالسين على الطاولة، وكانا حينها يراقبانها بهدوء. نزعتُ عنها شالها المبلل ومسَّدتُ على شعرها. "قابلتِ أناسا كثيرين مؤخرا، أليس كذلك؟ أكثر ربما مما قابلتِ في عام كامل. هيا، فلتجلسي هناك مع موزيس وجوناس، بينما أتحدث مع كيزيا."
هزت رأسها، فقرفصتُ أمامها. وقلت: "ما الخطب؟ لستِ خجولة! تتذكرين بيدي جونسون. لماذا لا تروي قصتها على الولدين؟ هيا." حاولتُ أخذها إلى الطاولة، لكنها هزت رأسها مرة أخرى وبدت مستعدة للبكاء. تنهدتُ. "حسن، تعالي واجلسي معي إذن."
علَّقت كيزيا شالينا فوق العارضة المواجهة للمدفأة وجلسنا على جانبيها، فجلستُ أنا في الكرسي الهزاز، وجورجيت على ركبتي. كان الكرسي المتين بإيقاعه الثابت يريحني دائما، وقد رحتُ دون وعي أدفعه ليتحرك وأنا أقصُّ على كيزيا أحداث ليلة الأمس وصباح اليوم. كانت عيناها الداكنتان عميقتين، وقد خلعت قلنسوتها فيما أنصتت، ومشَّطت خصلات شعرها الملبَّد القصير.
وعندما انتهيتُ قالت: "يمكنكِ البقاء هنا قدر حاجتك،" فشكرتها. شعرتُ بجورجيت تزداد ثقلا على حجري، وأدركت أنها نائمة. بوسعي التحدث بحرية الآن.

همستُ، "لقد أطلقت السيدة كالارد نبَّاشا خلفي. رأيته في زقاق بلاك آند وايت وكدنا نقع في قبضته منذ قليل." ازدردتُ لعابي، إذ احتقن حلقي بالسؤال الذي كنت أمهد له. "هل تظنينهم سيشنقونني، يا كيز؟"

"لا يمكنهم شنقكِ لأنكِ استعدتِ ابنتكِ!"

"ولكنهم لا يعرفون أنها ابنتي. سوف تحلف السيدة كالارد أنها ابنتها."

عضَّت كيزيا على شفتها، ورأيتُ الولدين يراقبان بأعين مُتسعة من الطاولة. اختلستْ هي إليهما نظرة، ثم إلى جورجيت. وتمتمت: "أنتِ متأكدة أنها ابنتك؟"

"أجل. انظري إلى ما وجدتُ في منزلها." ومن جيبي أخرجتُ نصفي القلب المصنوع من عظم الحوت. تناولتهما كيزيا مني في ذهول. "النصف الذي يحمل حرفي الباء والجيم هو لي. والسيدة كالارد تملك الآخر."

"دال دانيال. هذا كل ما تحتاجين إذن! يوجد توثيق له في ذلك الملجأ الذي يُدعى فاوندلينج؟"

"نعم، لقد دوَّنوه. لكنني سرقته من منزلها!" هززتُ رأسي. "لا أفهم كيف عرفت ما تكون العلامة، دون أن تتعرف علي. إنه ليس منطقيا."

فتحت كيزيا فمها وأغلقته، ثم تنهدت. "لا أعرف، يا بيس. لا شيء من هذا منطقي."

وفجأة أصابني إرهاق عميق. كان الضوء يخفتُ في

النافذة، فأرحتُ رأسي على ظهر الكرسي، للحظة فقط، قامت فيها كيزيا لتمسح أيدي الولدين وتشعل نارا. تركتُ عينيَّ تجولان في الغرفة، فلاحظتُ الحوائط المُنشَّعة بالرطوبة والبقع في الغسيل المنشور فوق رؤوسنا. منذ عرفتُ كيزيا وأطباقها متكسرة، وكراسيها تفقد ضلعا هنا أو هناك، إنما لا أعرف لم انجذبت عيناي فورا لكل العيوب والعثرات. لولا أني مُتعبة جدا، لشعرتُ بالغضب أنَّ امرأة تعمل ستة أيام في الأسبوع من الفجر إلى المغرب، وزوجها من المغرب إلى الفجر، ومع ذلك لا تملك حتى ذؤابة من ثروة السيدة كالارد. السيدة كالارد، التي تحدث الجميع بحدة وتعالٍ وجفاء، بينما كل ما تفعله هو صعود السلَّم ونزوله في نعليها الحريرين واستقبال الشاي الذي يأتي إليها على آنية من فضة.

تناهى وقع أقدام في الزقاق، لكن ستارة حمراء خفيفة كانت تغطي النافذة الآن. وأدركتُ أنها أيضا أخفتني، وبدأتُ أفهم لأول مرة ما عاشته كيزيا كل يوم. توجب عليها أن تخفي ولديها، وها أنا يتوجب عليَّ الآن إخفاء ابنتي. لكن الفرق أنني مازلتُ أملك أملا في نهاية للأمر: أننا يوما ما سنتمكن من التنقل بحرية عبر الشوارع بوجهين مكشوفين، ودون خوف ممن يقابلنا. أما كيزيا وولديها فلا نهاية لخوفهم؛ سيعيشون دائما كالجرذان تحت ألواح الأرضية. كنتُ أعرف ذلك، لكني لم أفهم أبدا كيف يكون الشعور به حتى الآن. لماذا انتصبت أذناها باستمرار من أجل ولديها، وكيف دقَّ قلبها دوما خوفا عليهما. راقبتها وهي تنظف الموقد،

وتكنس الرماد في جاروف، وشعرتُ بدفعة حب ووفاء. حضنتُ ابنتي، الثقيلة فوق صدري، وفهمتُ أن الحب والخوف لا يختلفان. ليس تماما.

***

مكثنا مع كيزيا طوال ذلك الأسبوع، وحاولتُ أن أكون مفيدة لا مزعجة. فمنحتها نقديَّة للطعام والإيجار، وساعدتها قدر استطاعتي فرتقتُ الملابس التي تبيعها واعتنيتُ بالولدين أثناء غيابها في العمل. أما ويليام فقد حافظ على نظام يومه المعتاد، فينام أو يتمرَّن خلال النهار ويخرج مع كمانه قبل الظلام. وكنا ننام على الكرسي الكبير بجوار المدفأة. انعزلت جورجيت، وفي لحظات الهدوء كنت أراها تجيل أنظارها في الغرفة باهتمام. لم تكن معتادة على النوم والأكل والعيش في غرفة واحدة، لكن كيزيا وفَّرت منزلا دافئا ومرتبا وطبخت طعاما بسيطا وطيِّبا من السوق. عاشت جورجيت منذ صغرها مع ثلاثة أشخاص فقط، واثنان منهم عملا في خدمتها، لكنها بدأت تسترخي تدريجيا في صحبة آل غيبونز، لأنهم كانوا عائلة تقليدية، بأم وأب وطفلين، كالعائلات التي قرأت عنها. كان ذلك هو السبب الذي جعلني أجد الراحة معهم، وأظنها أيضا وجدتها.

في الليلة الثانية، أبدت اهتماما ببضاعة كيزيا من الملابس والاكسسوارات في ركن الغرفة. وخضع لها جوناس بطيب نفس عندما شرعت تُلبسه القبعات والمعاطف بينما شاهدنا نحن من كراسينا أمام المدفأة. قرر شقيقه الأكبر أنهم سيفتحون متجرا،

فقلبوا صندوقا قديما وجعلوه طاولة بيع وتقاضوا فلسا عن القطعة. استخدمنا كيزيا وأنا أقماع خياطة وأزرارا كنقدية، ولعبت جورجيت بسعادة لساعة أو أكثر، فارتدت ثوبا مخططا أكبر منها بعشر مقاسات وقبعة رجالية مثلثة، وناولتنا الملابس فيما تظاهرنا بفحصها بحثا عن براغيث أو بقع. عاد ويليام بكيس كستناء محمص ونحن نلعب، فتشاركناه قبل أن نغلق المحل ونضع الصغار في فرشهم. وفي الصباح خرجت كيزيا للعمل وغادر ويليام للتدرب مع فرقته، ولعبتُ مع الصغار لعبة المحلات مرة أخرى. راق للولدين أن تنضم إليهما جورجيت في لعبهم؛ أصبحت أقل خجلا في وجودهم، ووجدتُ ورق لعب فعلَّمتهما الكونكان والسوليتير. أخبراها عن كناري السيدة أبلمان، وطلبتْ رؤيته، لكن الجواب كان لا بالطبع. قرأتُ لنا فيما تثاءبتُ وأغمضتُ عينيَّ لساعة، واستيقظتُ لأجدهم على بطونهم في غرفة النوم يجمعون ترابا ويتبارون فيمن سيجمع أكبر كومة. جاء العصر وانقضى، ثم جاء الليل، ولا خبر بعدُ من لايل. ثم مضى وقت طويل بعد أن رفعنا العشاء وذهب الجميع للنوم، واستيقظت من نوم متقطِّع على صوت ويليام وهو يدخل المنزل. أغلق الباب برفق، وجلس على المقعد ليخلع حذائه في الظلام.

همستُ: "ويليام؟"

توقف، وانتظرتُ، عاجزة عن الحركة تحت جورجيت، التي كانت تتنفس بعمق، فيما قام هو يبحث عن جذوة ليشعلها. وفي اللهب الضئيل، رأيته في باروكة رمادية وسترة زرقاء أنيقة.

سألته: "كم الساعة الآن؟"

"الثانية وبضع دقائق،" أجاب همسا، ثم جلس في الكرسي المقابل، ونظر إلى باب غرفة النوم لكنه لم يدخلها.

فركتُ عينيَّ، ورغم الظلام رأيتُ اضطرابه.

"ما الخطب؟"

بدا لوهلة وكأنه يزن ما سيخبرني به.

قال بصوت جامد: "كنتُ الليلة أعزف في قاعة الحفلات في بيكاديللي. وقد وُضعت مقاعدنا إلى جوار باب فاصل كبير تنقَّل عبره الرواد بين الحجرات. وأثناء تغيير النوتة، سمعتُ محادثة بين ضيفين، يقفان على الجانب الآخر مباشرة. وكانا يتكلمان عن طفلة مفقودة."

طقطقت الجذوة وأرسلت شررا.

"كان أحد الرجلين –وأظنه برتبة فريق؛ لم أسمع اسمه جيدا– يخبر الآخر عن فتاة صغيرة خُطفت من منزل في بلومزبري، ابنة أرملة ثرية. كل حراس المنطقة في حالة استنفار ويبحثون عنها."

كان قلبي يدقُّ بسرعة.

"إنهم يبحثون عن امرأة في الخامسة والعشرين تقريبا، داكنة الشعر والعينين، وترتدي فستانا قطنيا منقوشا."

عدتُ للانكماش في الكرسي، وأنا أتململ تحت جورجيت التي كانت ما تزال نائمة. صمَتنا دقيقة كاملة سمحتُ فيها لنفسي باستيعاب هول ما أخبرني به.

ثم سألته أخيرا: "هل سمعت شيئا آخر؟"

هز رأسه نفيا، وطقطقت الجذوة.

فركتُ وجهي بقوة. "آه، أين لايل؟ قال إنه سيأتي قريبا. ولكن

حتى لو جاء، فكيف سأصل إلى لامبث، إن كانوا يبحثون عني في كل مكان؟"

استغرق ويليام في التفكير. ثم قال: "لن يبحثوا عن صبي صغير. يمكن لجورجيت أن ترتدي ملابس موزيس وتجمع شعرها تحت قبعة."

"فكرة جيدة. خلّصنا من أمر على الأقل. ولكن يظل السؤال، ماذا لو عجزت شقيقة لايل أن تجد لي عملا في نهاية المطاف؟ آه، آمل أن يأتي قريبا، وإلا أصبحتُ في ورطة كبيرة."

حسبتُ ويليام سينهض، ولكنه بدا مُتجهما وجادًّا، وكأن في جعبته شيئًا آخر.

"ويليام؟"

تململ في كرسيه وبدا عليه الذنب. "لا أعرف كيف أقول هذا، يا بيس."

شعرتُ بجفاف شديد في فمي، وانتشرت برودة في الغرفة. "ما الأمر؟"

"حسنا، تعرفين وضعنا كيزيا وأنا... إن رآكِ أحدهم هنا، فسوف يشك بالأمر. لا يمكننا التعلل بأنكِ من الأقارب، وإن حدث ونظروا من النافذة ورأوا طفلة بيضاء..."

أغلقتُ عيني. "بالطبع. أفهم. سأغادر قريبا، أعدك".

أومأ ويليام ثم أوى إلى فراشه، فتركني في الظلام، غارقة في تأنيب الضمير. إن بقيتُ، فما هي إلا مسألة وقت حتى يعثروا عليَّ؛ قد تفتح جورجيت الستارة أو تصرخ طالبة الخروج من المنزل بعد أن سئمت الوضع. وكنتُ طيلة ذلك الوقت أعرّض صديقتي وعائلتها

للخطر. تخيلتُ حشدا أمام باب كيزيا وفي أيديهم مشاعل هائجة، ووجوههم تنضح بالكراهية. لا شهية تضاهي شهية الانتقام من مجرم. كنتُ أعدُّ نفسي ليوم الشنق - يسمونه مهرجان بادينغتون، والذي يُذكّر المرء بالأكاليل والنزهات. أرملة منزل رقم سبعة قد جدلت حبال الشنق للجلاد.

فكرتُ في إيب، نائما في المنزل. هل عرف أنني مطلوبة للعدالة؟ لن يقرأ الخبر في الجريدة ولكنه ربما يسمعه في الزقاق من نانسي، أو من رجال بيلينجز جيت وزوجاتهم، والذين ربما أخبروه أن الشرطة تبحث عني. ماذا سيظن عندما يسمع أن ابنته خطافة أطفال؟ لم أكن قد أخبرته الحقيقة، بالطبع، عندما توظّفتُ في شارع ديفونشاير. ذُهل إيب عندما أعلنتُ أنني سأصبح مُربية أطفال، وحتى حينها لم أخبره بكل شيء. كانت خطتي البدائية هي أن أعود بجورجيت وأقول إنني وجدتها وأن الوظيفة لم تناسبني، آملة ألا يلح في التفاصيل. كان إيب رجلا في حاله، ولم يتدخل في شئون الغير. وعرفتُ أن عليَّ مكاتبته حال وصولي إلى لامبث، وإخباره ألا يقلق، لكن إيب كان آخر مشاكلي، وحمدتُ الربَّ أنه لم يرَ جورجيت في الليلة التي سبقت رحيلي.

نمت نوما متقطعا في تلك الليلة، تخيلتُ فيه الصحف وما كتبته. لا بد أنهم طبعوا اسمي وعنواني. كنتُ قد أقنعت الدكتور ميد أن لقبي الحقيقي هو سميث، وأخبرته أنني جئتُ لاسترداد ابنتي باسم مزيف، وأنني أُدعى إليزا، وليس بيس. صدقني حينها، حيث لم يغب عنه المدى الذي قد تذهب النساء إليه للتستر على طفل غير شرعي.

للتستر على عارهن. الساق المكسورة، كما أطلق عليها نيد من قبل. تمنيتُ لو أكسر له الساقين. بسببه، أصبحتُ حبيسة هنا كالهاربة من دفع الأجرة، مُتَّكلة على طيبة أصدقائي. ولكن ربما كان هذا المكان آمن من مسكن مُستأجر، فلا مالكة أثير ارتيابها ولا جيران أتجنبهم. كنت أعرف السرعة التي تتكون بها الآراء حول السكان الجدد، والجمود الذي تثبت به تلك الآراء في قوالبها. حسن، إنني هنا الآن، ولدي كرسي مريح أنام عليه الليلة، وبعض النقود التي ستساعدني عند انتقالنا إلى مكان آخر.

لكن انتظاري لم يطل. فقبل أن ينتشر ضوء النهار بالكامل، سمعتُ نقرا خفيفا على الزجاج. كنتُ نصف نائمة، بذراع خَدِرة من ثقل جورجيت، لكني لم أرغب في تحريكها وإيقاظها. كان النقر من الخفوت حتى ظننته آتٍ من الطابق العلوي، لكنه انبعث من جديد، على النافذة دون شك. استيقظتُ دفعة واحدة، ورفعتُ جورجيت بحذر، فوضعتها على الكرسي الكبير مع الحِرام ومضيتُ لرفع الستار. لامس الفجر الفناء، ونظرتُ خارج النافذة، فلم أر أحدا في البداية، ثم تحول الخوف إلى ارتياح إذ وجدت الطارق لايل، مُدّنيا طاقيته على عينيه. أسرعتُ إلى الردهة الساكنة لأدخله، فأخذتُ مفتاح الباب الرئيسي من الشكل الذي تخفيه لوحة على الحائط. لم يقل أحدنا شيئا وهو يتبعني إلى الداخل ويضع مشعله جوار الباب. وعلى أحد كتفيه جِوال كبير عرفتُ أنه جوالي، وقد وضعه برفق على الأرض.

همستُ: "لقد جئت."

نزع طاقيته. وكانت لفتة مهذبة زادت إعجابي به، وأدركتُ

حينها كم كنتُ أفكر فيه، وكم أردتُ رؤيته. جثوتُ أمام الجِوال وبدأتُ أقلّب داخله.

قلتُ بحدة: "أكنت تحمل هذا طوال الأسبوع؟"

"خبأته في مستودع - حرسه صديق بالنيابة عني. ماذا حدث في باترنوستر؟"

أخبرته عن صياد اللصوص وهروبنا بأعجوبة، فأطلق سُبَّة ووضع طاقيته على رأسه، ثم رفعها مرة أخرى وحكَّ رأسه. أردتُ أن أسأله عن سبب تأخره كل هذه المدة، لكنني شعرتُ فجأة بخجل شديد، وارتبكتُ بسببه. أخرجتُ ملابسنا من الجوال وشرعتُ أطويها وأضعها فوق بعضها على طاولة المطبخ وأنا أوليه ظهري.

"إن كنتِ تتساءلين لماذا لم آتِ قبل الآن، فلأنني أدركتُ عندما ذهبتُ لجلب أمتعتك، أن مُخبرا ربما يراقب المكان. لا أعرف أين كان عقلي، عندما قررتُ أن أدخل المكان بكل تلك الوقاحة. وعليه خرجتُ وتجولتُ قليلا أخذا للحيطة، وذهبتُ إلى مقهى قضيتُ فيه ساعة. لا أعرف كيف يشرب الأثرياء ذلك الشيء - فظيع. هل هذا بيت رفيقتكِ إذن؟"

قلتُ: " كيزيا نائمة."

"إنها فاقدة الوعي." وأشار برأسه نحو جورجيت، التي كانت مُدثَّرة في حِرام سميك وقدماها تتدليان فوق الأرض. نظرنا كلانا إليها لشغل أنفسنا، ثم تذكرتُ سبب مجيئه.

سألته: "أيُّ أخبار من لامبث؟"

"آه، نعم. لقد حصلتِ على وظيفة في المزرعة كعاملة ملبنة.

حسنا، بيث ميلر وابنتها جين هما من حصلتا عليها. لقد أخبرنا صاحب المزرعة أنها في التاسعة، لذا ربما تضطر إلى الوقوف على أطراف أصابعها. سوف تعمل إلى جانبك. أنتِ أرملة بحار من شادويل، وسوف تتشاركان فراشا في بيت المزرعة."

خارت قواي ارتياحا. استدرتُ وشكرته، وتأملني متشبثا بطاقيته.

ثم قال: "لا مزيد من الاختباء. ستكونان بخير مع العزيزة آنّا؛ سوف تعتني بكما."

"متى أبدأ؟"

"بعد غد. حسنا، بما أننا في الصباح الآن، فهو الغد إذن. سأقابلكِ على جسر وستمنستر منتصف الليل من هذه الليلة، وأصحبكِ إلى هناك. وسوف تكون آنّا في انتظارنا. إنها ليست بعيدة عن النهر، ميلين أو نحوه."

"هل هي بعيدة بما يكفي؟"

"مزرعة ألبان في لامبث؟ يكفي أن تضعي نهر التِّيمز بينكِ وبينهم وستكونين كمن سافرت وراء البحار."

"وماذا عن صياد اللصوص؟"

"آه، ذاك. كان يبحث عنكِ بالفعل. اسمه بلور؛ ويعمل من وكر في طريق تشانسري. راقبته لمزيد من المعرفة -يأكل الكثير من فطائر اللحم، إلا أنه ماهر. لكنكِ ستغلبينه في العدو، إن وصل الأمر إلى ذلك." ابتسم بزاوية واحدة من فمه، ورددتُ الابتسامة. "لا تقلقي،" قالها بخفوت، وهو يقترب مني. "ستخرجين من هنا قريبا."

غمرنا الضوء الخافت عبر الستارة الحمراء، مُلقيا ظلا على نصف وجه لايل الغامض. كان يبدو جادًّا جدا عندما يصمت، وكان ينظر إليَّ الآن وكأن على لسانه شيئا آخر يريد قوله. اقتربتُ منه دون وعي.

سعل أحدهم من الغرفة الأخرى؛ كان الفجر قد حلَّ الآن وأهل البيت في سبيلهم للاستيقاظ. وتناهى من الطابق العلوي صوت حركة بعيد. أحكمتُ شالي حول كتفيَّ من حيثُ سقط.

وقلتُ: "منتصف الليل. جسر وستمنستر. سأكون هناك."

الفصل الثامن عشر



يغلق إيب كشك الروبيان في الثالثة، وكنتُ أحفظ الطريق الذي يسلكه للمنزل: شارع التِّيمز باتجاه جسر لندن، ثم شمالا بامتداد طريق فيش ستريت هيل إلى النصب التذكاري، ثم غربا من شارع غريت إيستشيب إلى كاتدرائية سانت بول. ولأني لم أرغب في الاقتراب من بيلينجزجيت أو زقاق بلاك آند وايت، قررتُ انتظاره في منتصف الطريق، مُتكئة على سور فناء كنيسة مهمل قرب طريق بادج وأنا ألف رأسي بشالي. وصلتُ في الثالثة، آملة أن يحافظ على نظامه المعتاد وألا يذهب إلى حانة دارك هاوس طلبا لكأس جعة، أو إلى المسفن لسماع ما يُقرأ من الجرائد. ركَّزتُ أنظاري في السيل المتواصل للمارَّة المتجهين غربا، وبعد عشرين دقيقة كدتُ أُفوِّت هيكله العجوز المتهدِّل وهو يمشي مُتثاقلا على الجانب الآخر من الطريق. فعبرتُ بسرعة، متفادية عربة كارو، وبدون تحية سحبته إلى شارع جانبي ظليل. دفعني عنه، وهو يُضيِّق عينيه ليرى من أكون في المكان المعتم. وضعتُ إصبعا على شفتي إيماءً بالسكوت واتسعت عيناه. دفعته إلى الفناء في نهاية الشارع – مكان أنيق ومبلَّط بشجرة

وحيدة في منتصفه، تحفُّه صفوف من المنازل اللصيقة المبنية من الطوب الأحمر.

"بيس" بدأ يقول، لكنني أسكتُّه وأدنيتُ شالي أكثر فوق رأسي.

ثم قلتُ: "لا يمكنني البقاء طويلا. جئتُ لأخبرك أنني سأرحل الليلة. أنا آسفة أن الأمور جرت على هذا النحو وأنني لم أعد إلى المنزل."

"حصلتِ على الفتاة إذن؟"

"سمعت؟"

"أنا وكل من في البلدة. بيس، إن الخبر في كل الجرائد، في كل الأزقة، عن إليزابيث برايت، المربية التي سرقت الطفلة المُكلَّفة برعايتها. في كل أنحاء بيلينجزجيت! جاءني الحمَّالون يسألون هل الخبر صحيح؛ لا يمكنهم تصديقه. "ابنتك بيس، تسرق طفلة؟" وعجزتُ عن الجواب. وجافاني النوم. لم تكن معكِ عندما عدتِ إلى المنزل تلك الليلة، أليس كذلك؟ كنتِ بمفردك."

"كانت معي. في غرفة النوم."

نفخ إيب خديه ثم أخرج الهواء بحدة وهو يهز رأسه. "إنكِ تلعبين لعبة خطرة، يا فتاة. أين كنتِ منذ ذلك الحين؟"

"في منزل كيزيا. لكنني سأرحل الليلة، إلى لامبث، إلى مزرعة هناك. لايل، صديق يساعدني. سأقابله على جسر وستمنستر وسوف يصحبني إلى هناك. أخته عاملة في ملبنة وقد وجدت لنا عملا، أنا وجورجيت."

هز رأسه. "آمل ألا يقبضوا عليكِ، لأن الحرس يبحثون

عنك. ورجل آخر، صياد لصوص. جاء لا أقل من ثلاث مرات، فدقَّ الباب، ليعرف إن كنتِ عدتِ لرؤية والدك. خشيتُ أن تعودي وهو هناك."

"أعرف أنه يلاحقني، ولن يجدني، كما أتمنى. خذ." بحثتُ في جيبي عما تبقى لديَّ من شيلينغات، وأعطيته ثلاثة. بدأ يحتجُّ، لكن كلينا عرف أنه احتجاج عقيم وأنه بحاجة إلى النقود. ودون كلمة وضعهم في جيبه مع تنهيدة. وقلتُ: "سأرسل المزيد عندما أستطيع."

"ربّاه، آمل أن تأخذي حذرك."

"إنني أفعل، ألا تثق بي؟ كانت معي ليلة أن عدت ولم تعرف. تمنيتُ لو قابلتها يا إيب. كنت ستحبها، أعرف أنك كنت ستحبها."

بدا طاعنا في السن، والتجاعيد حول عينيه وفمه وكأنها ازدادت عمقا. "ليس هذا صوابا، يا بيس. تمنيتُ لو أنكِ لم تفعلي ذلك. ما كل هذه الفوضى. أليست أفضل حالا في ذلك المكان الفخم الذي جاءت منه؟ أيُّ حياة ستمنحينها؟ كان جديرا بكِ أن تتركيها حيث كانت."

شعرت بسورة غضب. "كانت تعيش مع أمٍّ لا تحبها، لا تريدها. منزلها كالسجن، يا إيب. إنها لا تخرج قط. قد يكون كل ما أملكه هو شيلينغ واحد لكنني أنا أمُّها."

"قد تكونين أمها، يا فتاة، لكن الطفل يحتاج إلى أب أيضا. كيف ستعيشان؟"

"أخبرتك أنني وجدتُ لنا عملا، لكلتينا. إنها في سن تسمح بالعمل. عجبا، أنت نفسك دفعت بي إلى الكشك بعد وفاة أمي؛ لا

اختلاف هناك. لم يكن لي سواك طيلة هذا الوقت. وقد أبلينا حسنا، ألم نفعل؟"

هز رأسه مرة أخرى. وفي تلك اللحظة فُتح واحد من الأبواب المطلية في الفناء وخرجت خادمة تحمل مجرفة. رمقتنا بنظرة فاحصة، وأفرغت المجرفة فوق بلاط الشارع وانتظرت. توقعتُ كيف يبدو منظرنا، متشردان بملابس رثة، لا ينتميان إلى هذا الفناء الجميل. بادلتها التحديق ثم استدرتُ مبتعدة، عائدة إلى الشارع الجانبي.

"يجب أن أذهب الآن، لكني جئتُ لأخبرك أنني على ما يرام، وأنني سآتي لرؤيتك... آه، لا أعرف متى سآتي، لكنني سأفعل." ثم جذبته لأعانقه. فاحت منه رائحة السوق، والتي كانت بالنسبة لي وطنا. وحينها أدركتُ ضخامة ما كنت أفعله، وما كنتُ أهجره، وضممته بقوة وحاولتُ ألا أبكي وهو يضمني بدوره. لم نكن بحاجة إلى الكلام، أنا وهو. لقد استيقظنا معا، وسرنا للعمل معا. ربما أكون طفتُ حول المدينة، بين المقاهي والحانات والأسواق، لكنني دائما ما عدتُ إليه، لأجد سلة روبيان طازج في انتظاري، وكأنه يعرف أني سآتي. كانت الكلمات التي بيننا هي عندما رفع صحني من على حجري إن غفوتُ، وعندما ناولته قبعته قبل أن نغادر المنزل. عندما جلسنا صامتين في يوم أحد والمطر ينهمر في الخارج، وخمَّرنا إبريق شاي بأوراق شاي مستعملة أخذناها من عاملة التنظيف.

لم أكن أعرف متى أرى بيتي مرة أخرى، لم أستطع تخيل يوم يسعني فيه السير عبر الزقاق والدخول من الباب. لكنني لن أنساه أبدا:

الأرضية الخشبية التي عليها تعلمتُ الحبو، والسقف المائل. الصور التي ثبَّتها على الحائط وأنا صغيرة، والتي بهتت الآن، لمواضيع تافهة مثل صور كرات أو عشّاق، والقصص التي التقطتها من الشارع وأنا لا أعرف القراءة لكنها حملت صور بنات ينظرن بحنين إلى الحقول، ولهن شعر داكن وطويل كشعري. الدانتيل المتسخ أمام النافذة، والكرسي الذي جلس عليه إيب، بوسادته الحمراء القديمة، والباب الذي يقود إلى غرفة النوم حيث حلمنا نيد وأنا وهمسنا وضحكنا، وإلى جانبنا الإبريق الصفيح، وصندوق أمي، المنقوش بالورود.

"حظا سعيدا، يا بيسي،" قالها إيب بصوت أجش. "احترسي لنفسك، هلا فعلتِ؟"

"أشكرك."

منحتُ أبي قبلة خفيفة على خده، وأنا أكبح دموعي، ولم أستطع النظر إليه مرة أخرى: إلى الشك والخزي والخوف في عينيه الباهتتين، لأنهما عكستا ما في نفسي. عانقته مرة أخرى، بقوة، ثم ذبتُ في زحمة الطريق.

***

مع دقَّة العاشرة والنصف، أصبحنا جاهزتين للرحيل. كان المشي عبر المدينة إلى جسر وستمنستر سيستغرق ساعة أو أكثر، وبدأ رذاذ خفيف في الانهمار. سيكون علينا أن نسير بامتداد النهر، فنجعله على يسارنا ونتبع انحناءته، كغليون تبغ مقلوب. حزمتُ الجِوال مرة أخرى، وتلفَّعنا جورجيت وأنا جيدا اتقاء للريح والمطر.

كان اقتراح ويليام بتنكر جورجيت في هيئة صبي فكرة جيدة، إلا أنها تبرمَّت فيما ضفَّرنا شعرها وثبتناه تحت واحدة من قبعات موزيس وألبسناها سترة جوناس وسرواله.

"ألستِ نبيلا صغيرا!" هتفت كيزيا حينها، وقطَّبت جورجيت، فضحكنا جميعا. راقب الولدان في بهجة وأنا أزرر سترتها وأربط حذائها. وعندما دقت العاشرة، التوت معدتي فيما راجعتُ متاعنا مرة أخرى: فساتين، وشالات وسراويل داخلية، وحرامان، وبضعة شمعات، وقدحين صفيح وأطباق، وزجاجة جعة، وورق لعب جورجيت ونسختها من بيدي جونسون. كنت قد طلبت من كيزيا أن تشتري لها برتقالة كمكافأة، أدَّخرها لوقت حاجة. كان إحساس مريع بالنهائية يغلف كل شيء. وكأننا مُقبلتان على رحلة طويلة إلى بلد أجنبي، وليس إلى مكان يبعد أميالا قليلة من حيث وقفنا.

سألتني كيزيا: "ألا تريدين حقا أن يذهب ويليام معكما؟"

"أشكركِ، ولكن لا بدَّ أن نكون بمفردنا. لن تأتي خلفنا، أليس كذلك؟" سألته فهز رأسه نفيا. لم يكن لديه عمل في تلك الليلة، وقد خرج قبلها لشراء بعض الجعة لنشربها مع يخنة الأمعاء. وكانت جورجيت لاستشعارها الجو العام ربما، قد ضاقت بطعامها ورفضت تناوله، فانفعلتُ، وأخبرتها أنها ستبدأ العمل في الصباح الباكر، ولن تستطيع ذلك بمعدة فارغة. ثم غضبتُ من نفسي. جدير بي أن أضعها في فراشها مع دمية، لا أن أجبرها على السير في شوارع لندن بمنتصف الليل. لكن اعتلاء الفراش بدا حلما بعيدا جدا؛ شيئا بسيطا لن أستهين به أبدا بعد الآن.

وأثناء تذمرها، كرهتُ نفسي وخجلتُ منها، عندما تسللت فكرة صغيرة، غرست نفسها في ركن مظلم من عقلي، ألا نذهب بامتداد النهر ولكن إلى داخل المدينة وعبر الطرق العامة، حيث انحسرت متاهة الشوارع والأزقة الصغيرة، عن طرق واسعة خالية بمنازل عالية على الجانبين، وأن أطرق من بينها باب المنزل ١٣. تركتُ الصورة تتشكل، فتخيلتُ وجه السيدة كالارد ممتقعا من الصدمة، وارتجافة آغنس مع تنفسها الصعداء. وجورجيت، وهي تتشبث بي، وتنتحب على عتبة الباب... لا... ليس خيرا. لا يمكنني فعلها أبدا. إنها ابنتي.

كنتُ قد أخبرتها أن حياتنا ستغدو صعبة من الآن وصاعدا، وأنه سيتعين عليها أن تعمل وتصحو باكرا، وأنها ستشعر بالتعب الشديد والجوع، ولكن ماما ستكون دائما في الجوار. كنت أعرف أنها ستجد مشقَّة، وأنها كانت مدللة، وأن عليَّ أن أقسو عليها. شرحتُ لها خضَّ الزبدة، وحلب البقر، ورفع الدلاء، في الساعات الممطوطة بمنزل كيزيا، لكني رأيت بوضوح كيف أصغت وكأني ألقي قصة وليس واقعا. وماذا لو رفضت العمل؟ لو أظهرت غضبا ولفتت إلينا الأنظار، وأفقدتنا الوظيفة، فما العمل؟ لا، لا تفكري في هذا. كل ما علينا فعله الآن هو الوصول بأمان إلى وستمنستر، والوقوف على الجسر وانتظار لايل. لم أكن أعرف هل سيؤجر مركبة للرحلة أم سيأتي سيرا. سيكون عليَّ أن أعير انتباهي، وأحاول ألا ألفت الانتباه.

تبادلنا القبلات والوداع خلف باب آل غيبونز، وانقبضت معدتي أشد من قبل لأنني رأيت الخوف في وجه كيزيا. أخبرتها أنني

سأجد وسيلة لأكاتبها، فضحكت حينها، وقالت إنني لو تعلمتُ الكتابة بمعجزة ما، فسوف تضع أول خطاب أرسله في برواز على الحائط، وتبادلنا الابتسامات وتعانقنا بعاطفة. ثم أُغلق الباب، ورأيتُ الستار الأحمر يختلج فيما نظروا من خلف النافذة، وشعرتُ بغصّة من الانفعال - والارتياح أيضا، لأن الخطر زال عنهم.

"وداعا!" هتفت جورجيت، واضطررتُ لنهرها. انكمشتْ بعيدا عني، وقد تجهمت، وكأنني سأوبخها مرة أخرى.

قرفصتُ أمامها وأدخلتُ خصلات من شعرها كانت قد أفلتت من الطاقية. وقلت لها: "أمامنا طريق طويل جدا نمشيه الآن. أعلم أن الجو مظلم وماطر، ولكننا لا نملك خيارا. هل ستبقين قربي وتواصلي المشي، رغم رغبتكِ في التوقف؟"

نظرت إليَّ بجدية، وفركتُ خدها. أومأت موافقة.

"فتاة طيبة. هيا بنا."



***

قطعنا الطريق إلى جسر وستمنستر بأفضل ما أتاحه لنا الظلام. لم يكن ممكنا أن نسير بامتداد النهر نفسه، إذ كانت ضفة التّيمز تعج بأرصفة وسلالم ومرافئ صغيرة ومعقدة، بلا ممر محدد، لكنني حرصتُ على إبقائه في مرمى بصري ونحن ننطلق غربا. كان إدراكي بوجوده، واسعا ومتلألئا تحت سماء الليل، يمنحني إحساسا طفيفا بالطمأنينة؛ فقد كسبتُ قوتي من الماء، وكان وجوده إلى جانبي مثل كلب عجوز مخلص، مبعث راحة لي.

وأثناء سيرنا، حكيتُ لجورجيت عن السوق، ومن أين تأتي السفن وما تجلبه، والشخصيات التي تعمل هناك. راقت لها حكاية سمكة القرش الميتة التي عُلِّقت عند الرصيف، مثل حورية بحر قبيحة اقتُلعت أسنانها واحدة تلو الأخرى.

وفي منتصف الطريق تقريبا، خفَّ رذاذ المطر، إلا أن حقيقة مروعة أعلنت عن نفسها مع دنوِّ شارع التِّيمز من نهايته وأدركتُ السبب. كنا نقترب من فليت ديتش، النهر الذي انبثق من شمال لندن وتدفق تحت المدينة، وظهر من جديد أسفل منطقة فارينجدون عبر أنبوب صبَّ في نهر التِّيمز. لم يكن لعبوره سوى سبيل واحد: جسر في نهاية لودجيت هيل. كانت الحارات والشوارع الضيقة القريبة من النهر مظلمة وهادئة. وعلى ضفة النهر اصطفَّت خمَّارات وحانات تعجُّ الآن ولا بد بعمال المرافئ وعمال الميناء والمراكبية، ولكن لا بأس إن لم أقابل سواهم في طريق عودتهم إلى منازلهم. أسرعتُ بنا شمالا، مُؤكِّدة على جورجيت ألا تنظر في عيني أحد، ومُحكمة شالي حول رأسي أكثر. كان الجسر الضيق خاليا لحسن الحظ وكذلك الشوارع على جانبيه، فعبرناها بخطى سريعة دون النظر وراءنا.

وعند تمام الثانية عشر والربع، وصلنا إلى الضفة الشمالية من جسر ويستمنستر، مُبتلَّتين إنما ظافرتين. أضاءت بعض المشاعل هنا في جزء المدينة الأكثر أناقة، وتلألأ النهر قاتما من تحتنا، ممتدا ومتراميا حول منحناه. توارى القمر خلف سحابة، وكان ذلك في صالحنا، لأن أحدا لم يلاحظنا. وضعتُ يدي على سور الجسر

وسمحتُ لنفسي أخيرا بالاسترخاء. سيكون لايل هنا خلال ربع ساعة. لقد نجحنا: لقد وصلنا إلى هنا.

"ها قد انتهينا من الجزء الصعب،" أخبرتُ جورجيت، وأنا أحملها وأجلسها على السور الحجري المنخفض. "والآن، ما المفاجأة التي أحملها في حقيبتي لفتاة صغيرة مُطيعة؟" راقبتني، ولسانها الوردي الصغير يبرز من الفجوة في أسنانها الأمامية. أخرجتُ البرتقالة واندلع الفرح على وجهها، وطلبت مني تقشيرها. "دعينا أولا نصل إلى منتصف الجسر وسوف أقشرها لكِ أثناء انتظارنا لايل."

كان شخص أو اثنان في الجوار: رجلان يتبادلان حديثا أثناء سيرهما عبر الجانب الآخر من الجسر، وعلى نفس الاتجاه بعدهما بقليل، متشرد متكوم لصق السور، ومغطى بأكوام من الخرق. أمسكتُ بيد جورجيت وسرت معها فوق النهر، مُشيرة بإصبعي إلى حوالي دزينة من القوارب التي تسير كل في طريقها، حيث حركة السير في الليل تصير أهدأ.

"تلك مركب صيد، أترينها، تجلب الروبيان، كما أخبرتكِ، من ميناء لي،" وأشرتُ بإصبعي. "وهل ترين تلك المراكب الصغيرة، التي تتنقل بين القارب الكبير والمرسى؟ إنها صنادل، تحمل البضائع إلى الشاطئ، لأن القارب أكبر من أن يرسو عنده، أترين؟ يبدو أنهم يحملون خشبًا، أنظري."

واصلنا سيرنا للأمام وتوقفنا في المنتصف، حيث مرَّت بنا عربة بحصانين. كانت عربات البريد تنطلق الآن من لندن، في خطوط سيرها الطويلة عبر البلاد. أخبرتُ جورجيت أن بوسعنا كتابة خطاب

لموزيس وجوناس حال وصولنا ليقرأه عليهما والدهما. وفركتُ يديها بين يدي، حيث أضحى الهواء باردا بسبب المطر. وبعد بضع دقائق، رأيتُ لايل يقترب من الضفة الشمالية، مُحدودبا في وجه الريح، وقد شدَّ طاقيته على وجهه. تسارعت ضربات قلبي، وابتسمتُ، مُبتعدة عن السور حتى يرانا أفضل. لكنه لم يُبدِ إشارة على تعرُّفنا، ولم يبطئ ليقترب منا – ولا ابتسم. وإذ تقلَّصت المسافة بيننا، أدركتُ أنه ليس لايل. كان وجه الرجل شاحبا، وكان أطول قامة، وأنحف عودا، بعينين واسعتين صافيتين. وعلى جانبي قبعته ظهرت لمحة من شعر أحمر.

"نيد،" قلتها في دهشة. "ماذا تفعل هنا؟" كنت مُبتسمة، ولكن بحاجبين مُقطِّبين، وشعرتُ بغرابة، وكأنني أراه في حلم. ثم فهمت.

كان رجل آخر يتسلل نحونا، من الاتجاه الذي جاء منه نيد: طويل القامة، بقبعة مثلثة سوداء وعباءة سميكة. وكان يرتدي قفازات جلدية. كان ونيد هما نفس الرجلين اللذين رأيتهما على الجانب الآخر من الجسر قبل دقائق خمس.

شعرتُ وكأن دلو ثلج سُكب فوق ظهري وصيَّاد اللصوص يرمقني ببرود، إذ رأى أني تعرَّفته كما تعرَّفني. كنتُ أمسك يد جورجيت بإحكام شديد الآن، فجفلتْ. دفعتها خلف ظهري، وأملتُ ألا تشعر بارتجافي.

تحاشى نيد النظر في وجهي، والتفت إلى صيَّاد اللصوص.

"هذه هي،" قالها بنبرة رتيبة، وهو يومئ برأسه مرة واحدة نحو جورجيت.

"لقد التقينا من قبل،" قالها الرجل بهدوء. كان صوته عميقا وخشنا، كالجلد.

"لا"

انقضَّ عليها. وأمسك نيد بمعصميَّ، وقيدني فيما صرختُ وصياد اللصوص يقبض على جورجيت من كتفيها، فبكت وتشبثت بي. ثم تفرَّقت أيدينا، ولوحت بذراعيها في الهواء، وهي تمدها نحوي.

"نيد، لا! لا تفعل هذا!"

كانت في انتظارهم عربة عند نهاية الجسر الشمالية، وقد وصلت إلينا، فبطَّأت حتى توقفت إلى جانبنا. وفي زخم من الظلام، وكظلين يتصارعان، كوَّم صياد اللصوص طفلتي الباكية بالداخل، وصرخاتها تشقُّ الهواء، تشقُّ روحي. وفي ثانية اهتزَّ اللجام وجُرَّ الحصان. دارت العجلات، وتحركت العربة في دائرة واسعة عبر الجسر، عائدة من حيث أتت. وفي نفس اللحظة اندفع نحونا شخص من الضفة الشمالية. وفي يده أداة طويلة، تشبه هراوة، أم هو مشعل.

"لايل!" صرختُ. "لقد أخذ جورجيت!" ظل نيد ممسكا بمعصمي، بإحكام شديد، فبصقتُ في وجهه بنفس اللحظة التي وصل إلينا لايل وأنزل قبضته على وجه نيد. لكن نيد كان متأهبا وتفاداها، ثم أفلتني ولوَّح بذراعه يرد هجمة لايل. ثم لم أدرِ إلا واثنيهما يتصارعان في وسط الطريق. كان المشعل قد وقع في الجوار، وكدتُ أتعثر فوقه وأنا أندفع خلف العربة التي اخترقت الليل بانسيابية واختفت في نهاية الجسر. لم تكن ثمة جدوى من الركض خلفها؛ كنتُ أعرف وجهتها.

وقفتُ مشلولة، مُحطمة، أنظر إلى المكان الذي اختفت فيه، وأحاول استيعاب ما حدث. وخلفي، تواصلت الزمجرات واللكمات فوق الأسفلت المقفر أثناء تعارك الرجلين. كان لايل قد بدأ يستخدم

المشعل كهراوة، وسمعت ارتطامها المكتوم وهي تشج رأس أخي. أردتُ من لايل أن يقتله. لو كنتُ أملك مسدسا أو سكينا أو هراوة، لفعلتها بنفسي؛ كنتُ لأضربه أو أطعنه أو أطلق عليه رصاصة تسلب منه الحياة إلى أن يسيل الدم الأحمر من جسده ولا تعود عيناه الخاليتان من الحياة تبصران النجوم. ولكن لا، لن يسيل دمه أحمرا. بل سيكون أسود مثل روحه.

الجزء الرابع



ألكسندرا

الفصل التاسع عشر



جاء الرجل الأصهب عصر ذلك اليوم. وكنتُ حينها أجلس مُتدثرة في كرسي قرب النافذة، وأنظر إلى الشارع. كان ذلك سادس يوم، وظلت السماء تمطر طوال الصباح، فأحدثت صفيرا عند النوافذ وأزلقت الطريق. عندما تردد صوت مطرقة الباب في الردهة كنتُ قد انفصلتُ عن عقلي مرة أخرى، إلى ذلك المكان النائي الذي يبدو أني أعيش فيه الآن. لكن الطرقة أعادتني جافلة إلى مقعدي، وانتبهتُ على الفور. لم أر في الشارع عربة. هو شخص جاء سيرا إذن. خفق قلبي لوهلة، ثم وبنفس السرعة التي جاءت بها، مرَّت نوبة التوتر وتراجعتُ في مقعدي وقد سيطر عليَّ الوهن من جديد. لا بد أنه الدكتور ميد، الذي واظب على زيارتي في الأيام الماضية بنفس تفاني ابن الأخت البار تجاه خالته السقيمة. لم أرغب في الأدوية التي تؤخذ بالفم أو الأنف؛ ولا حتى اكترثتُ للطعام أو الشراب، فتناولت لقما من اللحم وكسرة خبز في هذا الكرسي، لو أكلتُ من الأساس، ومكثتُ حتى بواكير الصباح في الظلام دون أن أضيء شمعة لأرى الشارع بصورة أفضل. لم أشعر بدفء في أي من ملابسي، مهما راكمتُ من حطب في المدفأة، فبدأتُ أضع

واحدا من معاطف دانيال القديمة على كتفيَّ، مثل جنرال متقاعد.

انتظرتُ آغنس لتعلن عن القادم، وبعد دقيقة دُفع الباب مُحتكًّا بالسجاد، وشعرتُ بوجودها في الغرفة. لم ألتفت، وعندما أخبرتني أن مُحترما جاء لمقابلتي، لم أعرف من يكون أول الأمر. قادته إلى الداخل وأغلقت الباب، واستدرتُ أخيرا لأنظر في وجه شقيق بيس. تعرَّفتُ فيه حالا الرجل النحيل شاحب الوجه الذي تلصص من خلف سور الفناء منذ كل تلك الأسابيع.

كانت آغنس مخطئة: لم يكن مُحترما. بل رثّ الملبس، ويرتجف ولكن ليس إلى درجة الانتفاض، ونظراته ثاقبة جدا؛ حتى لكأنه يتحسس كل مكان في جسدي، وحركاته الكثيرة نفَّرتني. كان سلوكه هو أقل الأمور المنفرة بشأنه كما اتضح لاحقا. عندما عرض معلومات عن مكان جورجيت، أو أين ستكون بالأحرى، ظننتُ أول الأمر أنه يخدعني. ظللتُ صامتة وهو يخبرني متلعثما أنه سيكشف لي، مقابل أجر، عن موقع بيس وجورجيت. لقد عرف أنهما سيهربان من المدينة الليلة، ويستطيع أن يحضر لي الصغيرة. كان يتعثر في كلماته ويرتجف بصورة سيئة حتى لظننته سقيما، ثم لاحظتُ التبقع الطفيف والامتقاع الرمادي، وخريطة أرجوانية من الأوعية الدموية كان تظهر من تحت جلده، رغم كونه لم يتجاوز عشريناته بلا شك. آه، قلتُ لنفسي، باهتمام متجرد. إنه خمورجي. كان ذلك يفسر لماذا قد يخون شقيقته. وقد تأكدتُ الآن أن بيس شقيقته، إذ كان لهما نفس الأنف الصغير والعينين الواسعتين الجاحظتين قليلا، واللتين ورثتهما جورجيت. ما يعني إذن أن هذا الرجل كان يقرب لجورجيت أيضا.

سمعتُ ما لديه، ثم سألته عن الأجر الذي يطلبه. وعندها، شمله سكون عميق واستغرق في التفكير، ثم استردَّ انتباهه، فتنحنح وأعلن بتبجح مزيف أن مائة جنيه ستكفيه.

وبعد صمت طويل قلت: "حسن."

وحينها لوى وجهه، وأدركتُ أنه يبتسم. وقال: "شكرا لكِ، يا آنسة، ممتنٌّ جدا لكِ، لن تندمي، يا آنسة، مشكورة جدا،" وراودني شك فاتر في أنه ربما جاء بتخطيط من شخص آخر. لكنني في تلك اللحظة أردته خارج الغرفة: حيث فاحت منه رائحة الخمر، ووجدتُ شيئا مريبا جدا في استماتته، والتبجيل الذي عاملني به. بيد أنه تلكَّأ، ولمستُ أنه يريد شيئا. وانتظرت.

تمتم مُتململا في وقفته: "ما أريد قوله، يا آنسة، حيث أن شقيقتي هي من أخذتها، ولن أرغب في رؤيتها تدخل الزنزانة... وعلى يدي بالذات، كما تفهمين. حيث أنها شقيقتي، كنت آمل أن تخلي سبيلها مقابل الصغيرة."

"آه،" قلتها وقد فهمت الأمر. لقد خططا للأمر معا. كنتُ طوال هذا الوقت أحكم الأقفال على أبوابي ونوافذي، ظنًّا أني بهذا سأمنع اللصوص. وفي المقابل، دعوتُ أحدهم ليعيش معي في منزلي، وها أنا الآن أعرض أموالي على آخر. "حسن،" قلتها مرة أخرى. "ستصحب معك رجلا: السيد بلور، من طريق تشانسري. مكتبه عند اليافطة التي عليها الصقر. أخبره أن يأخذ معه عربة."

أومأ، مُحرّكا فمه طوال الوقت، كمن يمضغ تبغا، وحال انصرافه ارتعدتُ، واجتاحتني رغبة في فتح النوافذ وإدخال الهواء إلى الغرفة.

تكَّت ساعة المكتب بتفانٍ داخل صندوقها الخشبي فوق رف المدفأة، وشاهدتُ العقرب الذهبي النحيل يدور ويدور حتى رحل الضوء عن الغرفة. لم يأتِ الدكتور ميد ولا أي شخص آخر. وعلى منضدة بجواري تكومَّت جرائد -وضعت في كل منها إعلانات يومية لعودة جورجيت آمنة- إضافة إلى بيانات بنجامين بلور، صياد اللصوص الذي وجده الدكتور ميد في جنرال آدفيرتايزر. حيث يظهر له نقش وهو يرتدي قبعة قماش ويحمل عصا السلطة مُعلنا عن خدماته في التحقيق والزجر. رتَّب الدكتور ميد كل شيء: العمولة، الأتعاب. وجاء السيد بلور إلى المنزل ليفحص كل شيء، فدَّون ملاحظات كبيرة ومتصلة في حلقات داخل كتاب مُغلف بالجلد. فوجئتُ حينها بحجمه؛ حيث بدت يداه كمقلاتين صغيرتين. كان جلده ناعما ومسفوعا كالجلود المدبوغة، ويملك عينين صغيرتين كعيني الخنزير وتستقران قرب أنفه الممسوخ. لم تكن لديَّ تصويرة لجورجيت أعطيها له: لا نحتا، ولا حتى رسما. نصحنا حينها أن ننشر إعلاناتنا في الصحف، وقد اهتم به الدكتور ميد بهذا أيضا: بمجموع اثني عشر إعلانا.

ثم قال السيد بلور: "والفتاة، بيس. أفترض أنكِ تريدين اعتقالها؟"

بقيتُ صامتة لدقيقة. تكَّت ساعة المكتب، وانتظر السيد بلور والدكتور ميد، وهما يراقباني بإمعان.

سألتُ: "ما الذي يستلزمه ذلك؟"

"حسنا، سأبلغ جهات القضاء، وعند العثور عليها تُحتجز في زنزانة لحين محاكمتها."

"وبعدها؟"

"وبعدها إما تُبرَّأ." قالها بنبرة خاملة أوحت بأن هذا مُستبعد. "أو يُحكم عليها. وفي هذه الحالة: ستوضع في سجن نيوغيت على الأرجح، إن حُكم عليها بالزنزانة. أو ربما تُنقل إلى المستعمرات. أو تُشنق. يعتمد هذا على من يمسك بمطرقة القاضي في ذلك اليوم." ثم ابتسم وكأنه ألقى نكتة.

ازدردتُ لعابي، وتململتُ في مقعدي. ثم قلت: "عندما تجدها، أحضرها إليَّ. ثم أقرر."

رفع صياد اللصوص أحد حاجبيه لقولي، ودوَّن ملاحظة سرية في كتابه. وأمسك الدكتور ميد يدي وضغطها بين يديه.

ثم ومن دون كل الناس يأتي شقيق بيس ليعرض خدماته. لم أثق به مقدار ذرة، ولم أثق في أنه سيعود بالطفلة. وبعد ربع ساعة من منتصف الليل، قررتُ أنني أصبتُ في شكي، وبدأتُ أصعد الدَّرج إلى فراشي، ململمة المعطف حولي ومعي كأس البراندي. ولكن قبل أن تطأ قدماي السلم، دقت مطرقة الباب مرة أخرى في المنزل كالشاكوش. وتجمَّدت وأنا أضع يدا واحدة على الدرابزين. كانت الخادمتان نائمتين، ولم أكن قد أخبرتهما بما وعد به الرجل، نيد. فهبطتُ السلالم بنفسي، وقد جرَّأني النبيذ الذي احتسيته، وسمعتُ أثناء ذلك الصرير الذي أحدثته آغنس وغمغمتها فوقي بطابقين. كان الدهليز حالكا، وتحركتُ في معطف دانيال بخطى ثقيلة إلى الباب. فتلمَّستُ الأقفال وفتحتها لأجد شخصين على عتبة الباب: السيد بلور بحضوره القوي، وصبي صغير يقاوم بين ذراعيه، ويبكي

مـلأ شـدقيه. وخلفهمـا توقفـت عربـة بعجلتيـن أمـام سـور الرصيـف. حدقتُ فيهما مُرتبكة، وتسـاءلتُ كيف خلط هذا الرجل الأبله الصقيل بيـن هـذا الصبـي وجورجيت.

ثـم شـدَّ السيد بلـور الطاقيـة مـن علـى رأس الصغيـر، ورأيتُ كتلة كبيـرة مـن الشعر الداكن، مثبتـة فـي ضفيـرة مُعقّـدة، والعينيـن، كبيـرتيـن وخـائفتيـن.

نزلـتُ علـى ركبتـيَّ وحاولـتُ لمسـها. فانكمشـت بعيـدا عنـي، لكن قبضـة السيد بلـور حكمتهـا، فاحتجّت بصوت عـال. أدخلناها إلى المنـزل بنفس اللحظـة التـي ظهرت فيها آغنس عنـد أول الدرج حاملة شـمعة وأطلقـت صرخـة عارمـة، وانهـارت سـاقاي تمامـا.

"آنسـة جورجيـت،" شـهقت بهـا آغنـس، المـرة تلـو الآخـرى، وكانـت جورجيـت حقـا؛ كانـت هنـا أمامنـا، حمـراء الخديـن وقـذرة ونكـح. غلبـت آغنس عواطفهـا، فانتحبت وعانقت الصغيرة، ثم وصلت ماريا بعـد برهـة، مُتدثـرة بحِـرام، فثبـت الأمـر بحضورهمـا والأصوات المضطربـة التـي أطلقتاهـا: عـادت جورجيت، وانتهـت سـتة أيام وليالٍ طويلـة مـن العـذاب.

كانـوا قـد أجلسـوني علـى كرسـي، وجلسـتُ عاجـزة، أشـاهد المرأتيـن تهمهمـان لهـا وتتلمسـانها، فخلعتـا سـترتها المبللـة ومسـحتا أنفهـا عندمـا عطسـت. وقـف السـيد بلـور متعاليـا عـن هـذا المشـهد العـاطفي كواحد من تماثيل شارع بال مال، فيما بكت جورجيت وسعلت ونثـرت لعابهـا، وفي دوامـة نشـاط حُملت إلـى الطـابق العلوي لتحميمهـا.

"ستحتاج إلـى اهتمـام مكثـف." سـمعته يقـول. "أنصحكِ بطلب الطبيب."

حاول عقلي المُضبَّب أن يدرك كلماته. سمعتُ جورجيت تبكي في الطابق العلوي، سمعتها تنتحب بمرارة، وكان الصوت لا يُحتمل، مثل كمان ينشز عن اللحن. أعلن السيد بلور انصرافه، مُعيدا قبعته إلى رأسه بيدين في قفازين أسودين، وقال إنه سيتصل في الغد. لم أتحرك، وظللتُ مُمسكة بذراعي الكرسي غير المبطن في الردهة، وأفرك الخشب المصقول بإبهاميَّ.

***

كان عليَّ بالطبيعة أن أخبر الدكتور ميد بكل شيء. أن جورجيت لم تكن من صلبي -هي من صلب دانيال، إنما ليست من صلبي- وأنني استرجعتها، كما استُرجع النبي موسى من النهر، وربيتها كابنتي. في تلك الليلة الرهيبة، لمَّا أخذتها بيس -التي لم تعد إليزا بالنسبة لي بعد أن عرفتُ من تكون- جلسنا في غرفة جورجيت تحت ضوء القمر، أنا على فراشها، وهو على فراش بيس، وانفرط عقد الفوضى البائسة. استمع في صمت فيما أخبرته عن ليلة شتاء منذ أعوام طويلة، جاءت فيها أمبروسيا مُقتحمة المنزل أثناء استعدادي للنوم. لم يكن زمن طويل قد فات على ترمُّلي؛ حيث مات دانيال منذ سبعة أشهر. مُحي مشهد حياتي ورُسم من جديد، وكنتُ لم أزل بعد في بدايات اعتياده.

ظهرت أختي في غرفة نومي بملابس مُبهرجة، جالبة معها فورة ليلة من تشرين الثاني. كان خداها متوردان وعيناها تلمعان.

وقالت: "إن دانيال لديه ابنة."

كنت أقف أمامها حافية القدمين في ثوب نومي، وشعري مُنسدل على ظهري، عاجزة عن فهمها. أعادت ما قالته، وسألتها إن كانت متأكدة، فقالت نعم، نعم، متأكدة، وسألتني ماذا سأفعل بشأنه.

سألتُ في دهشة، "أفعل بشأنه؟"

"إن الصغيرة في ملجأ فاوندلينج، على بعد أقل من نصف ميل من هنا. هل ستتركينها هناك، في ملجأ للأطفال المرضى، إلى أن تكبر ويصبح سنها مناسبا للعمل خادمة؟"

"خادمة؟" قلتها وكأنه أكثر الأمور فداحة. بحثتُ بيدي عن طرف الفراش وجلستُ عليه، فأخذتُ مخدة دانيال في حجري وأنصتُّ في عدم تصديق وأمبروسيا تروي لي كيف أنها منذ شهور، في كانون الثاني أو ربما شباط، قصدت إحدى الحانات الصاخبة قرب مركز التجارة، حيث يُسمح بدخول النساء، وتطوف المومسات على الموائد. ذهبت مع زوجها وصديق، رقيب أحضر معه ثُلَّة جنود في مزاج صاخب، وجلسوا هناك على مائدتهم المزدحمة، ومن وسط الدخان ونشارة الخشب لمحت دانيال في الناحية الأخرى من المكان. ومع الصخب الشديد لم تستطع أن تناديه، كما أنه بعد دقيقة نهض للمغادرة، لكنه أخذ في يده امرأة -بنتا في الحقيقة- والتي حسبتها مومسا في ذلك الوقت. أخذت كأسها وتبعتهما، وفي الطريق توقفت عند طاولته لتسأل عن الفتاة الجميلة من تكون. هز رفاقه مناكبهم في لا مبالاة، فخرجت إلى الشارع تبحث عنه، وانعطفت لتراهما يتحاكّان في الظلام. عادت إلى طاولتها ولم تخبر مخلوقا عن الأمر. ثم مات دانيال، ونسيت الأمر بالكلية، حتى تلك الليلة الباردة لاحقا

من نفس العام، حيث دُعيت إلى القرعة في ملجأ فاوندلينج لمشاهدة النساء يهجرن أطفالهن. أخبرتني عن الكرات الملونة وكيف أن النسوة سحبنها بالقرعة من جراب؛ تسلية بغيضة، لكنها أدمعت العين، وأنفق الضيوف بسخاء مقابلها. ولكن فجأة، كما قالت مُواصلة حكايتها، رأت نفس المرأة، داكنة العينين وخائفة، تقف مع والدها، وتحمل رضيعا على ذراع وتمد الآخر في جراب من القماش. استغرق تذكرها بضع لحظات، ولكنها عندما تذكرتها، كانت واثقة أنها نفس الفتاة. راقبتها أمبروسيا من خلف مروحة يدها، وهي تسحب كرة وتُقاد إلى غرفة جانبية، وبعد عشر دقائق خرجت بذراعين خاليتين ووجه ممتقع مصدوم. قاد الأب ابنته برصانة من الحجرة الكبيرة، حيث دارت على الضيوف الأواني التي تحمل شراب البانش، وطغى رنين الكؤوس والضحكات على توسلات الأمهات حديثا، والبكاء المتقطع للأطفال. أغلقت أمبروسيا مروحتها وتوجّهت إلى الحجرة الجانبية فسألت الموظف بعذوبة شديدة عن اسم الفتاة ذات الشعر الأسود والفستان الرمادي، فأجابها أن أسماء الأمهات لا تُسجَّل. ثم سألت، بعذوبة أشد، مع هزة من مروحتها، عن العلامات التي سمعت عنها، وما شكلها، وهل يمكن أن يريها واحدة، لتحكي عنها لأصدقائها خارج الغرفة؟ وبأنفاس تفوح برائحة القهوة وتقدم السن، أوضح لها الموظف أن الأمهات غير المتزوجات يتركن أجزاء من أنفسهن، فيقطعن قصاصة من فساتينهن أو يحفرن الأحرف الأولى من أسمائهن على قطع نقدية يتركنها مع أطفالهن، تحسبا للعودة. وعلى الطاولة قرب ذراعه استقر شكل نصف دائري غريب ومثلَّم، بدا

كفيشة قمار أو دبوس زينة صغير، وعندما أشارت إليه، لبَّى الموظف اللهوف طلبها بكل سعادة، فوضع الجسم الغريب في كفها داخل القفازات. واتضح أنه نصف قلب، مصنوع من عظم الحوت، ومنقوشا بحرفي: ب و ج.

حمدتُ الرب أنني كنت جالسة حينها، لأن أيَّ شك داخلني -في كون هذه الفتاة مومسا، وأن طفلتها قد تكون ابنة أي رجل بين وستمنستر ووايت تشابل- قد تبخر فيما أخرجتُ صندوقي الأبنوسي الصغير، وأريتُ أمبروسيا نصف القلب العاجي المصقول، وشاهدتُ وجهها يمتقع فيضاهي لونه. كنتُ أعرف بالطبع أن دانيال يعاشر نساء؛ أنا من طلبت منه ذلك، في ثالث أو رابع مرة جاءني فيها ليلا. كنتُ أتخشَّبُ وأخاف، وأنغلق كصدفة محار، قبل أن أختم، بامتنان، هذا الجزء من نفسي أخيرا.

في تلك الليلة، ذهبت أمبروسيا خلف المرأة ذات الشعر الأسود والثوب الرمادي التي جاءت مع والدها. تبعتهما خفية في عربتها إلى منطقة مزدحمة وغثَّة من المدينة، حيث انحسرت المنازل الشاهقة عن أزقة مُبتلة وحواري مظلمة. توقعت أن ينتهي بها المطاف أمام ماخور، لكن السائق توقف عند لودجيت هيل أمام مدخل زقاق ضيق، وأمرته بالانتظار إذ انسلَّت خلفهما وتبعتهما حتى باب مسكن تقليدي. انتظرت إلى أن يظهر أحد المارة، مدركة أنها قد تتعرض للسلب في أية لحظة، وسألته من تكون الفتاة ذات الشعر الأسود التي تعيش مع أبيها، والتي أنجبت حديثا. فوجئ الجار، لكنه قال إن الوصف يشابه بيس برايت، التي تعيش في منزل ثلاثة، وأكَّد اسم

الزقاق. وكلا، لم تكن مومسا - بل هي بائعة روبيان. وكان ذلك كافيا لكي تأتي أمبروسيا مباشرة إليَّ في شارع ديفونشاير.

أصغيتُ إلى كل هذا وأنا في ثوب نومي، شاعرة برأسي وكأنه محشو بالصوف وهي تخبرني أنها سترتب كل شيء، وترسل إحدى خادماتها لاسترداد الرضيعة باسم بيس وعنوانها، حتى إذا ما عادت بالفعل فلن يمكنها تعقب الطفلة. وقالت أمبروسيا أن استردادها لن يكون عملا خيِّرا فقط، بل ستصبح الطفلة ونسا، خاصة وأن أرملة مثلي أتمت الثالثة والأربعين منذ أسبوعين، لا يُحتمل أن تنجب طفلا. وأكَّدت على أنني لستُ فقط مدينةٌ بهذا لدانيال، لأنه خلَّصني من القصر البائس للخالة كاساندرا، بل وأنه يمكنني أيضا أن أمنح الطفلة حياة رغيدة. لقد صوَّرت الأمر برمته وكأن كلبا ضالا ظهر عند باب المطبخ.

وحين اعتليتُ فراشي أخيرا في تلك الليلة، كنت قد وافقت بطريقة ما أن أكون أما، لابنة ستصل في اليوم التالي. وفي الصباح وصل مهد خشبي مصقول يخص أمبروسيا، مع أكداس من أثواب بيضاء وأحرمة وقلنسوات وقمصان، وأردية قطنية منقوشة للطفلة عندما تكبر. كان عليَّ توفير مساحة لكل هذا، والتخلص من الخادمتين في نفس الوقت، فانفعلت عندما سألتاني إلى أين أريدهما أن تذهبا. وقبل أن ينقضي العصر، والمنزل صامت ولا حياة فيه، دقت مطرقة الباب مرة أخرى وكانت أمبروسيا على سلم المدخل تحمل بين ذراعيها كائنا ورديا ناعما، كواحد من أرانب ماريا المسلوخة. وعندما ناولتني إياها، أخذتها بتخشُّب، وأنا أنظر إلى رموشها، الناعمة كالحرير،

وأنفها الصغير. كانت بحجم كيس طحين، وحينها شعرتُ بفداحة التغير الذي طرأ على حياتي بلا رجعة، من النظام إلى الفوضى.

سألتها في الدهليز المعتم: "ماذا أسميها؟"

"ما رأيكِ في ماريان، تيمنا بماما؟"

هززتُ رأسي. لم يجلب لها اسمها الحظ السعيد. فكرتُ في العلامة التي تركتها والدتها، الباء لبيس، والجيم لـ...

قلت: "جورجيت؟"

"جورجيت كالارد." تهلل وجه أمبروسيا. "يا لروعته."

أظنَّها حسبت جورجيت ستجعل مني شخصا أفضل، أو ربما تُبطل ما صنعته بي الأيام. لقد خيبتُ أملها في هذا وذاك.

***

أنصت الدكتور ميد إلى قصتي في صمت، فكه مطبق ونابض، وعيناه لا تفارقان وجهي قط. طوال السنوات التي عرف فيها أحدنا الآخر، كان يجهل الكثير عني – مقتل والديَّ، وخيانات دانيال، وحقيقة أنني لم أمنحه طفلا، بينما منحني واحدا وهو في قبره.

ولما انتهيتُ، كان ضوء النهار قد غمر أسطح المنازل بالخارج. جلس في صمت، لامسا شفتيه، وعلى وجهه ارتسم اهتمام لشدَّ ما ألفته وافتقدته حتى وأنا أراه، وأخشى أنني لن أفعل مرة أخرى. عندما لم يتكلم، لم أطق صبرا.

فسألتُ: "هل أنا جديرة بالازدراء؟"

تقطَّب جبينه. أملتُ في رد لحظي، لكني لم أحصل عليه.

ثم قال بعد برهة: "كلا."

"هل تراني أنانية؟"

أجاب كلا مرة أخرى، لكنه تنهد بعمق، وتناول لعبة لجورجيت، خذروفا، مرميًا على الأرض. رأيتُ في وجهه إعادة حسابات، وبداية إدراك، للعاطفة الفاترة التي طالما أظهرتها لجورجيت، ولماذا لم أكن أجلسها في حجري كما تفعل الأمهات في الصور. وأخيرا نظر إليَّ، وطرح سؤالا لم أتوقعه من بساطته.

"لماذا لم تخبريني؟"

فتحتُ فمي وأغلقته، ثم أرسلتُ أنظاري إلى الحائط المُغطى بورق مخطط خلفه.

ثم قلتُ ببطء، بعد صمت قصير: "أفترض أنني خلتك ستجدني ضعيفة."

"ضعيفة كيف؟"

"فاشلة، إذن. إن غاية النساء أن يصبحن زوجات، وغاية الزوجات أن يصبحن أمهات. أي امرأة تلك التي قد ترغب في تربية ابن ليس من صلبها؟"

"لكن النساء تُربِّين أبناء من غير صلبهن في كل لندن، في كل إنجلترا. رجال يتزوجون مرة أخرى بعد موت زوجاتهم؛ فيتولى الأقارب تربية أبنائه. بعض النساء تُحسنَّ ذلك، وبعضهن لا تفعلن، لكنكِ وجورجيت أم وابنتها من كل الجوانب عدا صلة الدم."

"كانت جورجيت طفلة غير شرعية؛ لأنني ودانيال كنا متزوجين. لا بد أن تفهم لماذا أخفيتُ الأمر: لم أكن لأسمح أن تعرف جورجيت أنها ليست ابنتي. كانت أمبروسيا تعرف بالطبيعة، ولا بد أن

الخادمتان قد خمنتا الأمر لأن الطفلة ظهرت في يوم فجأة ولم أكن حُبلى. إنما لو كنتُ أخبرت آخرين -وليس معارفي بالكثير- فربما يصل الخبر إلى جورجيت."

"إنني أفهم لماذا لم تخبريها. لكنني أشعر الآن كالمخدوع، ليس لمرة واحدة بل مرتين."

"مرتين؟"

"منكِ ومن إليزا – أو بيس، أيا كان اسمها. لقد أخبرتني أن اسمها بيس في البداية. ثم قالت إنه اسم مزيف، وأنها اخترعته بسبب العار. لقد صدقتها. لقد تعاطفت معها."

"إياك أن تضعني معها في كفة واحدة. لقد كذبت عليك لمنفعتها الخاصة؛ مثَّلت خدعة شيطانية عليَّ وعليك. وزد على ذلك، أنها كذبت، مرة تلو الأخرى، كل يوم. كيف تقارنني بها؟"

خلت عيناه من التعبير إثر الخيبة. "تمنَّيتُ لو أنها صارحتني، لكنها اضطُّرت لخداعي بالطبع. تخيلي لو أنها جاءتني وقالت إن ابنتها معكِ! كنتُ لأعتبرها مجنونة. وأقل ما كنتُ سأفعله هو طردها." ثم فرك مفاصل يديه بفمه. "وأنا الآن أشعر بمسؤوليتي الكاملة عن إقحامها في بيتكِ وحياتك. لكنني أيضا أشعر بتعاطف معها."

"كيف تقول هذا؟ لقد سرقت ابنتي مني."

"بإمكانها أن تقول ذات الشيء عنكِ!"

لم تخطئ أذنيَّ القسوة في صوته. اعتذر على الفور، وأظنه من قلبه، إنما بعد فوات الأوان – لقد قالها، ولم يعد بإمكانه أن يسحبها. ثم استأنف: "إن هذا بالطبع أكثر تعقيدا من اتهامها بالسرقة، لأنها الأم الحقيقية للطفلة."

نظرتُ له بغضب. "ماذا تعني بالضبط؟"

"لن تقاضي المحكمة امرأة سرقت ابنتها."

"بل ستفعل،" قلتها بحدة. "أنا من ربَّاها، وأطعمها وكساها. أنا من علَّمها ومرَّضها. إن لي فيها حقا أكبر. لستُ العاهرة التي تركتها في مزرعة أطفال موبوءة بالجدري."

جفل عند هذا.

أضفتُ: "كما أنها بخلاف ادعائها لا تملك دليلا أن الطفلة ابنتها."

حدق في وجهي. "هل ستضللين القاضي، وتتهمينها بالكذب؟"

"لم أفكر في هذا بعد."

"حسن، فكري فيه الآن يا ألكسندرا، لأن سرقة طفل تهمة خطيرة! هل تريدين رؤيتها مشنوقة؟"

جلستُ بصمت، وأنا أشعر به يختبرني، يراقبني مُتمعنا بأمل مرتجف. عبر ظل سريع وجهه، ثم أومأ بحذر ونهض.

"سأسأل الحارس عن أية أخبار." قالها وخرج من الغرفة دون أن ينظر إليَّ.

حدثت بيننا جفوة منذ ذلك الحين، كطبقة جليد غطَّت ما كان بالفعل مسألة كابوسية، وخلال كل هذا لم أستطع تحديد أي التجربتين أسوأ: الحزن أم الخزي.

***

وجدتُ جورجيت وحيدة في غرفتها، مستلقية على وجهها فوق الفراش تبكي وكأن قلبها سينفطر. كانت عارية الجذع، وترتدي سروالا رثًّا للأولاد، وبدت كمن استُخرجت من بالوعة، ما أفترض أنه حدث بالفعل. ذهبتُ لأجثو جوار فراشها.

قلتُ: "لا تبكي. لقد عدتِ إلى المنزل. ما الذي يبكيكِ؟"

اشتدَّ نحيبها. أين آغنس؟ تراجعتُ في جلستي، وأنا عاجزة تماما عن مواساتها. تجوَّلتُ في الغرفة، فأشعلت شموعا وأنا أتمنى لو كان أي أحد هنا – أمبروسيا، الدكتور ميد. كانا سيعرفان ماذا يفعلان.

كانت بيس ستعرف ماذا تفعل.

كان الفراش الذي نامت فيه ما يزال هناك، مُرتَّبا وبارزا في الركن. لم أستطع النظر إليه.

وبعد قليل ظهرت آغنس عند الباب مضطربة وهي تحمل حوض الاستحمام النحاسي الذي كان معلقا في المطبخ، وسطل ماء ساخن. ساعدتها في وضعه أمام المدفأة وأفرغت هي السطل المغليَّ فيه.

ثم قالت: "هيا، يا آنسة جورجيت. دعينا نضعكِ في هذا الماء وسوف تصبحين عال العال."

بكت جورجيت وبكت، وهي تقاوم الخادمة بإرادة حديدية. تبادلتُ وآغنس نظرات يائسة، وكأن إحدانا ستقدم للأخرى حلا أفضل لترويضها. وصلت ماريا وهي تحمل آنية عليها فطائر زبدة ساخنة وقدح شوكولاتة، فوضعته على المنضدة الصغيرة أسفل النافذة، لكن جورجيت تجاهلتها. مضيتُ أخلع عنها السروال الرث البغيض، فلطمتني بعيدا، ملقية بقبضتها الصغيرة على وجهي.

أمسكتُ خدي في صدمة، وشعرتُ بغضبي ينفجر. "كفي عن البكاء في الحال!"

ففعلت، لثانية، ثانيتين على الأكثر، ثم انبعث من عينيها بغض

من شدته حتى لكأنني لُطمتُ مرة أخرى. ثم شرعت تزمجر بقوة حتى بدأت تختنق، وانبعثت من جسدها الصغير القذر العاري عدة أصوات بدائية رهيبة قبل أن تنثني على نفسها وتتقيأ على السجاد.

من هذه الطفلة؟ إن البنت الرزينة المؤدبة التي أُخذت مني قد دُنِّست بالكامل. أفلت شعرها من دبابيسه مُتشابكا، ولطَّخت الأوساخ وجهها ورقبتها. كان منظرها كمن زحف وسط الفحم. لماذا بدا الأمر الآن وكأنها الرهينة ونحن اللصوص؟ لم يعرف أحدنا ماذا يفعل معها، لكن آغنس ركعت لتنظف القيء بمئزرها، فيما تشبثت ماريا ممتقعة الوجه بإطار الباب.

قلت بهدوء: "ماريا، فلتذهبي رجاء إلى منزل الدكتور ميد في شارع بيدفورد، واطلبي من مدبرة منزله أن توقظه. أخبريه أن يأتي فورا بدواء شرب مُهدِّئ، وشيء يساعدها على النوم."

حدَّقت ماريا فاغرة فاها وأومأت، ثم أسرعت تهبط الدَّرج. اقتربتُ من جورجيت كمن يقترب من كلب مسعور، وأخبرتها أنها يجب أن تستحم لتتخلص من المرض. انكمشت خوفا مني، وقبل أن يتأتَّى لي الإمساك بها اندفعت متجاوزة تنورتي وركضت عارية من الغرفة.

"جورجيت!"

لحقناها في نفس اللحظة التي كادت فيها تنسل كعفريت من أمام ماريا إلى الشارع. أمسكتها الطباخة في آخر لحظة، فجرَّتها إلى الداخل من تحت ذراعيها وصفقت الباب قبل أن تنهار فوقه. ثم صاحت وهي تمسك بصدرها. "آه، آه! آه، يا آنسة جورجيت!"

"اذهبي إلى غرفتك،" صرختُ مشيرة إلى الدَّرج، فوثبت من

جانبي وهي تطلق صرخة حادة عظيمة وصعدته ركضا وكأنه من نار.
"ماريا، اذهبي الآن إلى الدكتور ميد، هيا!"

أطلقت الطباخة شهقة وخرجت لاهثة من المنزل. ومع صرخات جورجيت المُرهِقة، والخوف الشديد منها، لم أملك إلا البحث عن المفتاح وحبسها في غرفتها حتى تهدأ. أخبرتها من خلف الباب أن عليها أن تُحمِّم نفسها وتأكل الفطائر، وأني لن أفتح الباب إلا عندما تهدأ.

انتظرتُ حتى انحسر صراخها إلى نشيج عنيد مُرهَق، وأحضرتُ كرسيا من غرفة نومي، فوضعته أمام بابها لأجلس في انتظار الدكتور ميد، وأنا أرتجف بشدة حتى اصطكَّت أسناني.

وصل بعد نصف ساعة، في الواحدة والنصف صباحا، واجتاز السلالم بثلاث قفزات. وعندما فتحتُ الباب أخيرا، لم تكن جورجيت قد اغتسلت ولا أكلت لقمة؛ بل تجلس في سروالها على السرير، وقد لفَّت ذراعيها حول ركبتيها، وهي ترتجف بعنف. انتظرتُ في الخارج ريثما يفحصها، فقضى معها في الغرفة ما يقارب الساعة، وسقاها جرعة من شيء ما. شاهدته من ثقب الباب يضع يدا باردة ونظيفة على جبينها، في انتظار أن تنام، ولكنها قبل أن يحدث تكلمت من فوق مخدتها.

"أين ماما؟" كانت تلك أول كلمات قالتها منذ عادت.

فتمتم قائلا: "إنها هنا خلف باب الغرفة. يمكنكِ رؤيتها في الصباح. إنها سعيدة جدا بعودتكِ إلى المنزل."

قالت بغضب: "ليس هي. بل ماما الحقيقية. أريد ماما."

عادت الدموع تنهمر، بصمت هذه المرة، منها، ومني كذلك.

جففتُ دموعي، وبعد دقيقة أو اثنتين، أطفأ الدكتور ميد الشمعة وأغلق الباب، ليجدني في مقعدي بفسحة السلم. كنتُ مازلتُ أشعر بالبرد الشديد، فاقترح أن ننزل إلى المطبخ لاحتساء مشروب دافئ، وأعطاني شربة للنوم أيضا، في قنينة صغيرة وضعها في يدي.

"ستصبح أفضل حالا في الصباح. لا بد أنكِ اطمأننت بالا الآن،" همس، فيما تكّت ساعة المكتب من الأسفل.

فقلتُ: "أجل."

احتست ماريا وآغنس كأسي شيري احتفالا بعودتها، وقرعتا كأسيهما في انتصار، لكني هززتُ رأسي عندما قُدمت لي الزجاجة. تمنيتُ لو أشعر بنفس الراحة البسيطة التي كنتُ سأشعر بها لو وجدتُ عقدا أحبه في مؤخرة الصوان. لكن الأمر بالنسبة لي كان أكثر تعقيدا. فهم لم يروا كيف انكمشت جورجيت رعبا مني، وكأني الشيطان بذاته.

الفصل العشرون



لم تصبح أفضل حالا في الصباح. أحضرت لي آغنس الفطور في الفراش، وسألتها إن كانت دخلت غرفة جورجيت بعد.

فأجابت: "إنها ليست في مزاج جيد. توقعتُ أن تجعلها الشربة التي قدمها لها الطبيب تنام أسبوعا، لكنها مستيقظة."

"هل هي مريضة؟"

"لقد توقفت عن البكاء، إنما في جسمها سخونة لا تعجبني. فتحتُ النافذة لتهوية الغرفة، لكنها بدت بردانة حينها، وسحبت الدثار حتى ذقنها."

"ربما أصابتها حمّى؛ لن يفاجئني ذلك بعد أن جُرّت عبر كل أنواع القذارات في الشارع. إن الدكتور ميد يعمل اليوم لكنه قال إنه سيأتي لاحقا."

أومأت آغنس وبدا أنها تكتم شيئا.

"هل هذا كل شيء؟"

"الأمر وما فيه..." بدأت بتردد، "... أن البنت تسأل عن أمها."

"سأذهب إليها حالما أنهي فطوري."

أومأت آغنس، وتظاهرت كلتانا بأنها تقصدني. شغلتُ نفسي بتناول الفطور فغادرتْ، مُغلقة الباب خلفها بهدوء. كانت جورجيت في الجانب الآخر من الردهة – يمكنني في ثوانٍ إزاحة الآنية من على حجري، وارتداء سترة نوم وعبور الردهة إلى غرفتها. لكني عوضا عن ذلك جلستُ أحدق في الفراغ الذي يفصلنا تاركة قهوتي وفطوري يبردان.

وبينما أبدِّل ملابسي، دقَّت مطرقة الباب في الطابق الأرضي، وسمعتُ صوت رجل، وصوت آغنس. ثم داخل الأصوات إلحاح وصرامة، وصوت باب المنزل يُغلق – لا، بل يُصفق. وبعد برهة بدأت ضجة كبيرة خارج المنزل: رجل يصرخ في الشارع. توقعته شحاذا أو سكيرا جاء ينادي – كان صبية المزرعة أحيانا ما يطرقون شارع ديفونشاير، مخمورين بعد أمسية ترويحية في المدينة، لكن ذلك لم يحدث قط في الثامنة صباحا. مسَّدتُ كمَّي ثوبي ونزلتُ إلى خلوة الضيوف لأنظر من نافذتها.

كان شقيق بيس الأصهب يجعجع بألفاظ نابية في وجه المنزل. لقد نسيته تماما، وفجأة تذكرت وجوده في هذه الغرفة ذاتها ليلة أمس. رآني عند النافذة، وأضحى غضبه موجَّها.

وصرخ: "أنتِ، يا شمطاء! أريد نقودي!"

اخترق صوته الزجاج كما يخترق سكين ساخن قالب زبدة. ازرقَّت حول عينه كدمة لم تكن موجودة من قبل، وكان في شفته قطع جاف. حصل عراك إذن في الساعات التي وقعت بين مغادرته منزلي والعودة إليه. أدركتُ بصورة استرعت اهتمامي أني لستُ خائفة منه. لم ترسلني فكرة اقتحامه منزلي أو تهديده إلى نوبة ذعر مُدوِّخة.

وقررتُ، أنه إن دخل عنوة، فسوف أرديه قتيلا بأي شيء يقع في يدي: محراك نار، سكين، زجاجة. شعرتُ بهدوء شديد حيال ذلك، وأسدلتُ الستار.

صرخ: "أيتها العجوز العاهرة! أعطني نقودي. لقد عقدنا صفقة. أسلمها لكِ مقابل مائة جنيه. واستلمتها، ألم تفعلي؟ أريد المائة جنيه حقي، هل تسمعينني؟"

خيَّم صمت قصير، ثم تصدُّع تزامن مع شيء صغير وصلب يضرب زجاج النافذة، أعقبه فورا اضطراب وكأن مجموعة أشخاص اعتقلوه. نيد: كان هذا اسمه. أتعجب كيف تغير عقلي في الأيام القليلة السابقة؛ وكأنما انجلى كل توتر وخوف الثلاثين عاما الماضية، كخلع حذاء بعد يوم طويل من المشي. ولم يحدث ذلك خلال عودة جورجيت، بل عندما اختفت. كانت هذه الصدمة بطريقة ما، قد عالجت سابقتها بالكي، فالتئمت بصورة لما أتوقع أنها ممكنة.

عاد نيد لاحقا، فدقَّ مطرقة الباب، ثم دار حول المنزل، وقفز من على السور وفعل ذات الشيء على باب المطبخ. طاردته ماريا بساطور، كإحدى شخصيات الأفلام الكوميدية. شاهدتها وهي تلوح به عند البوابة، وتصرخ فيه ألا يقترب من هنا مرة أخرى، ثم ذهبتُ إلى جورجيت. توقعتُ أن أجدها كما وصلت، مغمومة وتحوّزق، إنما أكثر انقيادا من أثر شربة الدكتور ميد. لكني وجدتُ جورجيت أخرى أسوأ. كانت ساهمة وهامدة، بنظرة واجمة وانصراف مطلق عن محيطها، وعني بالأخص. كان كرسي أطفال قد وُضِع في وجه سريرها، فأجلستُ فيه نفسي وسوَّيتُ تنورتي ببعض المشقة.

سألتُ: "هل تشعرين بتحسن؟"

كانت شاحبة، مع ظلال بنفسجية أسفل عينيها اللتين استقرتا في مكان ما وسط الغرفة، كمن تشاهد شيئا ممعنا في الملل. تحركتُ، فانبعث صرير من الكرسي الصغير.

"إنني مسرورة لأن السيد بلور وجدكِ. كنّا في غاية القلق."

كان الصمت هو ما تلقيتُ من جورجيت؛ لا صوت حتى من الشارع. لا رجلا سكِّيرا يطلق البذاءات. هل تُراها سمعت نيد، هل تعرفه. كان مخيفا. ربما هي تعرفه، وربما روَّعها. ربما فعل بها شيئا فظيعا: وبَّخها أو ضربها، أو ما هو أسوأ. حاولتُ أن أتذكر إن كان الدكتور ميد قد فحص كل شبر منها بحثا عن جروح أو كدمات. ولكن ثمة كدمات لا يمكن رؤيتها، تزرقُّ للداخل - هل بحث عنها؟ قال إنها رفضت البوح بالمكان الذي كانت فيه ولا ما رأته هناك، وبدأت تلوح أمام عينيَّ فظائع قد تكون حدثت، وكأني أقلب بين صفحات الصور في مجلة ما: جورجيت مهجورة في كوخ شديد البرودة بلا طعام؛ جورجيت مدفوعة لتسول النقود في الشوارع؛ جورجيت جالسة في ركن غرفة فيما بيس وعشيقها يتعاركان أو يرتكبان الفاحشة أمام عينيها.

"هل... هل آذاكِ أحد؟"

كنتُ لأحسبها نائمة لولا أن عينيها كانتا مفتوحتين.

"هل كان هناك رجل؟ هل أخافكِ أحد؟"

كانت ذراعاها معقودتين تحت اللحاف. وصدَقَت آغنس: كانت على جبينها لمعة عرق، وحدود شعرها مبتلة.

"هل تحبين أن نلعب لعبة؟" بحثت حولي عن وسيلة للتلهية، ولكن جميع كتبها ومجلاتها وألعابها قد وُضعت في أماكنها.

"أو ربما نأخذ درسا؟"

إنها ترفض التحدث بالإنجليزية، فما بالي بالفرنسية. تنهدتُ، وأنا أشعر بالعجز. لماذا لا أجد هذا طبيعيا بعد ستة أعوام؟ عندما كانت رضيعة مكتنزة الخدَّين لم تكن ترفضني، وتحسَّرتُ على بساطة الأزمان السالفة عندما كانت المرضعة تجلبها لي. ظننتُ قديما أن تبنِّي طفلة سيجعلني أمًّا، فيُقحمني في الأمومة بنفس الطريقة التي سيسبح بها كلب أُلقي في النهر. كانت بيس وأريحيتها في الاعتناء بجورجيت، وأمبروسيا والتدليل البهيج الذي أسبغته على أطفالها، وحتى أمهات الكنيسة والترادف الواضح بينهن وبين أطفالهن – كلٌّ جميعا كعجلات في عربة، يتحركن معا في انسجام. عرفتُ أنني لن أكون مثلهن أبدا، حتى لو عاشت جورجيت معي بقية حياتها.

"أتمنى لو تقولي شيئا، يا جورجيت."

صمت.

"جورجيت."

"جورجيت."

"بحق السماء، انظري إليّ!"

ثم لاحظتُ شيئا: كانت كفها مُطبقة بإحكام، وكأنها تقبض على شيء.

"ماذا في يدك؟"

شدَّت أكثر على قبضتها. وكان ذلك هو الدليل الوحيد على أنها تسمعني.

"جورجيت، ماذا في يدك؟"

لا أدري لماذا أعطيتُ الأمر كل هذه الأهمية، لماذا كان الدافع الوحيد للمسها هو الشك وليس العاطفة. فتحتُ أصابعها عنوة، مع أنها قاومت، وأطلقتْ صوتا يشبه احتجاجا، نشيجا، أحدث شرخا في داخلي إنما لم يدفعني إلى التوقف. وعلى السرير سقطت قطعة نقدية. لا أعرف ماذا كنتُ أتوقع، لكنه لم يكن هذا -خطابا ربما، أو تذكارا عاطفيا. كانت القطعة برونزية وباهتة، بحجم كراون، لكني سبقتُ جورجيت إليها بثانية، فنحَّيتُ يدها الصغيرة الساخنة. لكنها لم تكن قطعة نقدية في نهاية المطاف، بل تذكرة إلى حدائق رانيلا الترفيهية.

"لماذا تحملين هذه؟"

عادت إلى صمتها، بيد أنه كان صمتا عدائيا هذه المرة: احترقت عيناها السوداوان بالغضب.

نهضتُ لأنصرف، مُلقية القطعة النقدية في جيبي.

"أنا أكرهك."

كنتُ أضع يدا على مقبض الباب، وتوقفتُ. كانت تنظر نحوي مباشرة بمقت هو أكثر وضوحا وشدة مما يمكن لطفلة أن تظهره.

قلت: "ماذا تقولين؟"

"أكرهكِ. وأكره هذا المكان. أريد ماما."

فكرتُ في صفعها، في جرِّها من فراشها الصغير وضربها

على ساقيها أو كفيها. لم أفعلها من قبل، لم أكن بحاجة إلى ذلك، بيد أن حيَّة سامَّة نهضت الآن في داخلي، فأحدثت وخزا في أناملي، وحرقا في عنقي. كانت آخر مرة شعرت بحضورها يوم هاجمتهم في خلوة الضيوف، وظننتُ منذ ذلك الحين أنها خمدت، إلى أن جاءت هذه اللحظة. لم تكترث بما أيقظها، بل أنها استيقظت وحسب. تركتها ترفع رأسها الغبي وتنظر حولها، ولم أحرك ساكنا، وعندما أدركتُ هي أن الانفعال العميق الذي أيقظها كان خوفا -أجل، نفس الخوف السابق، إنما ليس خوفا على الحياة- تثاءبتْ والتفَّتْ حول نفسها مرة أخرى، غارقة في سبات عميق.

أغلقتُ الباب وتركتها.

***

أيقظني بكاءها تلك الليلة. طفا نحيبها على سطح أحلامي، وانتشلني منها. رقدتُ في الظلام الدامس أنصت إليها، وأرغب في الذهاب إليها، لكن ازدرائها لي كان مثل جدار ناري أمام بابها. سمعتُ فوقي صرير الأرضية إثر قدمين تسيران عليها، وتهبطان الدرج، ودخول آغنس -آغنس العذبة والوفيَّة- إلى غرفة جورجيت وهي تهدئها وتغمغم لها من عند الباب، وتسلل البكاء للحظة إلى باقي المنزل. تمالكتُ نفسي ونهضتُ من السرير، وانتظرتُ عند باب غرفتي خروج آغنس. سمعتُ هدهدتها للصغيرة، وبكاء جورجيت المتحشرج.

"ماما،" صرخت بها مرة تلو مرة. ثم خمدت بالتدريج، ودندنت آغنس وهدَّأت، ومرَّت خمس دقائق، ثم عشرة، ثم فُتح الباب.

"آغنس."

أطلقت المرأة المُسنَّة صيحة تشبه جروا ركله أحدهم.

"رباه، سيدتي! لقد أخفتني."

"لماذا مازالت تبكي؟"

اهتزت قلنسوتها البيضاء حيرة في الظلام.

"هل تظنين أمرا جرى لها عندما كانت بالخارج؟"

همستْ: "لا أعرف، يا سيدتي."

"إنها ليست نفس الطفلة."

لم تقل آغنس شيئا.

"هل أخبرتكِ أي شيء عن المكان الذي كانت فيه؟"

"كلا، يا سيدتي."

انتظرتُ. وتكَّت الساعة في الردهة. كان الدكتور ميد قد عاد بعد العَشاء بحقيبة صغيرة تحوي زجاجات اصطكت معا وهو يصعد بها الدرج، مثل آغنس وهي تحضر لي الدورق في غرفة نومي. تساءلتُ بشعور خانق، هل صارت جورجيت تشبهني.

***

لم يُظهر الشتاء أية دلائل على انحساره أمام الربيع، وبزغ صباح اليوم التالي باردا ورماديا. ساءت حال جورجيت. تمكنت منها الحمى، فبللت بالعرق ثوب نومها وأغطية السرير، ورقدت هي ذاوية في الفراش والنافذة مفتوحة على الشارع. خشيتُ من دخول الأدخنة الملوثة، لكن آغنس قالت إن الهواء النقي هو العلاج الناجع

للحمى، وشرعت تصنع كمادات لصدرها وتبلل خرقا لجبينها. كانت قد مرضت من قبل، ولكن مرة أو مرتين فحسب، وكلاهما عدوى من ماريا، التي أصيبت بالزكام. أما هذه المرة فمختلفة، وكأن الحزن والتعاسة قد تخثرا بداخلها وتحورا هناك. وصفها الدكتور ميد بالصدمة. كنتُ أجلس بجانب سريرها على الكرسي الصغير، أو بالجريدة في فسحة السلم خارج غرفتها.

وقبيل الظهر ذهبتُ لأحضر شيئا من خلوة الضيوف، فنسيته تماما عندما ذُهلتُ برجل يجلس في مقعدي.

لم أكن أعرفه، لكن شيئا أخبرني أني رأيته من قبل. كان مُسترخيا تماما، واضعا أحد قدميه على فخذه، ويقذف ثقّالة ورق من يد إلى أخرى. كان في الثانية أو الثالثة والعشرين ربما من عمره، بكتلة شعثاء من الشعر الداكن وحاجبين أسودين جادّين. كان مُقطِّبا، إنما تقطيبا حمل معنى بعيدا عن التهديد: عزيمة، أو فضولا ربما، كتلميذ حيَّرته معادلة رياضية. تجمدتُ في المدخل، ولكن قبل أن يتأتّى لي أن أفتح فمي، رفع يده كمن يلقي التحية.

وقال: "سيدة كالارد. الشخص المنشود. عظيم أنكِ أتيتِ إلى هنا." أخذتُ نفسا لأصرخ، لكنه واصل: "أعرف أنكِ ماهرة في استخدام محراك النار، لذا اسمحي لي قبل أن تفرغي رئتيك، أن أكون صريحا معكِ. لستُ مسلحا." وفتح سترته التي تدلت فارغة على جانبيه.

"من أنت بحق السماء؟" كان صوتي أكثر ثباتا مما شعرتُ به. "كيف دخلت إلى منزلي؟"

صنع إيماءة تواضع. "كانت شغلة تستغرق دقيقة. تلك الأقفال التي تضعينها على نوافذك ستخضع لأي شخص يحمل عتلّة. الأجدر

أن تستخدمي أقفالا مصنوعة من الرصاص في الواقع؛ كنت لأغيرها لو أني في مكانك." قالها كمن يخاطب صديقا له، فحدقتُ فيه فاغرة فاهي في رعب أخرس.

"ماذا تريد؟ دعني أخمن: أنت واحد آخر من معارف بيس."

"آخر؟"

"أو معارف نيد بالأحرى."

اختفى الهزل من وجهه، ورمقني بنظرة ثابتة. "ليس من معارفه، لا."

"من تكون إذن؟"

"صديق لبيس."

"لماذا أعرفك؟"

"إنني عامل إضاءة. حامل مشعل. لذا أشك في ذلك إلا إن كنتِ تستطيعين الرؤية في الظلام."

"كنتَ هنا من قبل. واقفا هناك، في الخارج. لقد رأيتك."

رفع حاجبا ثقيلا داكن. "يا لقوة ملاحظتك."

"لماذا أنت هنا؟"

"لدي عرض."

"لو أنَّ المال هو ما تسعى إليه"

"ليس كذلك." تكلم بخشونة، ووقعتُ في الصمت. "من فضلك." أومأ لي بالجلوس قبالته، وبساقين مرتعشتين، تحركتُ ببطء عبر الغرفة لأتخذ مجلسي أمامه، مُنتبهة إلى عبثية الطريقة التي تعامل بها مع المنزل وكأنه منزله، وأنا الضيفة. كنتُ مغلوبة

تماما على أمري. تركتُ عيني لبرهة تجول خلسة في الغرفة؛ كان محراك النار على حامله، واستقرت مزهرية خزفية على المنضدة جانبنا. لكنه سيتحرك أسرع بلا شك.

رآني أنظر حولي، وقال: "أعدكِ بأنني لن أطعنكِ."

كانت صورته وهو ينتزع قفل النافذة وينسلُّ إلى الداخل... وكأنما سبق له أن رأى كوابيسي، وجاء إلى شارع ديفونشاير ليستغلها ضدي.

"اسمعي، يا سيدة ك،" قالها بألفة، وهو يسترخي في الكرسي. لاحظتُ أن أظافره وسخه، ويفوح برائحة التبغ، كما كان دانيال. "لديكِ أسباب منطقية في طلب الصغيرة. أفهم ذلك. أفهم حقا. فقد كانت ابنتكِ طيلة السنوات الماضية، وقد اعتنيتِ بها أعظم عناية. لمعانها! إنها مثل كستناءة طازجة. وإنني لأرى صورتكِ فيها. لا بد لي من القول، أنني تخيلتكِ بصورة مختلفة." وإمعانا في المذلة وجدتني أتضرج. "كما أن عفوكِ عن بيس، وعدم إلقائها في الزنزانة... إنكِ تملكين قلبا يا سيدة ك. وضميرا. لكن تلك الطفلة... إن بيس تحب تلك الطفلة. تعبدها. وبدونها لا تملك سببا تعيش لأجله."

ازدردتُ لعابي إذ شعرتُ بلسعة في أنفي، ووخزت الدموع عيني.

واصل: "كيف حالها، البنت الصغيرة؟"

"ليست على ما يرام. أصابتها حمى. لا أعرف إلى أين أخذتماها، أنت وبيس، لكنها وصلت إلى هنا قذرة وترتجف في حالة هستيرية لم تتعافى منها."

"هذا لأن شقيق بيس باعها."

"نيد؟"

"أما أنا فأطلق عليه اسما آخر. عدة أسماء، في الواقع."
تمعَّن في أظافره. "أتصور أنه أبرم معكِ صفقة."

لم يكن سؤالا. تضرَّجت مرة أخرى، وشعرتُ بالحرج، ثم بالسخط. "لقد جاءني ليلة أُنقذت، وقال إنه يعرف أين ستكون. لم أدفع له بعد."

"وهل ستفعلين؟"

"لم أقرر بعد. لا أشعر بتأنيب ضمير في الاحتيال على مجرم."

لاح شبح ابتسامة. "أنتِ وأنا على السواء، يا سيدة ك."

"ما اسمك؟"

"لايل."

"هل تتوقع مني أن أصدق ذلك؟ لقد جاءت بيس إلى هنا باسم مزيف؛ ولا أرى سببا يمنعك أن تفعل المثل."

"اسمي لايل كوزاك. حسنا، إن اسمي الحقيقي زوران، لكنني أستخدم لايل، لأنه أكثر إنجليزية. وحدها أمي العجوز هي من تناديني بذلك."

"وتقول إنك صديق لبيس؟"

"بيس، إليزا، إيبنيزر، أيا كان الاسم الذي تستخدمه هذه الأيام. نعم، أعرفها."

قلتُ: "أحدنا يفعل على الأقل. اتضح أنني لم أعرفها على الإطلاق. أين هي؟"

"بعيدة عن الأنظار. هذا ما جئت للحديث معكِ بشأنه: إنها تتمنى شرف مقابلتك."

حدَّقتُ به.

"هي الآن تعلم أنكِ لا تخرجين، لذا لم تقترح بالطبع أحد مطاعم كليركينويل. ولا هي تتوقع منكِ دعوتها إلى منزلكِ لشرب الشاي. بل ستكون في مُصلَّى فاوندلينج اليوم في الثالثة، وتأمل من كل قلبها أن تقابلكِ هناك."

"حقا. حسنٌ، بوسعك أن تخبرها، يا سيد كوزاك، أنني لن أذهب، وأنني مذهولة من توقعها مصالحة بعد أن خدعتني هكذا. لقد سرقت طفلتي، لو أنك تذكر."

"سرقت طفلتها."

"كما أخبرتك، لن أذهب. وإن دخلت منزلي مرة أخرى، فسوف تجد الحارس في عقبك."

"أوه، أيُّهم؟ إنني أعرفهم جميعا." لمعت عيناه جذلا. أثار غيظي - كانت المحادثة معه كضرب الكرة في لعبة الراح.

"إنك تنسى أنني استأجرتُ صياد لصوص. بوسعي تكليف السيد بلور بمهمة أخرى؛ إن له علاقات بالقضاة."

"ها! السيد المهلهل؟ إنه لا يستطيع حتى الإمساك ببعوضة. كان بوسعكِ استئجار شحاذ أعمى ولن يختلف الأمر كثيرا. كما أنه لم يمسك بها، أليس كذلك؟ لولا تدخل شقيقها الجبان."

"هل تريد القول أنهما لم يكونا متحالفين؟"

"هل تظنين حقا أنها ستعيدها بعد كل الصعاب التي خاضتها لاسترجاعها؟"

"لقد خانها شقيقها إذن. لا شك أن هذا ما تستحقه."

"لقـد تركتِهـا صفـر اليديـن. وحتـى وهـي لا تملـك شيئا، فهـي تسـاوي عشـرة منـكِ."

جـرى الخـوف والغضـب فـي عروقـي. "إنـك لا تعـرف أي شـيء عنـي يـا سـيد كـوزاك. بوسـعي أن أغيـر رأيـي كمـا تـرى. كلمـة واحـدة للقاضـي، وأنـا متأكـد أنهـم سـيجدون مُتسـعا فـي نيوجيـت لخطافـة أطفـال."

"أنصحـكِ أن تكونـي أكثـر حرصـا فـي تهديداتـك، يـا سـيدة كالارد،" قالهـا بهـدوء، وعلـى وجهـه تعبيـر اسـتهزاء حاقـد. "أنتـن النبيـلات لا تعرفـن شيئا. تجلسـن فـي غرف الاختلاء وتدفـن رؤوسـكن في وسائدكن، لأن السجن لا يحدث لأمثالكن. تقرأن عنه في الجرائد، لكنهـا مجـرد حكايـات بالنسـبة لكُـن. مجـرد فكـرة. إنمـا بوسـعي أن أخبـركِ عـن الوضـع الحقيقـي هنـاك، عـن الوضـع الـذي ستعيشـه بيـس. حسـنٌ، في البداية، هي لا تملك مالا، والسـجن تجارة. كل شـيء بمقابل. لـن تذهبـي إلى فندق وتطلبـي عشـاء وغرفة إن كنتِ لا تملكين المال – ستكون بداية سيئة مع النصاب العجوز، أليس كذلك؟ حسن، إن صديقتنـا بيـس سـيكون عليها أن تدفع مالا لدخول السـجن،" ثم بدأ يعدُّ على أصابعه، "ثم هنـاك المبيت، وهنـاك الأكل والشـرب، أوه، وإن كنـتِ لا تريديـن السلاسـل أن تحـك جلـدك المسـحوج، فإنهـم يأخـذون منكِ مقابلا لمسـرَّة نزعها. ليس بوسعها تحمُّل كل تلك التكاليف، لذا سـيكون عليهـا مثل بقيـة الأرواح الحزينـة فـي الجحر الموبوء، أن تأكل الجـرذان والفئـران التـي تشـاركها زنزانتهـا. إنـه حكـم بالإعدام، كمـا تريـن، حكم أكثر قسـوة ومهانة ممـا قد ينالـه المرء في مشـانق تايبرن.

"وقد لا تكون القوارض هي ما ينهي حياتها، رغم ذلك،" تابع، وقد عاد إلى ألفته، فيما استمعتُ في صمت مرتعب. "أظن المرء يصمد أسبوعا قبل أن يدفعه اليأس إلى ذلك، وربما تقضي عليها الحمى أولا. أو ربما، لا أعرف، أشك أن الأجولة التي يقدمونها للنوم قد غُسلت منذ الطاعون، لذا قد تصاب بعدوى هناك وتقضي أجلها قبل موعد تناول الشاي من نفس اليوم. وكل ذلك لأنَّ،" ضرب الطاولة بكفه، فانتفضتُ، "زوجكِ جعل منها دوقة. والآن، إن هذا لا يبدو عدلا، أليس كذلك؟ أعرف أنه يرقد الآن في قبره، ليرحمه الرب، ولكن ليس منطقيا أن نجعل جورجيت يتيمة الأب والأم أيضا، لو أن بوسعنا تجنب ذلك. ألا توافقين؟"

قلتُ بصوت مرتجف: "لو أنها جاءتني منذ البداية وأخبرتني من تكون..."

صاح لايل ضاحكا. "كنتِ سلمتها الطفلة، أليس كذلك؟ "معذرة، يا سيدتي، هل تسمحين لي بإزعاجكِ في ردِّ ابنتي، التي اعتنيتِ بها طيلة السنوات الماضية؟ أشكركِ على كرمك، اسمحي لنا الآن بالانصراف." أوه، لماذا لم تفكر في ذلك؟ ليتها دقَّت مطرقة بابكِ النحاسية! لما طردتها؛ بل أراهن أنكِ كنتِ ستطلبين منها التفضل بالجلوس أمام فنجان شاي وطبق كعك!"

أغلقتُ عيني. "لستُ وحشا. قل ما تشاء، ولكني لستُ قاسية. لم أكن لأطردها."

"تطردينها؟ إنكِ ما كنت حتى لتقتربي من الباب."

أخرستني حقيقة كلماته الصادمة. ثم فُتح باب خلوة

الضيوف، فجفل كلانا، وأطلقت آغنس صرخة عند رؤيتنا.

قلت بهدوء: " آغنس. إن السيد كوزاك في سبيله للمغادرة."
ثم التفتُّ إليه وقلتُ ببرود: "طاب نهارك."

بقيتُ في مقعدي، وبعد أن نظر لي طويلا، نهض، واضعا ثقالة الورق الزجاجية برفق على المنضدة.

ثم قال: "الساعة الثالثة."

***

ارتديتُ عباءتي ثم خلعتها مرة أخرى، وذهبتُ لأرى جورجيت، التي رفضت أولا تناول فطورها ثم الشاي الذي أحضرته آغنس في فنجان ساخن.

منذ عودتها، وأنا لا أرى فيها سوى بيس. لا شيء من دانيال، بشعره الأشقر وعينيه المُلوَّنتين المتقلبتين. كانت كلها بيس. في سلوكها أيضا: فضولية وعنيدة، وماكرة كثعلب. كانت قد دسَّت خبز ذلك الصباح تحت فراشها وانتقلت إلى سرير بيس، والذي كان حتى تلك اللحظة مرتبا. انتظرتْ ردة فعلي، لكني لم أشي به.

"أريد ماما،" قالتها لدى رؤيتي، وعندما لم أرد عليها، تناولت صحن الفنجان من على المقعد الصغير جوار السرير وقذفت به إلى الحائط، حيث تهشم، وصرختْ: "أريد ماما!"

وبَّختها، وكنستُ قطع الخزف بيدي العاريتين، وأنا أشعر بإنهاك شديد في تلك اللحظة. وعند خروجي من الغرفة، وإغلاق الباب عليها بالمفتاح مرة أخرى، شعرتُ وكأني مستعدة للتكوُّر فوق

السجاد والنوم لأسبوع. كانت قد شُفيت من الحمى، ولكن إلى متى ستظل هكذا؟ كانت البنت عنيدة وساخطة، وعرفتُ كيف لهاتين الصفتين أن تتطورا إلى شيء عنيف وأكثر قوة، وأنا أتذكر المفتاح الذي كانت العمة كاساندرا تغلق به باب غرفتي في السنوات التي تلت وفاة والديَّ، عندما قدمتُ واحدا من عروضي، كما أطلقت عليها. والآن أصبحتُ من يمسك المفتاح. رأيتُ بدهشة لا حدود لها كيف قد يعيد التاريخ نفسه، رغم كل محاولات المرء مقاومة ذلك.

لقد حافظتُ على جورجيت طيلة حياتها آمنة ومعافاة، بعيدا عن الألم والحزن. باقتصار معرفتها على بضعة أشخاص معدودين، وعدم خروجها إلى أي مكان، فهي لن تفقد شيئا أو شخصا. لقد دللني والداي واهتمَّا بي، ولاطفاني مثل جرو صغير. عرفتُ عشرات الخدم، والحفلات، وأطفالا آخرين من منازل كبيرة كمنزلنا، ولم أكن مستعدة قط لما حدث لي. لم أرغب في إنجاب أطفال على الإطلاق، لكن الطفلة التي حصلت عليها ربَّيتها على ضبط النفس والذكاء والمشاركة. ورغم كل ذلك -وبسبب كل ذلك- كانت تتصرف كما فعلتُ بالضبط في الأشهر والسنوات التي تلت وفاة والديَّ: عنيفة وهائجة وتفيض بالغضب. هذه الأجساد الأنثوية التي سكنَّاها: لماذا لم يتوقع أحد أن تحوي مشاعر غير أنثوية؟ لماذا لا يمكننا نحن أيضا أن نُظهر الغضب والاحتقار ونتبدل بالكامل مع الحزن؟ لماذا يجب أن نقبل ورق اللعب الذي وُزِّع علينا؟

سمعتُ الساعة تدق معلنة الثانية في الردهة، وحاولتُ سحب نفسي من الماضي إلى الحاضر. لكننا ربما لا نستطيع ذلك بصورة

كاملة. ربما نحن نتألف من الماضي والحاضر، وأنهما يتشابكان معا، مثل نصفي قلب مقسوم.

***

كان المُصلَّى مكانا مختلفا في غير أيام الآحاد. لم أتوقع من الأساس أن أجده مفتوحا، لكنه كان جذّابا ومُريحا، مثل أول صفحة من كتاب جديد، أو حوض استحمام مُلئ لتوّه. دخلتُ من الرواق الصغير، وبشعور قزمة أمام عظمته. تناولتُ كتيب ترانيم من الرف الجانبي، وكأن من يشاهد في الشرفة سيظن مخدوعا أني جئتُ عصر يوم أربعاء للتعبد. ثمة شخص آخر في المُصلَّى، يجلس في الجهة الأخرى جوار المنبر. وكانت الأرضية قد لُمِّعت حديثا بالشمع فامتدت بيننا مسافة كبيرة ساطعة. تدفق ضوء النهار من النوافذ العلوية، ومع خلو المكان من ثلاثمائة أو أربعمائة مُتعبِّد، سمحتُ لنفسي أن أجيل نظري فيه، وأتأمل سقف الجبس يعلو رقيقا مثل كعكة مكسوة بالكريمة، ودرابزين الشرفة الخشبي المزخرف. أما مقاعد الصلاة فكانت كأحضان خشبية كبيرة تنتظر بأناة أجسادا، تنتظر صلوات.

لم يتحرك الشخص الآخر وأبقى رأسه مُطأطئا. اقتربتُ ببطء وأنا أحمل كتيب الترانيم في يدي التي ترتدي القفازات، ونعلي يصدر صريرا فوق الأرضية المُلمَّعة بالشمع. جئتُ إلى هنا سيرا، كل الطريق. فقطعتُ شارع ديفونشاير إلى شارع جريت أورموند مباشرة، مارَّة بمنزل الراحل ريتشارد ميد، ثم يسارا، حيث انتهت لندن بمنازل

كانت اسطبلات في الأصل، وساحات اسطبل، ومخصصات للزراعة، وانحسرت أمام الحقول. لم أخبر أحدا أين سأذهب أو من سألتقي، فتسللتُ بهدوء من المنزل، وأغلقتُ الباب بالمفتاح خلفي، ثم وضعتُ المفتاح في جيبي.

رفعت بيس عينيها قبل أن أصل إليها. كانت ترتدي عباءة بنية بسيطة، ومغلقة عند العنق، دون حجاب على رأسها. لاحظتُ عينيها وهما تنظران وجيزا خلفي، عند مستوى خصري، قبل أن تعود لتنظر في عيني من جديد.

قالت: "حسبتكِ لن تأتي."

"لم حسبتِ ذلك؟"

"لأني..." خفضت عينيها. "لأني لا أظنني كنتُ سآتي، لو كنتُ مكانكِ."

"لستِ مكاني،" قلتها وأنا أتخذ المقعد خلفها وأجلس عن يسارها. أدارت رأسها قليلا، لكنها لم تنظر في وجهي. عُقد شعرها عند عنقها بشريط وردي باهت.

جلسنا بلا حراك لبرهة.

ثم سألت: "لم تحضري أحدا معكِ؟ الدكتور ميد؟"

"جئتُ وحدي."

رأيتها تستجمع الجرأة لتطرح السؤال الذي تريده حقا، وانتظرت.

وأخيرا قالت: "لم تخبري القاضي؟"

"كلا. كان السيد بلور مفوَّضا خاصا وليس مُنفذا للقانون. إن

كنتِ تعتقدين أن أحدا ينتظرك خلف أبواب المُصلَّى، فأؤكد لكِ أنه لا يوجد أحد."

أومأت. "لقد وشى بي شقيقي. هل علمتِ بذلك؟ آه، بالطبع علمتِ. أعرف أنه أتى إليكِ. لقد سلبني كل شيء في النهاية." شدَّت خيطا انسلَّ من عباءتها. "كنا مقرَّبين جدا في صغرنا. قال إيب -وهو أبي- إنني ونيد كنا كعصبة حرامية. اتضح أنه كان حراميا حقا كل هذا الوقت."

"لم آجره. ولن أفعل. صديقكِ، السيد كوزاك، حامل المشعل-"

"لايل؟" تغير صوتها، فأصبح دافئا ومُغرما.

"لم أقابل قط أحدا مثله. إنه مخلص جدا لك."

"لقد أثرتِ إعجابه. قال إنكِ مثل نمرة."

"أنا؟" شعرتُ بفخر مفاجئ.

وحينها استدارت، ووضعت يدا بيضاء على ظهر المقعد، لكنها ظلت تتحاشى النظر في عيني. "كيف حال جورجيت؟ قال لايل إنها تعاني حمى."

"إنها تتعافى. كان الدكتور ميد يواظب على علاجها. يقول إنها تعاني صدمة."

كنا نلف حول جوهر الموضوع، حول لبِّه، ننتظر لنرى من ستمسك به أولا. طأطأت رأسها مرة أخرى، وانسلت خصلة شعر كستنائية من الشريط لتتدلى فوق خدها. عزفت أصوات الأطفال بالخارج عبر النوافذ العالية؛ كان أولاد فاوندلينج مشغولين بصنع الحبال في الساحات المحاذية لممر العربات، تحيط بهم بكرات

خيوط بلون القش. لم يكن للفتيات أثر في أي مكان، مشغولات على الأرجح بأعمال التطريز في الورش.

قلتُ أخيرا: "أفترض أنكِ تريدين معرفة كيف علمتُ بأمر جورجيت؟"

أومأت بالإيجاب.

"سمعتُ عنها من أختي."

نظرت لي بحدة. "لم أكن أعرف أن لديكِ أختا."

"كنتِ ستلتقين بها لو أنها لم تقرر قضاء بقية الشتاء في الشمال. ولكن حينها بالطبع، كان السر سينكشف. إنها تزورني في العادة مرة أو مرتين في الأسبوع. اسمها أمبروسيا. كانت هي من رأتكِ في فاوندلينج تلك الليلة، وقبل ذلك بعدة أشهر، في حانة بالمدينة رفقة زوجي."

رأيتُ أذنها تحمرُّ. ظلت على صمتها، ثم قالت: "أظنني أتذكرها. ثمة امرأة كانت تنظر لي بصورة غريبة تلك الليلة. تعجَّبتُ في البداية، ثم افترضتُ أن الجميع كانوا ينظرون إلينا بذات النظرة. كانت تضع ريشة زرقاء في شعرها."

"يبدو وصفا مناسبا لأمبروسيا."

صمت من جديد. وبعد برهة قالت: "أريدكِ أن تعلمي... أريدكِ أن تصدقي أنني لم أعرف أنه متزوج."

"أصدقك."

ربما كانت تتوقع معارضة أكبر؛ تهدل كتفاها وكأنما أطلقت تنهيدة كبيرة.

"لا أريدكِ أن تظني أنني كنت مغرمة به."

"لماذا؟"

"لأني... لأني لم أكن كذلك. قابلته مرة واحدة فقط. وبعدها..." ازدردت لعابها. "بعد تلك الليلة لم أره مرة أخرى."

"لا يهمني،" قلتها، مدركة أني لم أكذب.

"وكيف عرفتِ اسمي؟"

"أمبروسيا مرة أخرى. ذهبت خلفكِ في عربتها."

صدرت منها حركة، وأدركتُ أنها ضحكة لا إرادية. "كان المرء ليظن أنني سألاحظ عربة كبيرة في عقبي. لابد أنها تحركت سريعا حتى تحصل عليها في اليوم التالي."

"هذا صحيح. جاءتني في تلك الليلة مباشرة بعد رحلتها في تعقبكِ. لم أكن متأكدة بأني سأصدقها في البداية، مع أني عرفتُ أن دانيال اتخذ عشيقات، لذا لا يُفترض بذلك أن يكون مفاجئة. أما أن تخبرني أن لديه طفلة... طفلة حية تتنفس... وعندما وصفت لي شكل العلامة، تأكدتُ من صحة الأمر، لأني كنتُ أملك النصف الآخر."

وحينها ابتسمت بيس. "إنه كجورجيت، أليس كذلك؟ نصف مني ونصف منكِ. وهذا يُذكرني." بدأت تفتش داخل عباءتها وأخرجت شيئا، ضمَّت عليه قبضتها. ومدته لي، فألقته في قفازي. "أردتُ أن تستعيدي هذا."

كان نصف القلب خاصتي، بحرف الدال منقوشا بخط دانيال المائل.

قالت: "لم يكن ملكي حتى آخذه."

أغلقت كفي عليه واعتصرته بقوة.

"سيدة كالارد"

"رجاء، دعيني أتحدث." قلتها بصوت أجش، وأنا أشعر بفيضان العاطفة، وأحاول كبحه. "لم أرغب قط في أن أصبح أمًّا. القدر هو من رزقني بطفلة، وليس الرب."

لم تُحرّك ساكنا، وكانت عيناها الداكنتان -عينا جورجيت- بغاية الجدّية.

"قرأتُ في مكان ما أن الأم الصالحة هي من تعدُّ طفلها ليغادرها، ويخوض العالم." ازدردتُ لعابي، واعتصرتُ القلب في يدي، وأنا أشعر بقلبي يعتصر داخل صدري، والدموع تلسع عيني. "لا يمكنني الجزم بأنني كنتُ أمًّا صالحة. لكني أعتقد... أعتقد أنها مستعدة للمغادرة."

***

وخارج البوابات، سحبتُ الخريطة المطوية من جيب صدري. ارتعشت الورقة بين يديَّ، واقتفيتُ خط سيري بإصبعي، وأنا أنظر أمامي في الطريق الخالي. كان عصرا مُشمسا وباردا، مع بضعة سحب متناثرة هنا وهناك في السماء، وبضعة مثلها من البقر في الحقول. كان الوقوف في الطريق الترابي واللون الأخضر يمتد على كلا الجانبين شعورا غريبا جدا: كنتُ مكشوفة، إنما مجهولة في الوقت نفسه. مشيتُ حذو السور الحجري الجاف جنوبا، مارة من جديد بالأراضي المزروعة ومُجمَّع الإسطبلات، حيث سار سُوَّاسٌ في بزَّات مميزة فوق الأرض المرصوفة حاملين سروجا وفرشا، ولم

ينتبهوا لي إطلاقا. وقفتُ عند مفترق الطرق الذي تنعطف فيه عربتي يمينا كل يوم أحد، لتذهب غربا. وانعطفتُ يسارا ومشيتُ في شارع ضيق منازله صغيرة، واتسع لعربة بعجلتين ولكن ليس بأربع، انتهى بي إلى طريق أوسع على ناصيته مُصلًّى متواضع. كان في الجوار بضعة أشخاص: مربيّات في قلاسي مع رعاياهن، ومندوبو تسليم يحملون طرودا. توقف كنّاس لبرهة، متكئا على مكنسته ليلتقط أنفاسه. لم يعرني أحد أي اهتمام وأنا أتحرك جنوبا نحو ميدان أخضر كبير مزروع بأشجار غضّة. اقترب حوذي بأحصنة من اليسار، فانكمشتُ إلى ظهر شجرة فيما تجاوزتني العجلات بدوي، فأغمضتُ عينيَّ عنها لثانية. كنتُ أمسك بخريطتي جيدا في يدي داخل القفاز، فبسطتها مرة أخرى لأنظر فيها. لم تختلف المنازل في الميدان عن منزلي، فيما عدا شرفات حديدية صغيرة تحف الطابق الأول، وثلاث نوافذ رفيعة عوضا عن نافذتين عريضتين في طوابقها العليا. سرتُ بامتداد الطريق إلى الناصية الجنوب شرقية وعبرتُ الممر الترابي لأرى الأبواب المرقمة بصورة أوضح، حتى وجدتُ أن الباب الذي أريده كان أخضر، بإطار منسق من الطوب الأبيض. والشُرّاعة فوق الباب على شكل عارضتين متقاطعتين عند المركز.

صعدتُ سلم المدخل وطرقتُ، وبعد فينة فُتح الباب، ليظهر من خلفه وجه انعقد لسانه من الذهول.

"طاب نهارك، يا دكتور ميد،" قلتها وأنا أتجاوزه لأدخل وأغلق الباب برفق خلفي. كان الدهليز معتما وهادئا؛ وفي الخارج، مرَّ حصان يجر عربة، ونبح كلب من بعيد. كان الطبيب يرتدي قميصا

بلا سترة، وكان ثمة لطخة حبر على عنقه، من حيث أصلح ياقته. فاحت منه رائحة صوف وصابون، وشيء آخر لم يشاركه فيه رجل ثانٍ: جلده، ربما.

"سيدة كالارد." كان صوته خافتا، كأنما لم يجرؤ على أخذ أنفاسه. وعند قاعدة الدَّرج، تكَّت عقارب ساعة ذات صندوق طويل.

"ماذا تفعلين هنا؟"

نزعتُ قفازاتي ووضعت يدي على خده الذي كان دافئا. "لا تقل شيئا."

"هل هي جورجيت؟ هل هي؟"

وضعتُ شفتي على شفتيه وقبلته، ثم حوَّلتُ فمي إلى أذنه. وقلت: "أنت وأنا من ذهب. كل شيء آخر هباء."

الفصل الواحد والعشرون



بيس

نيسان، ١٧٥٤م

ذهبنا إلى بلومزبري مباشرة من الكنيسة في سانت جايلز. لم تستغرق الرحلة طويلا، حيث لا يفصلها سوى نصف ميل عن منزل لايل في سيفن دايلز، وإن كنتُ شعرتُ أنها في آخر العالم. كانت عائلته قد حضرت حفل الزفاف: عندما وصلنا، لقينا أكبر عدد استطاع أن يجده من الأخوة والأخوات، يتناثرون في كل مكان بالشارع خارج الكنيسة، ووالدته، امرأة قصيرة وعريضة مثل دمية خشبية، لها عينا لايل الطيبتين وحاجباه الثقيلان. كان والده في متجره للخياطة وإيب في السوق، لكن كليهما منحانا بركتيهما قبل الحفل، وأهداني إيب في ذلك الصباح هدية زفاف، محرمة دانتيل لم أكن أعرف أنه احتفظ بها من إرث ماما، مطرزة بحرفي م و ب، هما أول حرفين من اسمها. كان حفلا قصيرا وسعيدا، احتل فيه آل كوزاك صفين من مقاعد الصلاة، وتهامسوا من أول الحفل

لآخره بمزيج فريد من السلافية والإنجليزية، توقف بين الحين والآخر عندما أسكتتهم والدتهم. جاءت كيزيا وويليام مع الولدين وجلسوا باعتزاز على جانب الممشى؛ وكانت صديقتي قد أعطتني فستانا جديدا لأتزوج به، من أجمل ما رأيت، بلون أزرق فاتح، مع قلنسوة وشريط شعر بنفس اللون. وكان واحد من إخوة لايل، واسمه توماس، ينتظرنا في الخارج بالعربة والمهر الذين اشتريناهما، وخرجنا بعد الحفل لنجده يلاحق حشدا من الأطفال القذرين في الشارع راكبا المهر. منحنا قبلاتنا لآل كوزاك جميعا واحدا تلو الآخر، وقرصتني أم لايل في خدي وقالت شيئا بالسلافية، وشكرها لايل بحرارة وقبّلها على جبينها. ركض موزيس وجوناس مع بقية الأطفال بينما اعتصرت كيزيا يدي ودعت لي بالتوفيق، ومنحني ويليام عناقا أبويا، وصافح يد لايل. ثم انطلقنا شمالا، عبر رذاذ الصباح الخفيف.

قبل الزفاف بأسبوع، كنا قد نقلنا أمتعتنا إلى ريف فولهام، حيث استأجر لايل ثلاث قطع أرض لزراعة الخضروات: بازلاء ولفت وجزر أبيض وجزر برتقالي، سينتج منه محصولان أو ثلاثة سنويا، وبينهم ذرة وشعير. وملحقا بالأرض كوخ صغير -غرفتان، بأرضية ترابية ومدفأة كبيرة- ومُهر سمين، وعربة قديمة متهالكة. لم أصدق الصمت الذي خيم على المكان، مُسدلا كستار على الريف. كانت الأرض على بعد أربعة أميال من كوفنت غاردن لكني شعرتُ بها أربعمائة. ولا أعني أني أفتقد لندن. لم يكن الرحيل موجعا. كنا قد اكتفينا من بيع الروبيان وإضاءة الطريق.

توقفنا عند منزل رقم ١٣، واختفى وجه شاحب من نافذة الطابق الأول. فُتح الباب الأسود اللامع قبل أن نطرقه، وطارت منه جورجيت، فاندفعت كجرو نحونا وهي ترتدي تنورة منفوشة. رفعها لايل على كتفيه وأرجحتْ هي قدميها في الحذاء بابتهاج. وفي الدهليز كُدِّست عدة صناديق، أطلت عليها المرأة في الثوب الأحمر من مكانها على الحائط فيما انسلَّ شخصان من الظل: أحدهما ألكسندرا، والأخرى لم أعرفها، تشبه ألكسندرا ولكنها أضخم، بوجه طلق المحيا زيَّنته ابتسامة لا تغيب.

قالت ألكسندرا: "هذه شقيقتي، أمبروسيا. أمبروسيا، هذه بيس برايت ولايل كوزاك."

"في الواقع، إنه بيس كوزاك الآن،" قلتها فرفعت ألكسندرا حاجبيها، وأشرق وجهها بابتسامة وأنا أريها دبلة الزواج الذهبية الرفيعة في إصبعي. "جئنا لتونا من كنيسة سانت جايلز."

نظرتُ إليه مُعجبة، وكذلك فعلت أمبروسيا، التي غمزت بمجون. وأخبرتني: "تعرفين ما ستفعلينه لاحقا على الأقل." وانفجرنا جميعا في الضحك، عدا ألكسندرا، التي أبدت صدمة جعلتنا لا نملك سوى الضحك أكثر.

جذبت جورجيت قلنسوتي وهي على كتفي لايل وسألت: "علام تضحكون؟" فانفجرنا مرة أخرة في الضحك.

ثم قالت فجأة: "لايل. لقد سمحت لي ماريا أن أعطي تفاحة للحصان. هلا أخذتني إلى المطبخ؟"

فقال لايل: "سمعا وطاعة، يا آنستي. انتبهي لرأسك!" ثم

ذهب متبخترا بها كالحصان في الدهليز. شاهدناهما يتعدان، ليصبح ثلاثتنا فقط في المكان.

قالت أمبروسيا: "أنتِ بيس المشهورة إذن. عرفتكِ لما رأيتك."

"وأنا لا أعرفكِ على الإطلاق." وحينها تذكرتُ أمرا، تعجبتُ له بعد لقاء ألكسندرا في مُصلّى فاوندلينج، عندما قررنا ألا نمزق جورجيت بعد الآن. وفي مساء يوم من الأسبوع التالي، كرجلين يضعان خطة عسكرية، أمضينا المساء في تصميم مستقبل جورجيت. أخرجت ألكسندرا ريشة وحبرا وورقة من المكتب، وأخبرتها أني لا أملك سوى أن أثق بها كوني لا أعرف القراءة. فوضعت حينها الريشة. وأخبرتني وسط الحديث عن ماضيها، ولماذا كان رد فعلها خائفا وعنيفا ليلة عدنا من الحديقة الترفيهية، وشعرتُ بذنب نافذ، وحرارة من الخجل. ظننتُ طوال الوقت أني عرفتُ كنهها، لكني اكتشفتُ أني لم أعرفها على الإطلاق. كان غريبا أن أراها من هذا الجانب الحميمي، أقرب لصديقتين. لقد وجدتها في غاية البرود والقساوة عندما التقيتها، بظهرها المنتصب وأسلوبها العاصف. وجدتها جميلة أيضا، بيد أن تلك الكلمة كانت مبالغة في الأنوثة، فارتبطت في الأذهان بالنساء المكتنزات والابتسامات الحالمة. لو كانت لوحة، لرُسمت سفينة قوية في وجه أمواج متلاطمة.

قلت: "أمبروسيا، إن شيئا يشغلني منذ علمتُ أنكِ من رآني. كيف عرفتِ اسمي؟"

"ذهبتُ إلى الزقاق الذي تسكنين فيه وسألتُ أحدهم."

"كيف شكله؟"

قطَّبت. "حسبما أذكر، فقد رأتني امرأة من النافذة وخرجت. كانت ضخمة، وعادية جدا، وإن كنتُ لم أر منها كثيرا مع الظلام الحالك. أظنها كانت تحمل مكنسة."

كدتُ أضحك. كانت نانسي بنسون، صانعة المكانس، لتخرج عن طورها بالطبع، إن رأت امرأة نبيلة كأمبروسيا تأتي إلى زقاقنا وتسأل عني. ربما علمت أن الأمر يتعلق بالطفل الذي ولد في ذلك الصباح. لا بد أنها سمعتني أثناء المخاض؛ ولن يفاجئني لو عرفتُ أنها وضعت كرسيا على الباب وأصغت من البداية حتى النهاية.

تبادلتُ وألكسندرا نظرة. وسألت هي برفق: "ماذا حلَّ بنيد؟"

تلاشى مزاجي الرائق، وشعرتُ بقلبي ينقبض. "قُبض عليه قبل أسبوعين لسرقة صائغ. سوف يُرحَّل في الشهر المقبل إلى المستعمرات. إنه في سجن فليت الآن، لذا لا يبعد كثيرا عن البيت."

حمل وجهها جدِّية بالغة. "لا أظنني آسفة لسماع ذلك."

"ولا أنا،" قلتها بهدوء، وإن كنتُ العكس، إكراما لنيد القديم على الأقل، الذي كان يصنع لي دمى من خلف الستارة الحمراء. وآسفة أيضا لبيس القديمة. ولكن ليس لبيس الآن.

نزل الدكتور ميد بحذر حاملا المتاع الأخير -عصفور جورجيت في قفصه، يزقزق مضطربا- ووضعه برفق على الأرض جانب السلحفاة، التي وُضعت بدورها في صندوق فاكهة مبطن بالقش. وحينها عادت جورجيت مع لايل وتفاحة حمراء لامعة وماريا في إثرهما. أعطتني كعكة إسفنجية ملفوفة في قماشة كعرض للسلام؛ لا أظنها سامحتني بالكامل عن سرقة خزينها ليلة هروبنا. شكرتها،

ومضى الرجلان يعبئان كل شيء في العربة. وأخبرتني جورجيت: "أخذتُ معظم كتبي. لم أجد مكانا لجميعهم. وملابسي الأنيقة هنا لأذهب بها إلى الكنيسة، حيث قالت ماما إنها لا تناسب فولهام."

تضرج وجه ألكسندرا بحمرة شديدة حينها، وابتسمتُ وقلتُ إنني أراه رأيا بالغ الحكمة. ثم حان وقت الوداع.

نزلت ألكسندرا على ركبتيها أمام جورجيت، فحفَّت تنورتها الحرير الزرقاء برقة، والتزم جميعنا الصمت. أخرجت جورجيت شيئا من جيب فستانها – رسمة صنعتها، لرجل يرتدي قبعة مثلثة ومعطفا أنيقا بأزرار وحذاء بإبزيم، وامرأة في تنورة كبيرة وسترة مهندمة. لم تكن ترتدي قبعة، مثلما لم تفعل ألكسندرا، وكان على شفتيها شبح ابتسامة. وبين الاثنين قلب أحمر، في منتصفه شق متعرِّج.

قالت: "هذا أنتِ والدكتور ميد."

قالت ألكسندرا: "إنه جميل جدا. إنكِ رسامة بالفطرة؛ لا يمكنني تعليمكِ هذا أبدا."

ظهرت آغنس من مكان ما، وألبست جورجيت معطفا صوفا – حيث كان الجو باردا رغم نيسان– وقبعة قش ربطتها من شريطها الأزرق تحت ذقنها. كانت ترتدي فستانا بلون الذرة وجوارب بيضاء، فبدت كفتاة ريفية صغيرة.

سألتها ألكسندرا: "ستكتبين لي، صحيح؟ سأحرص على توفير قطع نقدية لساعي البريد، وسأنتظر عند الباب يوميا في حال كان معه خطاب لي."

"هل يأتي ساعي البريد من فولهام؟"

"إنه يأتي من كل الأماكن."

"كم وقتا سيستغرق الخطاب ليصلكِ؟"

"في نفس اليوم، إن طلبتِ بلطف من سائق عربة البريد."

فأومأت فهما.

"عليكِ أن تكتبي بتفصيل شديد حول المكان الذي تعيشين فيه. أريد معرفة كل شيء عنه. أريد معرفة عدد الزهور في حديقتك، وماذا ترين من نافذتك، وكيف يبدو منزلكِ من الداخل. أريد معرفة شكل الطبق الذي تأكلين فيه، وماذا تأكلين، وكم مرة تمشطين شعركِ قبل النوم."

"هذا أكثر مما يسعني تذكره!"

"اكتبي إذن ما يسعكِ تذكره. وسوف أراكِ كل أسبوعين، وتبيتين يومي الجمعة والسبت، ثم نذهب إلى الكنيسة صباحا."

"ونتناول البرتقال والكريمة؟" سألت، وابتسم الجميع.

"ونتناول البرتقال والكريمة."

"وسيكون الدكتور ميد هنا؟"

"سيكون هنا، أجل. هل تذكرتِ كتاب الفرنسية؟"

أومأت إيجابا.

قلتُ: "سوف تعلمني. أليس كذلك، يا جورجيت؟"

"وي،" قالتها جورجيت، وضحك الجميع مرة أخرى.

كنت أتلهف للانطلاق، وربما لاحظت ألكسندرا ذلك، لأنها اقتربت مني وضمَّت في يدي كيسا حريرا يحوي نقودا. وقالت: "لهذا الشهر. اعتبريها هدية زفاف."

شكرتها، ونظرتُ إلى لايل، وغمز لي، وأومأ برأسه. مضينا

إلى الباب في جوقة صغيرة، وعبّأ الرجلان آخر صندوق في العربة، وغطّيا قفص العصفور بقطعة قماش. وضعت جورجيت سلحفاتها على حجرها، ورفعت السلحفاة رأسها، وكأنها تودع منزلها القديم، قبل أن تتراجع إلى داخل درعها. أصبحنا جاهزين أخيرا. رفعتُ أنظاري إلى النافذة التي نمنا خلفها، وإلى نافذة خلوة الضيوف، حيث رأيتُ من قبل ألكسندرا وهي تنتظر مضطربة طوال الأسابيع السابقة. نظرتُ إليها الآن، وهي تقف بين أمبروسيا والدكتور ميد عند الباب، وابتسمنا إحدانا للأخرى ابتسامة شخصين مرا بأمر جلل، وعبراه إلى الجهة الأخرى. تساقط المطر خفيفا فوق العربة، واستقرت جورجيت تحت ذراعي وفوقنا غطاء العربة القماشي، وكان ظهرانا للايل، الذي أمسك باللجام. لوّحنا بأيدينا، ولوّحوا هم لنا بأيديهم، ومن خلفهم آغنس وماريا ترسلان أنظارهما بوجهين متهللين. هتفت جورجيت: "وداعا!" وهي تلوح بقوة. ولوّحت لها ألكسندرا بيد فيما تأبطت ذراع الدكتور ميد بالأخرى. كان وجهها مبتلا الدموع، ومضطرما بالخوف والحب والاعتزاز.

"هل نحن مستعدون؟» سألتُ، وهتفت جورجيت نعم. طقطق لايل بلسانه للحصان، وغادرت العربة، وتحركنا في شارع ديفونشاير، في اتجاه النهر، عكس التيار.

كلمة شكر

خالص شكري لصوفي أورم، ومارجريت ستيد، وجيني روثويل، وفرانشيسكا راسل، وكلير كيلي، وإلين تورنر، وستيفن دومن، وفيليس ماكيوين، وساهينا بيبي، ونيكو بويلبلانك، وستيوارت فينجلاس، وفنسنت كيلير، وألكسندرا ألدن، وكيت باركين، وسارة كلايتون، وجيني هاروود، وجيف جاميسون، وآلان سكولان، وروبين هاك، وكاتي لومسدن. لم أكن قبل عامين أعرف أسماءكم، لكنكم جميعا نجوم لامعة زادت حياتي إشراقا. وشكرا بالطبع لجولييت موشنز، التي لا مثيل في قوتها.

خطاب من المؤلفة

عزيزي القارئ،

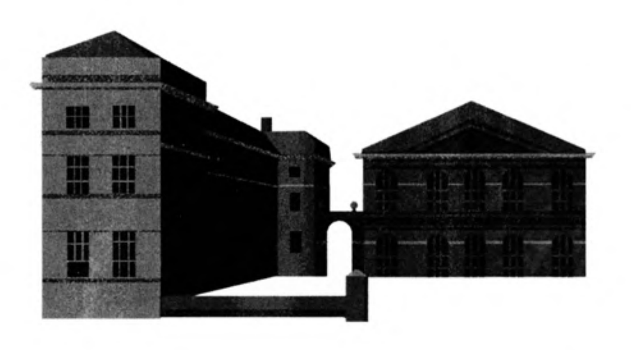
آمل أنك استمتعت بقراءة اليتيمة المفقودة. إذا رغبتَ في الحصول على المزيد من المعلومات عنها، وعن روايتي السابقة، فلربما تحب الانضمام إلى نادي القراء الخاص بي. لا تقلق – فهو لا يلزمك بأي شيء، وبدون أي مقابل، وستظل معلوماتك الخاصة قيد السرية. ستستقبل تحديثات حول كتبي، بما في ذلك العروض وأحدث المنشورات وحتى الهدايا الدورية! يمكنك إلغاء الاشتراك في أي وقت. للتسجيل، كل ما عليك فعله هو زيارة موقع www.staceyhalls.com.

يمكنك أيضا التواصل معي عبر Stacey_Halls على تويتر. أتمنى أن أسمع منك قريبا، وأن تستمر في قراءة كتبي والاستمتاع بها.

شكرا لدعمك،

ستايسي

متحف ملجأ فاوندلينج



أنشأ فاعل الخير، توماس كورام، ملجأ فاوندلينج في عام ١٧٣٩م، لرعاية الأطفال الذين لا يستطيع آباؤهم الاعتناء بهم.

إن أردتم معرفة المزيد عن تاريخ الملجأ، فبإمكانكم زيارة متحف ملجأ فاوندلينج في لندن. ولمزيد من المعلومات، زوروا،

www.foundlingmuseum.org.uk



اقلب الصفحة لتجد مادة
لمشاركتها مع مجموعة قراءتك

أسئلة مجموعة القراءة

١. أُنشئ ملجأ فاوندلينج للأطفال المعرضين لخطر إلقائهم في الشارع. لماذا في رأيك قد لا يملك أب أو أم خيارا سوى التنازل عن حق رعاية طفله في أربعينيات وخمسينيات القرن الثامن عشر؟

٢. عاشت كل من بيس وألكسندرا بدون أمها لسنوات عديدة- كيف تظن حياة كل منهما كانت ستختلف لو ظلت أمها على قيد الحياة؟

٣. اليتيمة المفقودة أقرب لرواية عن الأمومة، ولكن كيف تفسر علاقة بيس بوالدها؟

٤. إن دانيال كالارد شخصية مهمة، رغم عدم وروده في معظم الكتاب. كيف ترى مشاعر البطلتين تجاهه؟ وما مدى اللوم الذي يقع عليه في الصعوبات التي واجهت حياة المرأتين؟

٥. يلعب الحظ لعبته على مدى الرواية ويتقدم بالأحداث، ولكن إلى أي مدى في رأيك تتحكم بيس وألكسندرا في مصيريهما، وهل هما شخصيتان سلبيتين أم فاعلتين؟

٦. ما هو برأيك جوهر الأمر في تربية الطفل: الحب أم المال؟ وهل أجاب الناس في القرن الثامن عشر على هذا السؤال بصورة مختلفة؟

٧. تنحدر بيس وألكسندرا من طبقتين مختلفتين اختلاف النقيض. كيف في رأيك تؤثر الطبقة الاجتماعية والوضع الاجتماعي على شخصية كل منهما؟

٨. من كانت شخصيتك الثانوية المفضلة ولماذا؟

٩. تتطلع بيس على الدوام إلى المستقبل، بينما تقضي ألكسندرا أكثر الرواية في استعادة ماضيها. كيف يستخدم المؤلف الزمن والذاكرة في هذه الرواية؟

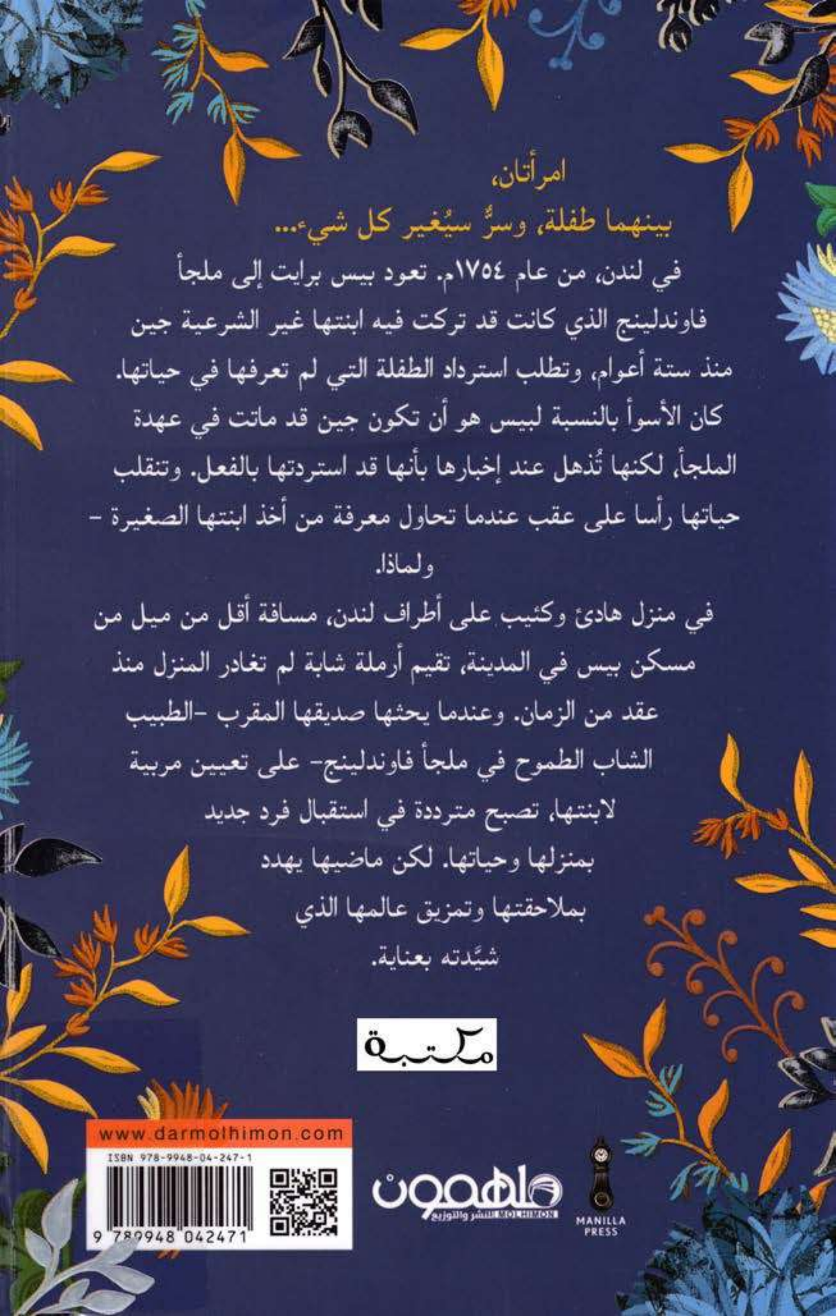
١٠. كيف تؤثر حالة لندن في العهد الجورجي على القصة؟ هل ترى ثمة مغزى في أن تنهي بيس قصتها بالانتقال إلى الريف؟

تنويه من المترجمة

كان عليَّ أثناء ترجمة الرواية تغيير بعض أسماء الشخصيات -الطفلة تحديدا- الذي كان في الأصل شارلوت **Charlotte**، وكلارا **Clara**، واللذين يشتركان في الحرف الأول بالإنجليزية، في حين أنهما لا يشتركان في نفس الحرف بالعربية، ولأن الحرف الأول عنصر أساسي في أحداث الرواية، اضطررتُ لتوحيده باستخدام اسمين آخرين هما جورجيت وجين، وكان لاختياري حرف الجيم سببا وجيها، وهو أن الحروف الأولى لأسماء الشخصيات تتبع الأبجدية الإنجليزية، فاخترت حرف الجيم لأنه ثالث حرف في الأبجدية العربية بعد الألف والباء.

مع تحياتي.





امرأتان،

بينهما طفلة، وسرٌّ سيُغير كل شيء...

في لندن، من عام ١٧٥٤م. تعود بيس برايت إلى ملجأ فاوندلينج الذي كانت قد تركت فيه ابنتها غير الشرعية جين منذ ستة أعوام، وتطلب استرداد الطفلة التي لم تعرفها في حياتها. كان الأسوأ بالنسبة لبيس هو أن تكون جين قد ماتت في عهدة الملجأ، لكنها تُذهل عند إخبارها بأنها قد استردتها بالفعل. وتنقلب حياتها رأسا على عقب عندما تحاول معرفة من أخذ ابنتها الصغيرة - ولماذا.

في منزل هادئ وكئيب على أطراف لندن، مسافة أقل من ميل من مسكن بيس في المدينة، تقيم أرملة شابة لم تغادر المنزل منذ عقد من الزمان. وعندما يحثها صديقها المقرب -الطبيب الشاب الطموح في ملجأ فاوندلينج- على تعيين مربية لابنتها، تصبح مترددة في استقبال فرد جديد بمنزلها وحياتها. لكن ماضيها يهدد بملاحقتها وتمزيق عالمها الذي شيَّدته بعناية.

www.darmolhimon.com

ISBN 978-9948-04-247-1

9 789948 042471

ملهمون للنشر والتوزيع MOLHIMON

MANILLA PRESS